شـــؤون عربيـــة

177 – ربيع 2019

مجلة قومية، فصلية، تُعنى بدراسة قضايا الأمة العربية، وشؤون العمل العربي المشترك
ومؤسساته وتصدرها الأمانة العامة لجامعة الدول العربية

رئيس التحرير **السفير / سعيد رفعت**

المسئول الإداري والمالي
عماد الدين حلمي عبد الفتاح

مسؤول الموقع الإلكتروني
محمود العطار

المراجعة اللغوية
طارق محمد أحمد

هيئـة التحـرير

السفير/ سعيد أبو علي
د. ثامر محمود زيدان العاني
سامية فتحـي بيبرس
زيد محـمد رفيق الصبان
د. حيدر طارق عبد الستار
رائـد علي صالح الجبوري
د. محمـد بن صـديق
جمال رشـدي أبو الحسن

الآراء الواردة في المجلة لا تعبِّر بالضرورة عن رأي جامعة الدول العربية، أو الجهة التي يعمل فيها الكاتب

محتويات العدد
177

- التراجع الأمريكي وتداعياته على احتمالات الانسحاب الأمريكي من المنطقة — **سعيد رفعت** — 5

ملف عربي — 17

- المناورات العسكرية العربية المشتركة — **د. رضا شحاتة** — 18
- تداعيات حل المجلس التشريعي الفلسطيني وابعاده فلسطينيا وخارجيا — **ماجد كيالي** — 30
- التطورات المفاجئة والمتناقضة في العلاقات الأمريكية التركية — **د. محمد نور الدين** — 41
- الانعكاسات الشرق أوسطية للخلاف الأمريكي الأوربي — **د. سيد شلبي** — 51

ملف دولي — 59

- تداعيات التطورات القلقلة في أوروبا وتأثيراتها على موقفها الدولي وعلاقاتها الأمريكية — **د. سلام الكواكبي** — 60
- الحرب التجارية بين الولايات المتحدة والصين .. أبعادها ومآلاتها — **د. ماجدة شاهين** — 70

الإنسحاب الأمريكي من سوريا — 81

- دلالات وتداعيات الانسحاب الأمريكي من سوريا اقليميا ودوليا — **غازي دحمان** — 82
- الكاسب والخاسر من الانسحاب الأمريكي من سوريا — **عصام عاشور** — 93

ملف ثقافـــي **103**

- محمد فوزى — **سليـــم سحـــــاب** 104
- العربي والعالمي في الموسيقى المعاصرة — **د. فـراس الطرابلسـي** 120
- المفكرون في الارض — **شعبـــان يـوســـف** 134

ملف خـــاص **147**

- مساءلة الحداثة.. بين مزاج الشك الفرنسي ووعى النقد الألماني — **صـــــلاح ســـــالم** 148
- مدي جدية تهديد الاعلام الإلكتروني للأعلام التقليدي دوليا وعربيا — **أمينـــــة خيـــــري** 160

دراســـــات **169**

- تركيا واستهداف الجغرافية السياسية للمشرق العربي الحالة السورية نموذجاً — **د. مصطفي عبـدالعزيز** 170
- ظـاهرة ازدراء الأديـان والرسـل ودور جامعـة الـدول العربية في التصدي لها — **ســـــامية بيبـــرس** 188
- مستقبل الترتيبات الأمنية العربية في البحر الأحمر — **شريف شعبان مبروك** 205

عروض كتب **225**

- الاستجابات العسكرية للانتفاضة العربية ومستقبل العلاقات المدنية – العسكرية في الشرق الاوسط — **عمـــــاد الدين حلمي** 226
- اشكالية الاصلاح التربوي في بلادنا العربية — **منة الله خـــالد محمد** 234

مجلة التنمية
والسياسات الاقتصادية

مجلة محكمة نصف سنوية
تصدر عن المعهد العربي للتخطيط بالكويت
باللغتين العربية والإنجليزية
(ISSN-1561-0411)

تعنى بنشر الأبحاث المتعلقة بقضايا التنمية والسياسات الاقتصادية في الأقطار العربية

من أجل

- زيادة مساحة الرؤية وتوسعة دائرة المعرفة لدى صانعي القرار والباحثين في الأقطار العربية.
- خلق حوار علمي بنَّاء بين الباحثين وصانعي القرار.

ندعوكم إلى

- إرسال أبحاثكم لنشرها في مجلة اقتصادية متخصصة.
- إرسال مساهماتكم من مراجعات الكتب والتقارير عن مؤتمرات تعنى بقضايا التنمية.
- الاشتراك في المجلة لاستلامها في مواعيد منتظمة.

توجه المراسلات إلى

رئيس التحرير – مجلة التنمية والسياسات السكانية
المعهد العربي للتخطيط بالكويت
ص.ب.: 5834 – الصفاة 13059 – الكويت
تليفون: 4844161 – 4843130 (965) – فاكس 4842935 (965)
البريد الإليكتروني: jodep@api.org.kw

التراجع الأمريكي
واحتمالات الانسحاب من المنطقة

سعـــيد رفعـــــت

رئيس التحرير

❐ التحولات السريعة التي تشهدها السياسة الأمريكية منذ تولي ترامب مقاليد الحكم تثير كثيرا من الجدل والخلاف حول دوافعها ودلالاتها وجدواها، خاصة من منظور الانسحاب من الاتفاقات والالتزامات الدولية، والتراجع إلى الحدود الجغرافية السياسية وإقامة جدران عازلة مع دول الجوار، وتخفيض مستوى الاهتمام بالعلاقات مع الحلفاء الاستراتيجيين، وتصعيد مظاهر الخلاف مع الخصوم التقليديين.

ولذلك، فإن كثيرا من التساؤلات أصبحت تُطرح حول أهداف هذه التحولات، وعما إذا كانت تمثل ارتباكا في طبيعية التعامل السياسي الأمريكي مع دول العالم، أم أنها تعبر عن اتجاه أمريكي للتعامل مع القوى الفاعلة على الساحة، بشكل انتقائي، بحسب تفهم هذه القوى للأفضليات الأمريكية وتقبُلها لتأثيراتها. أم أنها تعكس ازدواجية في سياسات ترامب وإدارته بين وطنية شعبوية تسعى إلى الانكفاء عن الآخر، واستعلاء، يرقى إلى حد العنصرية، في تقدير مواقف هذا الآخر، وتكييف سياساته وفقا لمصالحها.

وإذا كانت هذه التحولات قد أثبتت بوضوح أن الدوافع الرئيسية التي أصبحت تحكم توجهات ترامب تتركز في تفضيله إرضاء قاعدته الانتخابية، والحفاظ على تأييدها على أية اعتبارات أخرى، فإن واقع الأمر يشير إلى أن هذه التحولات تطرح كثيرا من الإشكاليات حول الطبيعة المتغيرة للدور الأمريكي على الساحة العالمية، وتأثيراته السلبية على صيغة التوازن في النظام الدولي، خاصة فيما تعكسه من عجز الإدارة الأمريكية على بلورة رؤية استراتيجية متماسكة لهذا النظام. فضلاً عن أن هذا الدور يكشف الأزمة

التي أصبحت تطبع السلوك الأمريكي من حيث امتلاكه للقدرة العسكرية وعجزه – في نفس الوقت – على توجيهها في الاتجاه المرغوب. وذلك ليس فقط لإصرار ترامب على اتباع نهج العفوية والانطباعية في اتخاذ قرارته، وإنما أيضا لحرصه – في نفس الوقت – على إظهار اتجاهه لعدم توريط القوات الأمريكية في أية نزاعات عسكرية. وهو ما أدى، بالتبعية، إلى فقد القدرة العسكرية الأمريكية مصداقيتها نتيجة عزوف ترامب عن استخدامها في خدمة القرار السياسي الأمريكي، خاصة في ضوء تذبذب هذا القرار وتصاعد احتمالات التراجع عنه بنفس سرعة اتخاذه، الأمر الذي يعطي – في مجموعه – الانطباع بضعف القدرة الأمريكية على تحمل دور القيادة العالمية منفردة. ومن ثم سيادة الاعتقاد بأن التفوق العسكري الأمريكي لا يدخل بالضرورة في توازنات القوة الشاملة مع القوى الدولية الأخرى طالما أنه لا يخدم القرار السياسي للدولة.

ولعل إدراك القوى الكبرى والإقليمية هذا الوضع هو ما دفعها إلى التعامل مع هذه المرحلة باعتبارها مؤقتة وانتقالية، يمكن استنفاذها لتحقيق المزيد من القوة العسكرية، وبناء النفوذ السياسي والاقتصادي، دون خوف من إثارة ردود أفعال أمريكية.

❖ ❖ ❖

وبالرغم مما تفرضه هذه التحولات على السياسة الأمريكية من أضرار استراتيجية بمصالح البلاد في ضوء اتصالها بموقع أمريكا الريادي على الساحة العالمية، وتعلقها بحسابات القدرة العسكرية الأمريكية بمنظورها الشامل، إلا أن الواضح أن هذه التحولات يمكن وضعها في إطار محاولة ترامبية غير مخططة، ناتجة عن فهم مغلوط، لأسباب تدهور القدرة الأمريكية بادعاء أنها ترجع إلى حجم الأعباء والالتزامات التي تتحملها الولايات المتحدة للدفاع عن حلفائها وشركائها، بما يستلزم مطالبتهم بالمشاركة في تكاليفها وتسديد كافة الفواتير المتأخرة. وقد تسبب هذا المنطق التجاري المبسط في خلافات واسعة بين أركان المؤسسة الأمريكية الحاكمة، وأجهزة الإعلام الأمريكية، ورؤساء دول حليفة للولايات المتحدة في أوروبا والمنطقة العربية. وذلك رغم نجاح هذا

المنطق في جذب تأييد الناخبين البسطاء من أنصار الرئيس الأمريكي المتعلقين بوعوده وشعاراته باستعادة مقومات « أمريكا العظمى »، وهو الأمر الذي دل بوضوح على أن الإدارة الأمريكية هي التي تخلط الأوراق، وتتجاهل الحقائق على الأرض، حيث إن المعروف – تاريخيًا – أن التراجع الأمريكي لا يعود فقط إلى الإنفاق العسكري الذي تحملته الولايات المتحدة – راضية – باعتباره مقابلاً عادلاً لتفردها بموقع القطب العالمي الأوحد الذي تُدافع، عبره، عن خططها ومصالحها وقيمها، خاصة مع إدراكها بأن حلفاءها العرب قد شاركوا بالفعل في حربها على الإرهاب، وساهموا معها في هذه الحرب ماليًا وأمنيًا، فضلاً عن استجابة حلفائها الغربيين بزيادة مساهماتهم في ميزانية حلف الأطلنطي. وإنما يعود هذا التراجع – أساسًا – إلى عوامل أخرى كثيرة منها، نكوص الناتج القومي الإجمالي للبلاد، ونمو الاقتصاد الصيني، وظهور أوروبا الموحدة، والاحتمالات المتزايدة لبناء نظام عالمي واقتصادي جديد متعدد الأطراف، قد لا يعتمد في المستقبل المنظور على الدولار الأمريكي، وغير ذلك من أسباب.

❖ ❖ ❖

وإذا كان الشاهد أن الولايات المتحدة تعاني من تراجع نسبي في قدراتها الاقتصادية، وتآكل في نفوذها السياسي على المستوى الدولي، فإن واقع الأمر يشهد على أنها ما زالت تمثل القوة العسكرية الأولى في العالم دون منازع، كما أنها ما زالت تحظى بأكبر قدر من القوة الناعمة المتمثلة في نمط الحياة ونموذج المعيشة وغيرها. ورغم ذلك فإن الانكفاء إلى الداخل وتحول أمريكا إلى دولة حبيسة حدودها، يمثل احتمالاً واردًا في اعتقاد بعض الدوائر السياسية النافذة في البلاد، وذلك في ظل سياسة ترامب الخارجية، وفي إطار النتائج التي أدت إليها سواء من حيث الانقسام الأمريكي داخل الكونغرس، أو بين أنصار الرئيس داخل حزبه من المطالبين بأمريكا أولاً، أو الداعين إلى الإمبراطورية الأمريكية.

إلا أن الواضح أن هذه الاحتمالات يدحضها واقع البلاد السياسي ونمط الحكم التنظيمي والقانوني فيها. حيث لا يملك الرئيس الأمريكي القدرة – وربما الرغبة – على

إجراء مثل هذه التغييرات الاستراتيجية الجذرية – بمفرده– على الدور الأمريكي في الساحة العالمية، خاصة وأن مؤسسات الدولة العميقة المستندة إلى توازن السلطات، والمحتكمة إلى الدستور والقانون والخبرات التاريخية، والمؤيدة بقوة من طرف الصحافة والمؤسسات الإعلامية الكبرى، تستطيع أن تحد من اندفاع الرئيس، وأن تعقلن من توجهاته وأن تضع حدودا لسياساته في حالة تعريض المصالح الأمريكية للخطر، فضلاً عن أن الاتجاه السياسي الأمريكي المتصاعد، والذي تتشارك فيه وجهتا نظر إدارتي أوباما وترامب بالمضي قدمًا في إجراءات الانسحاب الجزئي من منطقة الشرق الأوسط، في ضوء تعدد أزماتها، وخطورة التورط في مشكلاتها، وضعف مردود النشاط الأمريكي على ساحتها، وذلك في سبيل الاتجاه إلى تركيز جهودها على مصالحها الاستراتيجية الأوسع في القارة الآسيوية، لمواجهة الطموح الصيني المتصاعد في جنوب بحر الصين، ومراقبة النشاط الروسي الراغب في البناء على نجاحاته في أوكرانيا وسوريا، ولجم سياسات كوريا الشمالية وطموحاتها في رفع حصيلة مكتسباتها. وكلها معطيات لا تُنبِئ بتخلي الولايات المتحدة عن مسؤولياتها الدولية، أو الانسحاب – بجرة قلم – من المشاركة في قضاياها الساخنة، أو التقوقع – بقدراتها الاستراتيجية الجبارة – داخل حدودها السياسية، وإنما التقدير الأغلب أنها تعيد تقييم أولوياتها، وتركيز اهتماماتها، ومد قدراتها إلى الأماكن التي تمثل لها أفضلية في تحقيق مصالحها الاستراتيجية وتثبيت مكانتها الدولية.

❖ ❖ ❖

ومن هنا تظهر تداعيات التطورات الإقليمية والدولية، وتغير اتجاه المصالح الأمريكية إلى دفع منطقة الشرق الأوسط في أسفل قائمة أولويات الولايات المتحدة. وذلك وفق تقدير تتشارك فيه وجهتا نظر الإدارة الأمريكية السابقة والحالية استنادًا إلى الاعتبارات التالية:

أولاً : أن الولايات المتحدة أصبحت متورطة – سياسيًا وعسكريًا – أكثر من اللازم في المنطقة الأمر الذي يفرض عليها تركيز اهتماماتها وتكريس جهودها في المناطق الأكثر حيوية لمصالحها. وهو اتجاه لا يعكس، من وجهة النظر الأمريكية، ميلا أيديليوجيا أو نزوعا شخصيا، وإنما يرجع إلى تغير عميق في الديناميكية الإقليمية، وفى المصالح الأمريكية الأوسع. كما أنه لا يعكس رغبة في الانسحاب التام من المنطقة، وإنما يطمح للتعامل معها بمستوى سياسي أقل، وجهد دبلوماسي أهدأ، وإنفاق مالي أضعف.

ثانيًا: أن القول بأهمية الشرق الأوسط للولايات المتحدة لا يعني أن إنقاص الالتزام الأمريكي تجاهها سيكون بالضرورة مفيدا للمنطقة. وإنما يشير إلى أن الولايات المتحدة تريد أن تُنهي الآمال الزائفة بقدرتها على تحقيق النظام والاستقرار على ساحتها بشروطها. وذلك دون تكاليف عالية، والتزامات طويلة الأمد من شأنها أن تزيد من إحباط الرأي العام الأمريكي بمشاكل المنطقة التي لا تنتهي. وأن تُبقي على حالة عدم الوضوح بالنسبة للالتزامات الأمريكية، وأن تهدد بمخاطر تورطها في نزاعات عسكرية بالمنطقة.

ثالثًا: أن مناطق أخرى صاعدة على المستوى العالمي قد أصبحت أكثر أهمية للاستراتيجية الأمريكية الشاملة، بما يتطلبه ذلك من إعادة التوازن في توزيع القدرة الأمريكية لتخفيف التزاماتها في المناطق التي أصبحت تمثل عبئًا عليها، وتكثيفها في المناطق ذات الثقل الخاص لمصالحها الاستراتيجية.

رابعًا: أن وفرة الإنتاج الشامل في مجال البترول، وتنوع مصادره في الأسواق الدولية نتيجة تطور الوسائل التكنولوجية في عمليات استخراجه، قد أضعفت من قوة عامل البترول كدافع للسياسة الأمريكية، وقللت من قدرة دول المنطقة في السيطرة على أسعاره، كما خففت من قلق الولايات المتحدة ومسئوليتها في حماية تدفق البترول من مصادره.

خامسًا: أن النزاعات بين الدول المحلية في المنطقة التي هددت المصالح الأمريكية بشكل مباشر في الماضي، قد تم استبدالها بالتهديدات الأمنية من داخل هذه الدول نفسها، وهو الأمر الذي يُصّعِب الموقف على الولايات المتحدة في ضوء ضعف قدرتها على احتواء هذه التهديدات من الخارج. وتتضاعف خطورة هذا الوضع في إمكانية تدفقه على الدول المجاورة بما يهدد بنشر الفوضى وعدم الاستقرار على أراضيها.

سادسًا: أنه بالرغم من الاتجاه الغالب في الأوساط السياسية المؤيدة للرئيس ترامب برفض القرار الخاص بالانسحاب الأمريكي من سوريا، إلا أن تقدير الإدارة الأمريكية الحالية، إذ يعترف بخطورة احتمالات تداعيات هذا الانسحاب، بدءًا بمنح روسيا والصين مكانًا ثابتًا على ساحتها، ومرورًا بتصاعد نشاط تنظيم داعش في أراضيها، وانتهاء بتكثيف التهديد الإيراني لحلفاء أمريكا فيها, وزيادة الطموح التركي بملء الفراغ الناتج عن الانسحاب، إلا أن هذا التقدير يؤكد محدودية قدرة ورغبة كل من الصين وروسيا في إقامة هيمنة إقليمية في المنطقة، ليس فقط لتركيز روسيا أهدافها في سوريا على عاملي القوة والمال، ولرغبة الصين في توسيع روابطها الاقتصادية بدول المنطقة دون التورط في أي من مشاكلها، إلا أن الأهم في هذا الشأن – من وجهة نظر الإدارة الأمريكية – هو إدراك الطرفين بالثقل الهائل للدور الأمريكي في إدارة الأمن الإقليمي، واقتناعهما بعدم قدرة الطرفين على تعويضه أو ملء الفراغ الناتج عن انسحابه. هذا فضلاً عن وعيهما بإمكانية استعادة أمريكا – إذا رغبت – أفضلية مكانتها وقوتها في المنطقة حتى بعد الانسحاب منها.

سابعًا: أما بالنسبة لما تمثله داعش وإيران من تهديدات في المنطقة بعد الانسحاب ، فيتجه التقدير الأمريكي إلى أن مواجهة داعش لن تتغير حساباتها وموازينها كثيرًا، لأن القوات الأمريكية المتمركزة في العراق ستظل تقوم بمحاربتها في إطار التحالف الدولي استنادا إلى استمرار التزامها بمحاربة الإرهاب في المنطقة. أما إيران فإن

مواجهتها تتم من خلال مضاعفة العقوبات الاقتصادية عليها، ومحاولة إشراك الدول الأوروبية في الالتزام بفرضها، وخاصة بعد ثبوت فاعليتها في إرباك الأوضاع الداخلية الإيرانية. هذا فضلاً عن الجهود الأمريكية في التوصل إلى تحالفات أمنية مع بعض الدول الحليفة في منطقتي المشرق العربي والبحر الأحمر، وتوسيع قاعدة الدول المشاركة في مواجهة التهديدات الإيرانية. وكذلك تكثيف اتصالاتها مع روسيا لمساومتها بالانسحاب الأمريكي الكامل من سوريا، مقابل إنهاء التواجد الإيراني فيها، فضلاً عن الإصرار الأمريكي على لجم الاندفاعات التركية في ضرب الحليف الكردي بعد الانسحاب، حتى لو أدى الأمر إلى تأخير الانسحاب عن بعض القواعد الأمريكية في سوريا.

❖ ❖ ❖

هذا وإذا كانت الإدارة الأمريكية قد بدأت في تخفيف التزاماتها في المنطقة بالإعلان عن قرب انسحاب قواتها من سوريا، مع الإعراب – في نفس الموقف– لتغيير سياستها في هذا الشأن في حالات (1) تعرض مصالح حلفائها الأساسين للخطر. (2) إعاقة حرية الملاحة في الممرات البحرية الأساسية (مضيق هرمز باب المندب – قناة السويس). (3) محاربة الإرهاب من زاوية ضمان أمن الشعب الأمريكي والقوات الأمريكية المتمركزة في الخارج. إلا أن الشاهد من متابعة منطق الإدارة الأمريكية في عمومه بالنسبة لموضوع الانسحاب الأمريكي من المنطقة، أنه يحوطه كثير من اللبس والغموض الذي يمكن رصد مظاهره فيما يلي:

أولا : أن الانسحاب الأمريكي من سوريا التي يتمركز فيها عدد محدود من القوات الأمريكية بصفة مؤقتة، وتقتصر الأهداف الأمريكية فيها على لجم النشاط الإيراني، وحماية الأكراد، فضلاً عن ضمان أمن إسرائيل. ولا يقلقها الانسحاب منها، بقرار رئاسي منفرد، في ضوء غياب مصالح حيوية لها في سوريا. كما أنها لا تمانع في تحميل المشكلة برمتها لروسيا بعد الانسحاب من سوريا. خاصة مع

اطمئنانها للالتزام الروسي الصارم بأمن إسرائيل. وذلك بعكس الحال بالنسبة للانسحاب الأمريكي من المنطقة التي تتمتع فيها الولايات المتحدة بنفوذ تاريخي، وترتبط بمصالح وتحالفات والتزامات مع شركائها. وتواجه صراعات وتنافسات مع خصومها، وتتواجد على ساحتها قواعد عسكرية، وتمركزات أمنية، وأساطيل بحرية وحاملات طائرات جوية. فإن الشاهد أنه يصعب الانسحاب الكامل منها إلا بقرار استراتيجي يعكس تغييرا حادًا وتحولا جذريا في الاستراتيجية الأمريكية لا يتعلق فقط بمنطقة الشرق الأوسط وإنما يتصل أيضا بامتداداتها في البحر المتوسط والبحر الأحمر.

ثانيا: أن السياسة الأمريكية الهادفة لاحتواء إيران عن طريق العقوبات الاقتصادية تشكل في حد ذاتها مشكلة تتعلق بموقف أوروبا التي ترفض بعض دولها هذه العقوبات، وترغب في استمرار الاتفاقية النووية مع إيران، وتعمل على إقامة آلية مالية مستقلة لإيجاد قنوات بديلة للتحويلات النقدية إلى إيران، وهو الأمر الذي يقلق الولايات المتحدة من جراء احتمال قيام دول أوروبية أخرى بسلوك نفس الطريق، أو أن يجري استخدام هذه الآلية في غير الأغراض المحددة لها، الأمر الذي دفعها لحث الأوروبيين على الخروج من الاتفاق وتحذيرهم من محاولة الالتفاف على العقوبات.

ثالثا: أن محاولة أمريكا احتواء إيران عبر فرض عقوبات اقتصادية عليها، ورفع يدها – في نفس الوقت– عن مواجهتها عسكريا، والإيعاز بإقامة تحالف دولي – تمثل بؤرته بعض الدول العربية الحليفة – لمواجهة الخطر الإيراني في المنطقة، تُشكل اتجاها يحمل في طياته احتمالات تعثره، من جراء الاختلافات العميقة بين الدول الأوروبية حول السياسة الأمريكية تجاه طهران، فضلاً عن عدم اجتماع الدول العربية على مقاربة واحدة من الخطر الإيراني، وغياب استعداد متساو لديهم للمساهمة في مواجهة هذا الخطر. إضافة إلى التوجس العربي من بعض توجهات السياسة الأمريكية التي تفضل إدارة الأزمة الخليجية على حلها، كما أنها لا تدرج اليمن في استراتيجيتها المضادة لإيران.

رابعا: بالرغم من اتجاه الرئيس ترامب في السير على خطوات أوباما في الانسحاب من سوريا أولا، ثم من المنطقة بعد توزيع الأدوار على اللاعبين الإقليميين والدوليين منها، إلا أن طابع التردد والمراوغة يغلب على سياساته من حيث التأكيد – من ناحية –على أن تنفيذ الانسحاب لن يغير شيئا في المنطقة، في نفس الوقت الذي يُسَّوق فيه المسئولون الأمريكيون فكرة أن الفوضى ستملأ أي فراغ يخلقه الغياب الأمريكي على ساحتها. وهو ما ينسف الأساس الذي تُبنى عليه المبررات الأمريكية للانسحاب المتمثل في هزيمة داعش وزوال التهديد الذي تشكله على القوات الأمريكية وحلفائها في المنطقة.

خامسا: أن العراق – بمجمل توجهاته السياسية – لا يخفي تحفظاته على استمرار التواجد العسكري الأمريكي على أراضيه، خاصة في حالة تجاوز أهداف هذا التواجد من محاربة الإرهاب، إلى مراقبة أو مواجهة النشاط الإيراني في المنطقة. وذلك في ضوء حساسية الموقف الداخلي العراقي – بحمولاته الطائفية والمذهبية والسياسية – من اتخاذ أية مواقف يُشتم منها "مناوئة" إيران. فضلا عن رغبته في أن يكون له علاقات طيبة بكافة دول الجوار، أيا كانت توجهاتها، لشدة حاجته إلى توفير الأمن والاستقرار وإعادة الإعمار في البلاد.

سادسا: ومع ذلك فإن الشاهد أن التقديرات السابقة التي يجري رسم ملامحها العامة وتحديد خطوطها العريضة في مؤسسات الحكم الأمريكية، وأجهزة الدولة العميقة، يمكن أن تتعرض لتقلبات المزاج النفسي، والتقدير الانطباعي للرئيس الأمريكي، الأمر الذي قد يضعف من تأثيراتها، ويربك تراتيبيتها، ويخل بتوازنها حتى إذا تراجع عن موقفه بعد حين.

❖ ❖ ❖

وبناء على التقديرات السابقة يمكن تحديد الإطار العام للسياسة الأمريكية في المنطقة. في سياق التغيرات التي تشهدها الاستراتيجية الأمريكية، والعوامل التي تمر بها

عملية اتخاذ القرار في واشنطن، والظروف المتقلبة على ساحة المنطقة، والاعتراف بحقيقة أن ما يكون في صالح السياسة الأمريكية قد لا يكون في صالح دول المنطقة، في الملامح التالية:

أولا: أن الولايات المتحدة لا تستطيع الانسحاب من المنطقة ككل حيث إن مصالحها الاستراتيجية ما زالت تتطلب تواجد قدراتها وقواتها وقواعدها العسكرية على الساحة، وإن كان هذا التقدير لا ينفي اتجاهها إلى تخفيف التزاماتها، ووضع ضوابط لسياستها في مناطق، وإعادة توزيع تواجدها في مناطق أخرى تبعا لتغيرات المصالح الأمريكية الشاملة.

ثانيا: أن الواضح أن أمريكا ستمضي في استراتيجيتها لاحتواء إيران بوسائل سياسية واقتصادية، بينها التوسع في فرض عقوبات اقتصادية عليها. وحشد الدول الحليفة ضدها، ومحاولة إقامة تحالف عربي لاحتوائها، والربط ما بين السلام في المنطقة ومواجهة إيران على ساحتها، وإن كانت ردود الأفعال السائدة هي الاستجابة لإدانة إيران سياسيا، والتحفظ على اتخاذ إجراءات عقابية ضدها. وهو ما يظهر جليا في مواقف الدول الأوروبية الرئيسية، خاصة في ضوء تقدير بعضها أن الرئيس الأمريكي يبالغ في استعراض قوته ضد إيران وفنزويلا لتغطية انسحاباته من سوريا وأفغانستان.

ثالثا: أن التوقع أن تمضي السياسة الأمريكية في إجراءات الانسحاب من سوريا، وتحميل روسيا مسئولية التطورات الجارية على ساحتها، والنتائج المترتبة عليها، سواء أكانت متعلقة بالترتيبات الروسية الإسرائيلية في الأراضي السورية للحفاظ على أمن إسرائيل من التحركات الإيرانية، أو متصلة بمحاولات إيران المتوقعة لإعادة التموضع في الأراضي السورية عقب الانسحاب، أو دافعة للطموحات التركية لملء الفراغ الناتج عن الانسحاب واستثماره في ضرب الأكراد. وكلها مهمات تزيد من أعباء روسيا، خاصة في ضوء تشككها في موقف ترامب من الانسحاب،

خاصة بعد قراره بالإبقاء على عدد محدود من القوات الأمريكية، تنضم إليها قوات أوروبية، لضبط المنطقة الأمنية في شمال شرق سوريا.

❖ ❖ ❖

هذا وإذا كانت الولايات المتحدة تتحرك بتأن في المنطقة، وفى حسبانها وقع التحرك الروسي على ساحتها، إلا ما يطمئنها في هذا الشأن هو علمها بأن روسيا لا تمتلك القدرة – أو الرغبة – في السيطرة على مقدرات المنطقة، إذ أنها تحرص على تخفيف التورط في أية منافسات ليست لها موقع الأفضلية فيها. فضلاً عن أنها رغم استفادتها من تراجع الاهتمام الأمريكي النسبي بالمنطقة، فإنها ليست مسئولة عن هندسة التحول الكبير للسياسة الأمريكية فيها. ولذلك فإنه في ضوء غياب الاعتبارات الأيديلوجية عن السياسة الروسية، وعدم تقيدها بالقيم التي تقيد أمريكا وأوروبا نفسها بها، فإنها تحرص على الحفاظ على علاقات «وظيفية» مع جميع الأطراف بما فيها الفرقاء المتعادون. كما أنها تدير شبكة من العلاقات السياسية والاقتصادية بين إيران وتركيا وإسرائيل. وتظهر حساسية الدور الروسي في جمعه بين كافة المتناقضات التي تشهدها ساحة المنطقة. إذ بالرغم من المكاسب الكثيرة التي حققتها روسيا من الجانب العربي في سياق الأزمة، فإنها ما تزال متمسكة بالتحالف مع إيران. كما أنها تراهن على تحالف مع تركيا لقاء منحها – بشروط – رقعة من النفوذ في سوريا. وذلك في نفس الوقت الذي تحافظ فيه على درجة من التنسيق مع إسرائيل تمكنها من ضرب بعض التمركزات الأمنية الإيرانية في سوريا، لقاء الإبقاء على باب المساومة مفتوحا مع الولايات المتحدة.■

1

ملـــف عـربـــي

- المناورات العسكرية العربية المشتركة — د. رضـــا شحاتـــة
- تداعيات حل المجلس التشريعي الفلسطيني وابعاده فلسطينيا وخارجيا — ماجـــد كيالـــي
- التطورات المفاجئة والمتناقضة في العلاقات الامريكية التركية — د. محمـــد نور الـدين
- الانعكاسات الشرق أوسطية للخلاف الامريكي الاوربي — د. ســـيد شـــلبي

ملـف عربـي

المناورات العسكرية العربية المشتركة
إشكاليات الحاضر وآفاق المستقبل

د. رضـــا شحـــاته

مساعد وزير الخارجية المصري الأسبق – القاهرة

أولاً: الجذور التاريخية والأطر القانونية

الجذور التاريخية والأصول المعاصرة لمفهوم وعقيدة الدفاع المشترك في السياسة العربية المعاصرة ليست بكل اليقين وليدة اليوم، بل ربما يعود في الوقت الحاضر إلى مصدرين أو منبعين أساسيين أولهما ميثاق جامعة الدول العربية منذ عام 1945 السابق على ميثاق الأمم المتحدة وكلاهما حصاد ما بعد الحرب العالمية الثانية، أما ثاني المصدرين في تاريخنا المعاصر فهو بشأن الدفاع العربي المشترك 1951 بالترتيب الزمني، وحتى كلا المصدرين العربيين يعودان في منابعهما وخلفياتهما التاريخية الأولى الأقدم إلى فجر التاريخ الإسلامي، والدولة العربية الأولى في عصور الخلافة الإسلامية، ومفاهيم العروبة والأمة الواحدة ثم القومية العربية فيما بعد عهد ازدهار القوميات بعد الحرب العالمية الأولى والتي انطلقت في عالمنا العربي رفضا ومعارضة للحكم العثماني.

وقد عاصرت فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية مدًا قوميًا لحركات التحرير الوطني في مصر والمشرق والمغرب العربي وشهدت النشأة والتوافق لاتفاقية الدفاع العربي المتبادل والتعاون الاقتصادي المؤرخة في 7يونيه 1950 وكانت تضم 7دول عربية مستقلة عندئذ (مصر، العراق، الأردن، لبنان، السعودية، سوريا، ليبيا)، في موادها العاملة لاتفاقية الدفاع المشترك في الفقرتين(2)،(6) اللتين تعبر أحدهما (فقرة 2) أن العدوان المسلح ضد دولة أو أكثر من الدول العربية أو على قواتها المسلحة موجهة لها

جميعًا ومن ثم عملاً بمبدأ الدفاع عن النفس فرديا وجماعية (أي تطبيقًا للمادة (51) لميثاق الأمم المتحدة، فإن الدول العربية تتعهد بأن تبادر ودون إبطاء بمساعدة الدولة أو الدول التي يرتكب ضدها مثل هذا العدوان وأن تتخذ على الفور فرديًا أو جماعيًا الخطوات المتاحة، بما في ذلك استخدام القوة المسلحة لردع العدوان واستعادة الأمن والسلام إلى نصابهما، وأنه سوف يتم إبلاغ مجلس الجامعة العربية ومجلس الأمن الدولي بمثل هذا العدوان والإجراءات التي اتخذت لردعه.

أما المادة (5) فتشير إلى تشكيل لجنة عسكرية دائمة من هيئات الأركان العامة للجيوش العربية لوضع خطط الدفاع المشترك، وتشير المادة (6) إلى تشكيل مجلس دفاع مشترك للإشراف على تنفيذ مواد الاتفاقية، وهو مكون من وزراء الخارجية والدفاع (تشمل الاتفاقية 13مادة وملحقًا عسكريًا) وانطباعاتي أن إعادة قراءة اتفاقية الدفاع المشترك في ظل ظروفنا الحاضرة وتحدياتها وفى ظل ما يشبه الإجماع يعد قاعدة توافق عربي واسعة على إجراءات مناورات عسكرية عادية مشتركة في ظل ظروف مختلفة بكل المعايير، لكنها لا تقل صعوبات وخطرًا على ضوء المتغيرات في السنوات الأخيرة.

ثانياً: **هذه الخلفية السياسية والقانونية**

كانت كلها بمثابة الأسس التي استندت إليها كل المحاولات العربية لتشكيل قوة عربية موحدة وإن لم يكن الوقت قد حان بعد لتخرج إلى العالم وربما كانت آخر المحاولات الحديثة لتشكيل تلك القوة العربية المشتركة بهدف الدفاع المشترك لصون السلم والأمن العربي الجماعي، كما انعكس في اتفاق الدفاع المشترك منذ أكثر من عقود، هو ما كان قد اتفق عليها مارس 2015 في اقتراح الرئيس عبد الفتاح السيسي أمام مؤتمر القمة العربية في شرم الشيخ لإنشاء قوة عسكرية موحدة لمواجهة الأزمات، خاصة مكافحة الإرهاب وحماية المدنيين ووقف التدخلات الإقليمية في الدول العربية. ثم جاء إحياء الاقتراح في شكل مناورات عربية مشتركة بحرية جوية برية وقوات خاصة، بدءًا من مناورات درع العرب (1) في مصر 3–16 أكتوبر 2018.

الأطر القانونية
اتفاقية الدفاع العربي المشترك

تنفيذًا لميثاق الجامعة إنما تكمن في نصوص الاتفاقية وملحقها العسكري وفي نصوص الميثاق ذاته، بل وفي نصوص ميثاق الأمم المتحدة، وهي كلها تمثل القواعد القانونية التي تُشرِع إجراءات الدفاع المشترك حسب المصطلح الذي يُستخدم في كل حالة من حالات الردع والصد لأي عدوان مسلح.

ثالثاً: أمثلة تاريخية وتجارب الماضي لتنظيم الدفاع المشترك النجاحات والإخفاقات

شهدت جامعة الدول العربية منذ القرن الماضي محاولات أولية لتشكيل قوة عسكرية عربية أو بعبارة أدق عمليات عسكرية مشتركة تحت عدة مسميات "قوة أمن عربية"، قوة رمزية، قوة ردع عربية، أو حتى مصطلح قوة للجامعة العربية (وهي في الحقيقة قوة حفظ سلام ومراقبة بحتة. ومهما كانت المسميات لهذه الأشكال العسكرية المشتركة الثلاثة كانت محاولات محدودة للجامعة العربية للتدخل في أزمات عربية حادة، لكن إنشاء قوة عربية عسكرية واحدة يمكن أن تطلق عليها قوة تدخل مقاتلة هدفها تحرير دولة عربية هي الكويت في أزمة التدخل العسكري للعراق في الكويت عام 90-91 (عملية ردع العدوان)، أما الأمثلة الأخرى فهي:

أ- قوة الجامعة العربية في الكويت ما بين سبتمبر 1961 وفبراير 1963 وهي قوة استهدفت صون السلام في الكويت في أعقاب الاستقلال من بعض الأطماع الخارجية

ب-قوة أمن رمزية بين يونيو 1976 إلى أكتوبر 1976 (وهي قوة أمن رمزية بين الكويت والعراق

وهذه العمليات المشتركة الثلاثة (من عدة دول عربية) هي في الحقيقة عمليات مستقلة من قوات حفظ السلام لا قوات تدخل أو ردع أو فض اشتباك.

وفى لبنان تحديدًا شهدت الجامعة العربية بعد اجتماع لها في القاهرة (بحضور سوريا ومصر ولبنان والسعودية والكويت وفلسطين) قوة حفظ سلام عربية مكونة من 30000 فرد وذلك بعد مناقشة الدور السوري في لبنان وكان مجلس وزراء خارجية الجامعة العربية في القاهرة قد وافق على تشكيل قوة سلام عربية وأحيل إلى القمة العربية في الرياض لإقراره ليطلق عليه بعد ذلك (قوة ردع عربية)1976

ربما كان أنجح إنجازات القوات العربية المشتركة في مهام تدخل عسكرية دائمة من القوات المشتركة تهدف إلى درء عدوان إحدى الدول العربية (العراق) على دولة عضو) الكويت عام 1990 من السعودية ودول عربية أخرى (مصر، سوريا) ومن الولايات المتحدة وهي إعادة السلام والاستقرار إلى نصابهما بعد خروج القوات العراقية من الأراضي الكويتية تطبيقًا لاتفاقية الدفاع المشترك وميثاق الجامعة العربية وقرارات مجلس الأمن وإن لم يزل الجدل القانوني لتلك السياسة مستمرًا حول مشروعية الحاجة لمبدأ الإجماع أو الأغلبية في القمة العربية بالقاهرة وهو ما يرتبط بتفسير مصطلح الإجماع أو الأغلبية في اتخاذ قرارات السلم والحرب في ميثاق الجامعة العربية.

رابعاً : تجارب الحاضر، تحدياتها وإشكالياتها وفرص نجاحها

هذه كلها تجارب الماضي إن هي إلا أمثلة على محاولات جادة حققت بعض النجاح أو واجهت الإخفاق في تشكيل قوة عربية مشتركة لأهداف متنوعة، كما سبق القول، للأمن والمراقبة وحفظ السلام وربما لما وصف بالردع، أو حتى لمهام التدخل المباشر والقتال والتحرير، وكانت كلها في خلفية القادة وصناع القرار في المحاولات والجهود الجادة للعودة مرة أخرى لمحاولة إحياء تجارب الماضي بتشكيل قوات عربية مشتركة. برغم المتغيرات المحلية والإقليمية والدولية العميقة في الشرق الأوسط، وهو ما أدى لأن تواجه تحديات شديدة الاستعصاء على الحل بل وإشكاليات يصعب أحيانًا إيجاد مخرج

لها، لكن ثمة تجربتان حديثتان شهدتا إخفاقًا كبيرًا في تشكيل قوات عربية مشتركة للتعامل مع وضعين عربيين تعرضا لعدوان خارجي سافر صريح ولأزمة حرب أهلية في نفس الوقت ولم تتمكن الدول العربية للأسف من تحقيق توافق واسع القاعدة يسمح بتكوين قوة عربية مشتركة.

الموقف الأول الأزمة السورية . رغم محاولات الجامعة العربية لضمان تدخل عربي كقوة أقرب إلى حفظ السلام ومراقبة وقف الحرب وحماية المدنيين، ولكن الجهود لم تثمر لتباين المواقف العربية في أحداث الربيع العربي.

الموقف الثاني هو التغيير والثورة في ليبيا، وتدخل الناتو عسكريا، تحت مسمى (الحق في الحماية) فانتهت الأمور إلى حرب واقتتال ثم تمزيق الوطن العربي الذي شهد اضطرابًا أمنيًا وسياسيًا شديدًا في كل ما أطلق عليه عندئذ الربيع العربي، وربما يكون ذلك ما حال دون بلورة موقف عربي موحد وهو شرط ضروري لتشكيل أي قوة عربية مشتركة.

خامساً : حالة التدخل الإيراني السافرة في دولة عربية ذات أهمية وموقع استراتيجي

حاكم هي اليمن دفع دولتين عربيتين خليجيتين هما السعودية والإمارات (مدعومة من مصر بشكل أو بآخر) قد تمكنا من تشكيل قوة عربية تحاربان العدوان الإيراني وتدخله في الشئون الداخلية في اليمن بدعم فصائل الحوثيين وتعميق الانقسام المذهبي بين الزيديين الشيعة والسنة في اليمن ومحاولات السيطرة على جنوب شبه الجزيرة العربية، وتهديد الملاحة في مضيق باب المندب وطرق التجارة وهو ما دفع مصر للدفع بقطع من البحرية المصرية لحماية المدخل الجنوبي للبحر الأحمر ومن تهديد قناة السويس.

ولعل هذه التطورات تحديدًا في اليمن ما شكل الدافع الاستراتيجي وراء حماس كل من السعودية والإمارات بشكل قوي لدعم الاقتراح الذي كانت مصر قد تقدمت به عام

2015 في قمة شرم الشيخ بتكوين قوة عربية مشتركة لمواجهة الإرهاب وحماية المدنيين ويبدو أن ملاءمة عام 2017 جاءت عندما تولت إدارة الرئيس ترامب مقاليد الرئاسة في أمريكا فطرحت بقوة اقتراحًا محددًا ومباشرًا لإنشاء حلف استراتيجي شرق أوسطي قوامه مجلس التعاون الخليجي ومصر والأردن وإن كان في البداية بقيادة الولايات المتحدة حتى ولو كانت قيادة من الخلف كما يقال.

هذا الاقتراح من الرئيس ترامب بتشكيل حلف استراتيجي شرق أوسطي أو الذي يطلق عليه مجازًا مصطلح (الناتو العربي) لما قد يبدو من أوجه تشابه بين هذا الناتو العربي والناتو اليورو أطلنطي من الأهداف رغم ما بينهما من اختلافات في المهام والمفاهيم.

سادساً : النظرة التحليلية المتعمقة تفصح عن إشكاليات

قد لا يكون ثمة سبيل إلى الخروج منها إلا بتعديلات جذرية في الشكل والمهام وحتى في العضوية، تفرض حتما تغييرًا بما يحافظ على جوهر الهدف الحقيقي من إنشاء قوة عربية مشتركة وهو مفهوم الدفاع المشترك.

هذا الحلف الاستراتيجي الشرق أوسطي باصطلاحه الأمريكي أثار ردود فعل متباينة ما بين التشكيك المطلق وبين اليقين القاطع وقد كان ذلك في مايو 2017 في أعقاب القمة العربية الإسلامية في الرياض بل والإعلان أن الإجراءات سوف تستكمل بنهاية 2018 ثم يدشن في كامب ديفيد بواشنطن في بداية 2019 ورأت أكثر الدول العربية حماسًا في الرياض أن تلك الخطوة سوف تكون تحولاً تاريخيًا في العلاقات مع الولايات المتحدة وأن مسرح الحلف الجديد سوف يغطي الخليج العربي والبحر الأحمر والبحر المتوسط والممرات البحرية الرئيسية الثلاثة مضيق هرمز وباب المندب وقناة السويس ومهامه سوف تكون مراقبة حركة الملاحة في تلك المناطق والتصدي لعمليات تهريب الأسلحة غير المشروعة ومراقبة تحركات إيران العسكرية على الحدود العراقية والسورية والإيرانية وميلشياتها الموالية لها ودعمها للجماعات الإرهابية .

أما الجماعات المعارضة لتأسيس مثل هذا الحلف فوصفته بأنه دعوة للحرب والدليل هو استبعاد إيران وتركيا، وأن الهدف منه زيادة مبيعات الأسلحة الأمريكية، وخدمة الأهداف الأمريكية الداعمة لسياسات الإسرائيليين التوسعية والاستيطانية وأن الهدف من الحلف هو محاربة إيران دون تطبيق أي إجراء ضد إسرائيل والاكتفاء برفع شعارات محاربة الإرهاب وعمومًا فقد شنت كل من إيران وتركيا هجومًا سياسيًا ودعائيًا ضاريًا على الاقتراح وعلى الدول العربية المؤيدة له

أما المنظور الأمريكي فيرى أن هذا الحلف الاستراتيجي الشرق أوسطي سوف يكون دعامة ضد العدوان والإرهاب والتطرف الإيراني

. لكن إشكاليات الحلف كما يرى الكثير من المحللين فهي عديدة منها مثلاً علاقات مصر والأردن (وهما دولتان مشاركتان فيه وعلى علاقة سلام مع إسرائيل، لكنهما لا يحتمل أن تضحي بالقضية الفلسطينية من أجل علاقة استراتيجية بإسرائيل من خلال الحلف الشرق أوسطي وقد تنزلق إلى صدام حتمي معها برغم اتفاقيات السلام، لكن القادة والخبراء الإسرائيليين أنفسهم يرون أن الهدف الحقيقي والمباشر للحلف المقترح ليس هو مجرد ردع إيران، بل هو حماية وطمأنة القادة العرب الخليجيين لمخاوفهم العميقة من النفوذ والتوسع الإيراني لاسيما بعد انسحاب ترامب من الاتفاق النووي ثم اتجاهه التدريجي للانسحاب مثل إدارة أوباما من الشرق الأوسط في ظل سياسة أمريكا أولا.

سابعًا

1ـ السياسات العربية والخليجية والمصرية

لم تكتف بتقييم تلك التطورات السلبية التي قد تؤثر على الأمن الجماعي للدول العربية، وأخذت السياسات العربية الخليجية والمصرية في السنوات الأخيرة تنحى اتجاهًا إيجابيًا صاعدًا في اتجاه التنسيق العسكري والسياسي (المصري، السعودي، الإمارات، البحرين في الأساس) الذي اتخذ شكل تنظيم المناورات العسكرية العربية المشتركة (البحرية . البرية . والجوية) بين تلك الدول العربية الأربعة وبصفة خاصة من مناورات في

منطقة الخليج والبحر الأحمر (مصر . السعودية تبوك 4) مع الأسطول البحري المصري الجنوبي ومع قوات البحرين، وقوات الإمارات، ومناورات العقبة 4 مع الأردن وهكذا

بل إن تلك الدول العربية انتقلت إلى مرحلة أكثر تقدمًا وطموحًا في مناورات عربية جرت في مصر لأول مرة تحت مسمى ذي دلالة هامة هو درع العرب . شاركت فيه (5) دول عربية (مصر . السعودية . البحرين . الإمارات . الأردن) ومراقبة المغرب ولبنان في كبرى قواعد الشرق الأوسط، وهي قاعدة محمد نجيب العسكرية في مدينة العلمين الجديدة في الصحراء الغربية لمصر 3 . 16 أكتوبر 2018.

2ـ المنظور الجيوستراتيجي الأوسع للمناورات العسكرية (درع العرب 1)

أفق استراتيجي يتمثل في تطبيق عملي لعقيدة الدفاع المتبادل أو المشترك في ضوء مفاهيم ونصوص ميثاق الجامعة العربية واتفاق الدفاع المشترك وميثاق الأمم المتحدة

أفق سياسي يستند إلى توافق عربي واسع في مواجهة تهديدات خارجية أو إرهاب إقليمي، وتخريب وتطرف داخلي، وحروب أهلية

ثم أفق عسكري تمثل في المناورات الأخيرة لدرع العرب باستخدام وتجربة أحدث نظم الدفاع والتكنولوجيا الحديثة بواسطة مجموعة صغيرة من الدول العربية تمثل 30% تقريبًا من الدول العربية عددًا وسكانًا ثم تجارب هامة للتشغيل المتبادل للعديد من نظم الدفاع العسكرية المختلفة شرقية وغربية المصنع.

أما المنظور أو الأهداف التكتيكية من التدريب على مناورات القتال فهي:

أ- مدخلات نظرية أو مفاهيمية تشمل توسيع وتعميق خبرات القادة في التخطيط العسكري والميداني.

ب-توحيد المفاهيم والعقائد المطبقة في عمليات ومعارك الأسلحة المشتركة (بحرية، وبرية، وجوية) ودفاع جوي وخاصة مجتمعة أو منفردة.

ج- مدخلات ميدانية قتالية ، تحسين المهارات وأساليب القتال والتحرك والانتشار وتكتيكات الإخفاء والتمويه والهجوم على الأهداف المعادية والتدريب على التصويب الدقيق والضرب بالذخائر الحية، بالنسبة لقوات المظلات التعامل مع المواقف الطارئة عبر الإسقاط خلف مواقع العدو من ارتفاعات شاهقة، تنفيذ مهام النقل والتحليق في تشكيلات كبيرة.

أما القوات البرية والخاصة، التدريب على أنماط الإغارة بطريقة زيادة المحاكاة على حرب المدن، ومواقع الإرهابيين والاشتباكات المباشرة، وحرب الأسلحة المشتركة.

وفيما يتصل بالقوات البحرية تنفيذ عمليات هجومية وتعرضية وعمليات صعود وتفتيش واحتجاز للسفن المشتبه فيها.

أما القوات الجوية التدريب على الطائرات متعددة المهام والطلعات الهجومية والدفاعية بالتعاون من قوات الدفاع الجوي.

أما قوات الدفاع الجوي فيتعين فيها تطبيق تجارب على التشغيل المتبادل المشترك لمختلف الأنظمة الشرقية والعربية مختلفة المصادر والتصنيع ، وعمومًا فقد جرت المناورات العربية المشتركة درع العرب بنجاح كبير في إطار تكتيكي وعملياتي ويحكمها منظور جيواستراتيجى واحد يجمع بين عدة دول عربية رئيسية مشاركة تسعى للارتقاء بمستوى التعاون الاستراتيجي بين الدول العربية الشقيقة في تعزيز قدراتها وتوثيق علاقاتها بين رفاق السلاح من القادة والمؤسسات الدفاعية والتدريب والتشغيل المختلفة بين نظم التسلح.

ثامناً التقديرات

1- المناورات العربية المشتركة (درع العرب) هي أول إرهاصات عربية قوية بأن قوة دفاع عربية مشتركة ربما ترى النور، وفي إطار عربي خالص، وإن لم يكن ذلك يعني تجاهل لاستمرار إشكاليات وتساؤلات . بلا إجابة حتى الآن

2- هذه المناورات العربية وإن كانت تخدم في الأساس المصالح الاستراتيجية والأمنية العربية فهي بلا شك تخدم . لو بشكل غير مباشر المصالح الاستراتيجية الأمريكية في الشرق الأوسط بالتصدي لخطر التوسع والتدخل والنفوذ الإيراني في منطقة الخليج من الشرق الأوسط، ثم مكافحة التطرف والإرهاب وحروب إيران بالوكالة، مثلما تخفف أعباء الإدارة الأمريكية في تحمل مسئوليات الدفاع فيما يسمي بسياسة نقل المسئوليات

ويلاحظ بصفة أساسية أن مناورة درع العرب (1) لم يكن لها ولم تشر إلى صلة تنظيمية أو مؤسسية بالناتو بل أطلق عليها مجازًا (الناتو العربي) وما كان قد أطلق عليه وبشكل آخر مصطلح الحلف الاستراتيجي الشرق أوسطي بحسب الإدارة الأمريكية أو (اتفاق الناتو في المادة (5)) وهي مثيلة للمادة (2) والمادة (6) من اتفاق الدفاع المشترك السابقة عليها وكلاهما مستمدة من روح ونصوص ميثاق الأمم المتحدة في المادة (51) في الفصل السابع عن حق الدفاع عن النفس فرديًا أو جماعيًا"

3- كما أن مبادرة درع العرب 1 هي مبادرة عربية خالصة، لكن لا تعني مطلقًا المصادرة على علاقات ثنائية بين بعض الدول العربية . أي بين مصر والولايات المتحدة ومناورات "حماة الصداقة" مع روسيا لكن الخصم الحقيقي في مدركات الخطر العربية يظل هي إيران لسياستها التدخلية التوسعية

4- وانطلاقًا من هذا المنظور المتوازن فإن المناورات العسكرية العربية المشتركة "درع العرب (1) " تمثل نقلة نوعية وخطوة جادة في طريق إنشاء قوة عربية مشتركة للدفاع والردع ولسلامة وحدة الأراضي العربية.

تاسعًا: وبرغم هذا التقييم الإيجابي في مجموعه لدلالات المناورات المشتركة درع العرب(1)

فإنه يتعين بالطبع حل إشكاليات الفوارق في النظم العسكرية الدفاعية ومدركات التهديد والنظم التسليحية الشرقية والغربية بين بعض دول الخليج، لكن الأهم من تلك الفوارق العسكرية وقد تكون هي الأيسر في المعالجة، ثمة تفاوتات في الرؤى والمواقف السياسية من بعض الدول الخليجية والعربية.

لكن الإشكالية الأكثر استعصاء هي الأزمة المستمرة بين دول الخليج الثلاثة السعودية والإمارات والبحرين ثم مصر مع قطر من ناحية ثانية، وهو ما قد يؤخر إعلان مبادرة إنشاء قوة عربية مشتركة أو حلف عربي خالص برغم جرأة وإقدام القادة العرب في السعودية ومصر والإمارات والبحرين والأردن للمضي قدمًا في هذا الطريق والبدء بمناورات درع العرب1 في مصر.

أما التساؤلات التي سوف تظل تطرح حول مستقبل تلك المناورات العربية المشتركة، هل سوف تتحول حقًا إلى قوة عربية مشتركة دائمة أو إلى هيكل أمني دفاعي إقليمي وأن تتجاوز القضايا الخلافية بين الدول العربية وتركز على التهديدات والأخطار الوجودية على أمن واستقرار وسيادة ووحدة أراضي الدول العربية ودرء أخطار العدوان والتدخل والهدم من الداخل، وربما تظل التساؤلات بلا إجابة فترة من الوقت.

عاشراً

مجمل القول إنه ربما يكون في طرح مقاربة أقل طموحًا وأقرب إلى الواقعية السياسية وملاءمة للعلاقات الدولية والإقليمية الراهنة خاصة موازين القوى السائدة الآن بين الحلفاء العرب وخصومهم (تركيا، إيران، إسرائيل) والواقع المضطرب والفوضوي في الشرق الأوسط، لعل في ذلك ما يكون مخرجًا لاستجابة واضحة لما قد يفي بالحاجات الراهنة للدول العربية وإن لم يكن كل تطلعاتهم وآمالهم تحسبًا للتفاوت الراهن وبعض الخلافات التي قد تطول أو قد تزول، والطريق الأقصر هو المزيد من التنسيق والتشاور والتعاون والمزيد من مناورات درع العرب 1،2،3 وليست مناورات درع العرب1 إلا أول البشائر وهي فرصة يجب ألا تفلت من أيدينا لكي نستفيد من تجارب ناجحة حتى في (الناتو) والاتحاد الأوروبي والاتحاد الإفريقي ومجلس التعاون وغيرها.

❖ ❖ ❖

وقد جاء الاجتماع المرتقب الذي دعت إليه الولايات المتحدة في وارسو تحت عنوان "السلام والأمن في الشرق الأوسط" ليوضح إعادة توجه بوصلة السياسة الأمريكية ليكون محورها وبؤرة التركيز فيها هي التصدي للخطر الإيراني في الشرق الأوسط والخليج العربي والدول العربية والأوروبية. وقد شهد المؤتمر زخما في الحضور، وخاصة بالنسبة للوفد الأمريكي الذي كان على مستوى نائب الرئيس، والوفد الإسرائيلي الذي ترأسه رئيس الوزراء نتنياهو. وقد لفت الوزير بومبيو النظر إلى اجتماع الوزراء العرب جنبا إلى جنب في قاعة المؤتمر مع رئيس الوفد الإسرائيلي لمواجهة الخطر المشترك الذي يهدد الجميع. ولوحظ أن القضية الفلسطينية لم يكن لها في المؤتمر مكان إلا عرضا. حيث اقتصرت نتائجه على موضوعات الانتشار النووي والصاروخي في إيران وخطورتها، وتصعيد الصراعات في المنطقة ومواجهة الإرهاب وإحالة تلك الموضوعات إلى مجموعات عمل وإنشاء منتدى دولي ومجموعة دراسة استراتيجية للأوضاع في الشرق الأوسط، وبذلك يضع مؤتمر وارسو جدول أعمال حقيقي لطبيعة الرؤية الاستراتيجية الأمريكية في المرحلة المقبلة، ودوافعها ومراميها، أما ما كان يتحدث عنه "بومبيو" في منتصف عام 2018 وما كان يخطط له في مطلع عام 2019 من عقد مؤتمر تحت مسمى "تحالف استراتيجي للشرق الأوسط MESA "نظامًا استشعر صانع السياسة الخارجية الأمريكية أن الموقف ليس مواتيًا أو لم ينضج بعد لاتخاذ خطوات عملية لوضع هذه المبادرة فكان أن أرجأها كما يبدو دون أجل مسمى.

ومع ذلك فإن الموقف العربي قد تجاوز هذه المبادرة الأمريكية بإنشاء تحالف استراتيجي شرق أوسطي عبر المناورات العربية العسكرية المشتركة المتتالية، في عامي 2018 و2019، واقترب كثيرًا من تحقيق الكثير لما كان منصوصًا عليه في اتفاقية الدفاع المشترك عام 1951، وينبغي أن تترجم الآمال المعقودة على ما تحقق في هذه المناورات من أهداف الحفاظ على السلام والأمن والاستقرار والدفاع المشروع الفردي والجماعي عن الدول العربية الشقيقة ضد الأخطار من كل مصدر.

من حل المجلس التشريعي إلى استقالة الحكومة
انعطافة جديدة في النظام السياسي الفلسطيني

ماجـد كيالـــي

باحث وكاتب فلسطيني - سورية

شهد النظام السياسي الفلسطيني، في الأشهر القليلة الماضية، تطورات لافتة، تمثلت في قيام القيادة الفلسطينية، وهي قيادة المنظمة والسلطة و"فتح"، بحلّ المجلس التشريعي (المنتخب عام 2006)، وبتقديم حكومة رامي الحمد الله استقالتها إلى الرئيس محمود عباس (2018/1/28)، مع تسريبات تفيد بإجراء مشاورات لتشكيل حكومة جديدة من الفصائل المنضوية في منظمة التحرير، برئاسة شخصية قيادية من "فتح"، التي تعتبر بمثابة حزب السلطة، وذلك بدلاً من تشكيل حكومة تضم الكفاءات من المستقلين، الأمر الذي يوحي بوجود قرار باستبعاد حركة "حماس"، وبنفض اليد من حوارات ومحاولات المصالحة.

على ذلك فإن هذه التطورات تفيد بأن النظام السياسي الفلسطيني، الناشئ عن اتفاق أوسلو (1993)، أي بعد تحول الحركة الوطنية الفلسطينية من حركة تحرر إلى سلطة (تحت الاحتلال)، في جزء من أرض لجزء من شعب مع جزء من الحقوق، بات يقف في مواجهة انعطافة نوعية ثالثة في تاريخه.

وللتذكير فإن الانعطافة الأولى حصلت إبان الانتفاضة الثانية (2000-2004)، وذلك عبر فصل منصب رئيس الحكومة عن منصب الرئاسة، بعد أن كان الزعيم الفلسطيني الراحل ياسر عرفات يجمعهما في شخصه (1994-2003)، إضافة إلى كونه رئيسا لمنظمة التحرير، وقائدًا لحركة "فتح"، وذلك نتيجة للضغوط الخارجية (بخاصّة الأمريكية)، التي فرضت ذلك، لإضعاف نفوذه، وخلق بدائل له. هكذا تم، في حينه،

تعيين الرئيس الفلسطيني الحالي محمود عباس رئيسا للحكومة (2003)، وقتها، إلا أنه سرعان ما قدم استقالة مدوية (بعد خمسة أشهر)، بسبب خلافه مع أبو عمار، وهي الاستقالة التي وثقها في خطاب موجه إلى المجلس التشريعي، شكا فيها ضعف صلاحياته، والافتقاد لقيادة جماعية، ومحاولة التشكيك بسيرته والتحريض عليه (راجع تفاصيل نص الاستقالة وخطاب أبو مازن في مجلة الدراسات الفلسطينية، العدد 56 ،2003).

النتيجة بعد ذلك أن منصب رئيس الحكومة ذهب إلى كل من أحمد قريع (2003، 2006)، ثم إلى إسماعيل هنية (2006، 2007)، بعد فوز حركته "حماس" في الانتخابات، وبعده إلى سلام فياض (2007، 2013)، على خلفية الانقسام الفلسطيني في السلطة بين الضفة وغزة، وأخيرًا إلى رامي الحمد الله (منذ 2013)، والاثنين الأخيرين من الشخصيات المستقلة.

أما فيما يخصّ الانعطافة الثانية، فهي حصلت نتيجة انقسام النظام السياسي الفلسطيني، وفصل سلطة الضفة عن سلطة غزة (2007)، بعد الانقلاب السياسي الكبير المتمثّل بفوز حركة "حماس" بأغلبية مقاعد المجلس التشريعي في الانتخابات (2006)، وهو الأمر الذي خلق مشكلة كبيرة، إذ أضحى الكيان الفلسطيني برأسين، فثمة رئيس السلطة محمود عباس من جهة، ورئيس الحكومة إسماعيل هنية من جهة أخرى، إضافة إلى وجود مرجعيتين سياسيتين مختلفتين، أي "فتح" و"حماس". المهم أنه في ذلك الوقت وجدت "فتح" نفسها في مواجهة حركة منافسة لأول مرة في تاريخها، في حين وجدت "حماس" نفسها فجأة في قيادة سلطة، هي في الأصل مختلفة معها، إضافة إلى أنها معادية لاتفاق أوسلو جملة وتفصيلا، فضلا عن أنها غير منضوية في أطر منظمة التحرير، بحيث ذهبت الأمور، بنتيجة ذلك الاختلاف، إلى اقتتال دام (2007) في غزة، ثم إلى انقسام كيان السلطة الفلسطينية .

هكذا، فإن النظام السياسي الفلسطيني، اليوم، بناء على كل ما تقدم، هو في خضم انعطافة ثالثة في تاريخه، سيكون لها تداعياتها الكبيرة، والخطيرة، على نظام ضعيف

ومنقسم، ولا يملك سوى سلطة على شعبه، أصلاً، في واقع تمتلك فيه إسرائيل السيادة على الأرض والموارد والمعابر، وتهيمن على الفلسطينيين من كل النواحي السياسية والإدارية والاقتصادية، وهي تريد استمرار السلطة فقط لتجويف الحركة الوطنية الفلسطينية، ووضع الفلسطينيين في مواجهة بعضهم، والتحرر من العبء السياسي والأمني والاقتصادي للاحتلال.

حلّ المجلس التشريعي

وبخصوص حلّ المجلس التشريعي (2018/12/22) فقد أعلنه الرئيس الفلسطيني محمود عباس، وهو رئيس اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير ورئيس السلطة وقائد حركة "فتح"، بناء على قرار صادر عن المحكمة الدستورية، وباعتبار أن ذلك المجلس ليس فاعلاً وأنه استنفذ فترته الدستورية، ما أثار عديدًا من التساؤلات، التي تفيد، أو تشتبه، بأنه مجرد قرار سياسي، وأن من شأنه مفاقمة الأزمة الفلسطينية، وإنهاء جهود المصالحة، وقطع محاولات استعادة الوحدة، علما أن تلك الأزمة، أكبر وأعمق وأخطر من مجرد إنجاز مصالحة وتشكيل حكومة، باعتبارها من نوع الأزمة الشاملة التي تطال مجمل الإطارات والكيانات والخطابات السياسية وأشكال العمل.

وفي حينه بدا أن ثمة ملاحظات كثيرة على القرار يمكن تبين أهمها في الجوانب الآتية:

أولا: لم تطرح، أو لم تشرح، المحكمة الدستورية الحيثيات القانونية، أو الدستورية، التي استندت إليها في قرارها المذكور، القاضي بحل المجلس التشريعي، ما يعني أن تلك المحكمة خضعت للقرار السياسي، الصادر من القيادة الفلسطينية، الأمر الذي يفيد بأنه لا يوجد فصل بين السلطات، وهذا أحد مكامن الخلل في النظام الفلسطيني السائد، سيما بتحويل المحكمة الدستورية إلى مجرد غطاء لقرارات القيادة السياسية.

ثانيا: ما يؤكد أن ذلك القرار مجرد تعبير عن إرادة سياسية، أن المحكمة المذكورة لم تتحرك قبلاً، لوضع حد لكثير من التجاوزات، وضمنها انتهاء الآجال الدستورية لكل الإطارات القيادية، وضمنها منصب الرئاسة، ومثلاً فكيف يسري الحكم الصادر على المجلس التشريعي، ولا يسري، ذات الأمر، على منصب الرئاسة (المستمر منذ 2005)، سواء لجهة الاستمرار، إلى حين تنظيم الانتخابات التالية (كما تنص لوائح المنظمة وأعرافها)، أو لجهة اعتبارها منتهية الأجل؟ ثم لماذا لم ينص القرار على إجراء انتخابات رئاسية أيضًا بعد ستة أشهر؟

ثالثًا: لماذا لم تتخذ المحكمة أي قرار بشأن عدم تنفيذ السلطة لقرارات المجلس الوطني والمجلس المركزي، الخاصة بوقف التنسيق الأمني وسحب الاعتراف بإسرائيل وإنهاء العمل باتفاق باريس الاقتصادي، علما أن تلك القرارات يفترض أنها مرجعية للسلطة، وعلما أنه ثمة قرارات للمجلس المركزي بهذا الشأن (منذ العام 2015) ولم تنفذ بعد؟

رابعًا: هذا يطرح سؤالا على المحكمة الدستورية، فلماذا الآن؟ أي لماذا لم تقم تلك المحكمة بحل المجلس المنتهية ولايته منذ 12 عاما مثلاً، وهل كان فقهها القانوني يعني أن المجلس كان شرعيا طوال الفترة السابقة مثلا؟ وكيف انتهت تلك "الفتوى"، وبناء على أية أحكام قانونية؟

خامسًا: يتضح من كل تلك الملاحظات أو التساؤلات بأن قرار حل المجلس التشريعي الفلسطيني، هو مجرد قرار سياسي، وأن الحديث عن قرار لمحكمة دستورية هو لمجرد التورية، إذ أنه ليس من صلاحيات المحكمة الدستورية ولا بأي شكل، والأنكى من كل ذلك أن الرئيس طرحه مباشرة، بدون تقديمه للنقاش في الهيئات القيادية المعنية، بل وقام بإعلان العمل به، الأمر الذي يثير التساؤل؛ هذا من جهة. ومن جهة أخرى، فمن الواضح أن هذا القرار يستهدف قطع الطريق على حركة "حماس" الاستحواذ على أية شرعية سياسية، قد تتيح لها تصدّر المشهد الفلسطيني، على حساب حركة "فتح"، مع علمنا أن هذا الأمر سيكون مطروحا في

حال غياب الرئيس محمود عباس (84 عاما)، إذ أن رئيس المجلس التشريعي هو الذي سيحل محله، بحسب الدستور الفلسطيني، وهو ما حصل إبان وفاة الزعيم الفلسطيني الراحل، حيث حل رئيس المجلس التشريعي (روحي فتوح)، وقتها، في مكانة رئيس السلطة، إلى حين تنظيم انتخابات رئاسية فاز فيها الرئيس محمود عباس (2005).

وقد يجدر التذكير هنا أن الجهة التي قررت حل المجلس التشريعي هي ذاتها التي قامت بتهميشه، وعدم السماح بتفعيله، لاعتبارات المنافسات الفصائلية، الأمر الذي أفضى إلى انقسام السلطة، حيث حركة "فتح" هي سلطة في الضفة، وحركة "حماس" هي سلطة في غزة، مع تحميل الحركة الأخيرة المسؤولية، أيضًا، وضمن ذلك المسؤولية عن الاقتتال والانقسام، المستمر منذ 12 عاما، رغم الأثمان الباهظة التي دفعها الشعب الفلسطيني، ورغم تبين عدم جدواه وضرره على الشعب وعلى قضيته الوطنية وحتى على حركة "حماس" ذاتها.

الأهم من ذلك أن القيادة الفلسطينية، هي المسؤولة، أيضا، عن تهميش منظمة التحرير الفلسطينية، وعن إخراج اللاجئين من المعادلات الصراعية ضد إسرائيل، باختزالها الشعب الفلسطيني بفلسطينيي الضفة وغزة، وحصر ولايتها بهم. وكما نعلم فإن المجلس الوطني الفلسطيني لم يعقد سوى دورتي اجتماعات له، بعد إقامة السلطة (1993) بموجب اتفاق أوسلو، حيث عقدت الدورة 21 في العام 1996، أي بعد الاتفاق المذكور، وعقدت الدورة 23 في النصف الأول من هذا العام 2018 (بخصوص الدورة 22 للمجلس الوطني فقد عقدت في 2009 فقط لترميم عضوية اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير).

والفكرة هنا باختصار أن قرار حل المجلس التشريعي سيفاقم من أزمة النظام السياسي والحركة الوطنية الفلسطينيين، مع علمنا أن هذا المجلس لا يعمل وليس له أية صلاحيات، منذ العام 2007، وأنه كان الأجدى التوجه لتنظيم انتخابات رئاسية وتشريعية بدل القيام بهذه الخطوة التي لا معنى حقيقي لها، سوى مفاقمة المشكلات

الفلسطينية البينية، واستنزاف الفلسطينيين في نقاشات جانبية وثانوية، بدل الانشغال في معالجة المشكلات الجوهرية، أو البنيوية، التي تعاني منها حركة التحرر الوطني الفلسطينية، خصوصا بنتيجة تحولها إلى سلطة، تحت سلطة الاحتلال.

على ذلك ثمة هنا أسئلة أخرى، مثلا، فهل سيخدم حلّ المجلس التشريعي إعادة بناء منظمة التحرير أم سيفاقم تهميشها؟ وهل سيؤدي إلى إنهاء الانقسام أم إلى ترسيخه؟ هل سيسهم ذلك في إنهاء الافتقاد للشرعية أو سيفاقم من واقع الافتقاد للشرعية وللإجماع الوطني سواء على صعيد الأطر أو الخيارات السياسية؟ وأخيرا هل سيفضي ذلك إلى إجراء انتخابات رئاسية وتشريعية حقا؟ وهل ستجري الانتخابات في الضفة وغزة والقدس أم في الضفة فقط؟ والأهم من كل ذلك هل تعرف القيادة الفلسطينية إلى أين يقود ذلك أم أنها قفزة في المجهول؟ وماذا بعد؟

استقالة الحكومة الفلسطينية

أما في ما يخصّ استقالة الحكومة الفلسطينية (رامي الحمد الله) فهي حصلت بعد أسابيع قليلة (2018/1/28) على حل المجلس التشريعي، لتثير المزيد من التساؤلات والمخاوف بشأن مستقبل النظام السياسي الفلسطيني، سيما أن خطوة الاستقالة أتت بعد توجه صادر عن اللجنة المركزية لحركة "فتح"، يفيد بالدفع نحو تشكيل حكومة فصائلية (تضم بعض مستقلين)، علما أن كل الحكومات السابقة كانت مسيرة من "فتح"، منذ إنشاء السلطة الفلسطينية، قبل ربع قرن، ناهيك أن "فتح" اشتغلت في الواقع بوصفها حزبا للسلطة، بدل مواصلة دورها كحركة تحرر وطني .

عموما فإن خطوتي الاستقالة، والتبشير بحكومة فصائلية، أثارتا المخاوف من جوانب عديدة، أهمها :

أولاً: احتمال اعتبار تشكيل حكومة فصائلية بديلاً عن مطلب إعادة بناء منظمة التحرير الفلسطينية، وهو الأمر الذي يجب تركيز الجهود عليه، سيما أن تجربة العقود

الماضية، المتعلقة بتهميش المنظمة، وإضعاف مؤسساتها، وتعليق الاجتماعات الدورية للمجلس الوطني الفلسطيني، تؤكد على ذلك.

ثانيًا: في هذا التوجه، وبدلاً من قيام القيادة الفلسطينية بفكّ الارتباط الوظيفي والإداري بين المنظمة والسلطة، وحصر السلطة بإدارة وضع الفلسطينيين في الضفة وغزة، فإنه تم تكريس ذلك الارتباط المضرّ، الذي همّش المنظمة ولم يفد السلطة.

ثالثا: بدلاً من تقوية المجتمع المدني وتعزيز حضوره وتنمية مؤسساته، لأهمية ذلك في الصراع ضد السياسات الإسرائيلية، فإن هكذا تشكيل سيسهم في إضعاف هذا المجتمع، وسيزيد الفجوة بين الفصائل والشعب، علما أن أغلبية الفلسطينيين خارج الفصائل.

رابعًا: عبر هذا القرار فإن القيادة الفلسطينية تكرّس نظام المحاصصة الفصائلية "الكوتا"، الذي أكل عليه الدهر وشرب، بدلا من النظام القائم على الانتخابات، سيما مع فصائل لم يعد لمعظمها أي مكانة في مجتمعات الفلسطينيين في الداخل والخارج، ولا أي دور في مواجهة إسرائيل، ولا أية هوية فكرية أو سياسية.

ويستنتج من ذلك بأن القيادة الفلسطينية (وأقصد قيادة "فتح" والمنظمة والسلطة) مطالبة بمراجعة هذه السياسات، التي لا تثير إلا مزيدًا من الانقسامات والخلافات والتوترات في الساحة الفلسطينية، بدلاً من توحيدها، بخلق إجماعات وطنية فيها، والتي تبدد، أيضا، الطاقات في صراعات جانبية (على مواضيع المصالحة وحل المجلس التشريعي والخلاف حول تشكيل حكومة)، عوض حشد الطاقات في مواجهة إسرائيل. وعلى أية حال فقد شهدنا أن معظم الفصائل الفلسطينية عارضت هذا التوجه، وأعلنت رفضها المشاركة في حكومة تستأثر بها حركة "فتح"، مع تأكيدها أن الأولوية لتعزيز جهود إنهاء الانقسام ووضع حد للاستئثار بتقرير الشأن الفلسطيني وإعادة بناء منظمة التحرير الفلسطينية.

التداعيات

المشكلة أن هذه التحولات الفلسطينية أتت في ظروف سياسية صعبة، تعاني منها القيادة الفلسطينية، سيما في الجوانب الآتية:

أولاً: انسداد أفق التسوية، وفقًا لاتفاق أوسلو، مع سياسات إسرائيل الرامية لترسيخ الاحتلال والاستيطان وتهويد القدس، واعتبار الكيان الفلسطيني مجرد كيان لحكم ذاتي، على السكان، وليس على الأرض. ومن الواضح هنا أن الهدف الإسرائيلي، من إقامة كيان فلسطيني، أو سلطة، إنما يتمثل بتعزيز المنازعات والتنافسات والخلافات الداخلية بين الفلسطينيين، وتجويف حركتهم الوطنية، إن بتحويلها من حركة تحرر وطني إلى سلطة على شعبها فقط، أو بوضع كياناتها في مواجهة بعضها، بحيث تتصارع فيما بينها على المكانة والموارد والسلطة بدلاً من التصارع مع إسرائيل، التي باتت ترسّخ هيمنتها على الفلسطينيين، أكثر من ذي قبل، أي أكثر مما كان قبل قيام السلطة (1993)، وبديهي في هذا الإطار أن إسرائيل مرتاحة للوضع القائم، مع وجود كيانين فلسطينيين، أحدهما تحت الحصار المشدد، حيث ثمة مليوني فلسطيني في غزة، والثاني تحت الهيمنة الإسرائيلية من مختلف النواحي في الضفة الغربية، تفرق بين مدنه وقراه المستعمرات الإسرائيلية.

ثانيًا: منذ مجيء دونالد ترامب إلى رئاسة الإدارة الأمريكية وجدت القيادة الفلسطينية نفسها في وضع جديد وغريب وصعب، بخاصة مع قيامه بسلسلة من الخطوات والمواقف التي تسهم في ضعضعة مكانة القيادة الفلسطينية، ونزع شرعيتها، وقضم عناصر قوتها، ويأتي في هذا الإطار، مثلاً، الاعتراف الأمريكي بالقدس كعاصمة موحدة لإسرائيل، وتحت سيادتها، والسعي لتصفية قضية اللاجئين وحق العودة، من خلال وقف التمويل الأمريكي لمنظمة غوث وتشغيل اللاجئين ("أونروا")، وقدره 368 مليون دولار سنويا، ما يشكل نصف الموازنة تقريبا. كما يأتي، في ذات السياق، إغلاق مكتب منظمة التحرير، ووقف المساعدات الأمريكية للسلطة الفلسطينية، وأخيرًا وقف تمويل برنامج "الوكالة الأمريكية للتنمية الدولية، وهو ما حدث مؤخرًا (2019/2/1)، علمًا أن ذلك تم بناء على طلب من السلطة، سعيًا

منها لتجنّب تداعيات قانون مكافحة الإرهاب (الأمريكي) وتطبيقه على الذين يتلقون مساعدات أمريكية في الضفة الغربية وغزة"، وهذا يشمل وقف مساعدات أمريكية قدرها 60 مليون دولار مخصصة لقوات الأمن الفلسطينية للحفاظ على الهدوء في الضفة بالتنسيق مع أجهزة الأمن الإسرائيلية.

الفكرة هنا أن الولايات المتحدة الأمريكية، وهي طرف أصيل في اتفاق أوسلو، الذي أنشأ السلطة الفلسطينية (1993)، وبعد انحيازها الصارخ، في ظل الإدارات الأمريكية السابقة، إلى جانب إسرائيل، وتغطيتها للمواقف المتعنّتة التي اتّخذتها إن للتملّص من الاستحقاقات الواجبة عليها بحسب الاتفاق المذكور، أو خلقها الوقائع لتكريس الاحتلال كأمر واقع، أضحت اليوم، عبر المواقف المذكورة، غير مبالية بإعلان انقلابها على ذلك الاتفاق، والتحرر نهائيا من مزاعم كونها راعيًا نزيهًا وطرفًا محايدًا وحليفًا موثوقًا للفلسطينيين في عملية التسوية الفلسطينية . الإسرائيلية، وهي المزاعم التي داعبت أوهام القيادة الفلسطينية، ودفعتها إلى توقيع اتفاق أوسلو، وظلت عليها لفترة طويلة من الزمن بعدها.

ثالثًا: لا شك أن تلك التحولات في النظام السياسي الفلسطيني تعكس خشية القيادة الفلسطينية من مساعي الالتفاف عليها، وتهميشها، على نحو ما جرى في مراحل سابقة، بدعوى أن تلك القيادة غير مهيئة للسلام. ويبدو من مراجعة المواقف الأمريكية، وضمن ذلك أحاديث الرئيس ترامب وأركان إدارته عن السعي لإيجاد تسوية إقليمية، أو طرح نوع من خطة تسمى "صفقة القرن"، أن التوجه الأمريكي العام يقضي بتجاوز القيادة الفلسطينية، في حال أصرّت على مواقفها، أو في حال لم ترضخ للإملاءات الأمريكية والإسرائيلية. وتستند إدارة ترامب في مسعاها هذا إلى البيئة السياسية الحالية المواتية في الشرق الأوسط، ولاسيما حال الاضطراب السياسي والأمني والاجتماعي والاقتصادي في العالم العربي، ولاسيما في المشرق العربي (بخاصة سوريا والعراق)، وضمن ذلك تغوّل الوجود الإيراني، وتزايد النفوذ

التركي، باعتبارها أن هذه الأوضاع تشكل الفرصة السانحة للتحرر من القضية الفلسطينية، وإيجاد إطارات مناسبة لنوع من سلام إقليمي، بهذا المستوى أو ذاك .

وقد يجدر التذكير هنا أن الولايات المتحدة، حتى قبل مجيء إدارة ترامب، أي منذ عهد بوش الابن (مطلع الألفية الجديدة)، مثلا، كانت تروّج لفكرة مفادها أن سبب الاضطراب في العالم العربي لا ينبع من وجود إسرائيل، وإنما ينبع من الفقر والتخلف والأمية وفقدان الحرية وتعثر التنمية، وهو ما أتت عليه بطريقة جيدة تقارير "التنمية الإنسانية العربية"، التي صدرت في تلك الفترة.

رابعًا: ما يفترض الانتباه إليه هنا، أيضًا، أن خشية القيادة الفلسطينية تنبع من تلازم المسارات الأمريكية والإقليمية مع التطورات السائدة في إسرائيل ذاتها، سيما الانزياح نحو اليمين المتطرف، الديني والقومي، وهو ما تمثل باستصدار قانون القومية اليهودية (يوليو 2018)، وتعزيز الاشتغال على تهويد القدس، وتكثيف الاستيطان في الضفة، وتكريس الهيمنة على حياة الفلسطينيين، لاسيما من الجهة الأمنية والإدارية والاقتصادية، ويشمل ذلك التعود على اقتحام مدينة رام الله، التي يفترض أنها مركز القيادة الفلسطينية. وبديهي أن تلك التطورات تنعكس على الخريطة السياسية الإسرائيلية، وهو ما تمثل بصعود نجم الجنرال السابق بيني غانتس، رئيس أركان الجيش الإسرائيلي سابقا، الذي يبدو أنه يشكل البديل لرئيس الحكومة الحالي بنيامين نتنياهو (2009. 2019)، في الانتخابات القادمة، بعد شهرين، علمًا أن غانتس يتحدث عن تسوية إقليمية، وعن حدود شرقية لإسرائيل تتمثل بغور الأردن، وعن القدس كعاصمة موحدة لإسرائيل، في تجاوز لحقوق الفلسطينيين، ولوجود السلطة الفلسطينية.

من كل ذلك يمكن الاستنتاج بأن كل المعطيات، الدولية والإقليمية والعربية والإسرائيلية تفيد بإمكان تجاوز القيادة الفلسطينية (المنظمة والسلطة)، وفرض نوع من سلام إقليمي مع إسرائيل، أي تطبيع وجود إسرائيل في المنطقة، برضا تلك القيادة أو

رغما عنها، ولعل هذه الهواجس كلها تكشف عمق المخاوف الفلسطينية، سيما مع تسريبات تتحدث عن شمول قطاع غزة في مشاريع تنضوي في إطار صفقة القرن، تقوم على تهدئة، وتنمية اقتصادية، مع الإبقاء على الوضع الراهن أي على سلطة "حماس."

باختصار، الوضع الفلسطيني اليوم يمر بظروف حرجة، وخطيرة، ولا أحد يمكنه التكهن بالتداعيات التي يمكن أن تنجم عنه، فإذا كان من المستحيل توقع إقامة دولة فلسطينية مستقلة في الضفة والقطاع، وفقا للظروف والمعطيات الراهنة، فهل ستبقى السلطة الفلسطينية كسلطة حكم ذاتي؟ أم أن هذه السلطة ستنتهي بشكل أو بآخر؟ أو ما الذي سيبقى للفلسطينيين؟

التطورات المتناقضة
في العلاقات الأمريكية التركية ثنائيا وإقليميا

د. محمـــد نورالديـــــن

مدير مركز الدراسات الإستراتيجية - بيروت

أثار فرض إدارة دونالد ترامب عقوبات اقتصادية على تركيا في مطلع شهر آب/أغسطس 2018، ردا على اعتقال تركيا القس الأميركي أندريه برانسون ووضعه قيد الإقامة الجبرية لاتهامه بالضلوع في محاولة الانقلاب العسكري عام 2016 وإقامة صلات بحزب العمال الكردستاني، وتراجع سعر العملة التركية إزاء الدولار وما واكب ذلك من سجالات متبادلة، اهتمام المراقبين وتساؤلاتهم عن مستقبل العلاقات بين أنقرة وواشنطن وما إذا كانت دخلت مرحلة اللاعودة أم أنها مجرد زوبعة في فنجان.

ومن ثم تمت تسوية المشكلة فأطلقت سراح القس اندريه برانسون في منتصف تشرين الأول/أكتوبر 2018 ووافقت واشنطن بعد شهرين في منتصف كانون الأول/ديسمبر على تزويد أنقرة بصواريخ باتريوت وتسليم طائرات أف 35 المتفق عليها سابقا.

وفي 19 كانون الأول/ديسمبر 2018 أعلن الرئيس ترامب أنه سيسحب قوات بلاده البالغ عددها المبدئي حوالي ألفي جندي من سوريا. وكان القرار مفاجئا للجميع حيث اعترض عليه مسؤولون في الإدارة الأميركية والحزبان الديموقراطي والجمهوري وأدت إلى استقالة وزير الدفاع جوزف ماتيس وآخرين. كما فاجأ القرار كل الدول الصديقة والحليفة للولايات المتحدة. أما تركيا فقد رحبت بالقرار مبدئيا باعتبار أن هذه القوات تحمي وتدعم قوات حماية الشعب الكردية التي تعتبرها أنقرة "إرهابية". والانسحاب يسهّل نظريا أمام أنقرة التدخل في سوريا وضرب المسلحين الأكراد. وبعد ذلك أعلن الرئيس التركي رجب

طيب أردوغان توصله إلى "اتفاق تاريخي" مع ترامب لإقامة منطقة آمنة في سوريا. لكن ترامب ما لبث أن أعلن معارضته لأي تدخل عسكري تركي يمكن أن يؤدي إلى ضرب الأكراد بل حذّر تركيا من أنه إذا باشرت هجوما عسكريا على الأكراد فإن الولايات المتحدة "ستدمّر" الاقتصاد التركي.

على هذا المنوال من التطورات والمواقف المتناقضة على مدار الساعة كانت تمضي العلاقات التركية – الأميركية في الأشهر بل السنوات الأخيرة.

في الواقع إن أزمة القس أندريه برانسون كما الموقف من الأكراد ليسوا سوى محطتين في سياق سبقته محطات أكثر سلبية وحدّة ليس اتهام أنقرة واشنطن أنها ضالعة بمحاولة انقلاب 15 تموز/يوليو 2016 سوى أبرزها.

تختلط عوامل كثيرة في محاولة تحديد الاحتمالات المستقبلية لهذه العلاقات، من التاريخي إلى المصالح الراهنة وصولا إلى المنطلقات الأيديولوجية لهذه العلاقات.

أ- من المنظور التاريخي

1. نُسجت العلاقات التركية – الأميركية بعد الحرب العالمية الثانية على قاعدة المصالح المتبادلة. تركيا خدمت الغرب في صراعه مع الكتلة الشيوعية أمنيا واستخباراتيا وعسكريا وفكريا. تحولت تركيا إلى منصة أطلسية ضد الاتحاد السوفياتي، ولعبت دورا مركزيا في كل التكتلات السياسية والعسكرية في الشرق الأوسط المدافعة عن الغرب وأبرزها حلف بغداد، ودخلت في تعاون وثيق مع إسرائيل. وتجنّدت كل الأحزاب التي تناوبت على السلطة في تركيا، ولا سيما الإسلامية أو ذات الطابع الإسلامي منها، لخدمة الدعاية الفكرية المناوئة للشيوعية. وفي الوقت نفسه لعب النظام العلماني حصان طروادة غربيا داخل العالم الإسلامي.

أما الغرب، وهنا لا ينفع كثيرا الفصل بين الولايات المتحدة وأوروبا حيث كان مسار العلاقات التركية مع أميركا بعد الحرب العالمية الثانية يسير بالتوازي الدقيق مع مسار العلاقات مع أوروبا والاتحاد الأوروبي، فكان نصيرا لتركيا في مواجهة التهديدات السوفياتية أثناء وبعد الحرب العالمية الثانية، وحمى وحدة أراضيها تجاه الحركات الكردية الانفصالية، ولا سيما حزب العمال الكردستاني (إلى حد مشاركة واشنطن في اختطاف واعتقال زعيمه عبدالله أوجالان عام 1999). ووقف الغرب بوجه التحديات التي خلقتها الثورة الإسلامية في إيران على النظام العلماني في تركيا. كذلك كان نصيرا لتركيا، ولو أحيانا بحدود معينة، في مواجهة المشكلات ذات الطابع الحضاري الغربي المسيحي مثل المسألة الأرمنية والخلاف مع اليونان والمسألة القبرصية.

2. عرفت العلاقات التركية مع الولايات المتحدة تحديدا مسارا ثابتا منذ تأسيسها في اتفاقية 12 تموز/يوليو 1947 العسكرية وفق مشروع الرئيس الأميركي هاري ترومان لمساعدة تركيا واليونان وعلى امتداد سبعين عاما.

ورغم أنها شهدت أكثر من 12 توترا، بعضها كبير، فإنها لم تنكسر وسرعان ما كانت تعود إلى طبيعتها ولو بعد سنوات:

- عام 1962 انزعج المسؤولون الأتراك من عدم استشارتهم من قبل واشنطن التي سحبت صواريخ جوبيتر من إيطاليا وتركيا وفق اتفاقية حل أزمة الصواريخ الكوبية مع موسكو.
- في العام 1964 وجّه الرئيس الأميركي ليندون جونسون رسالة إلى رئيس الحكومة التركية عصمت إينونو يحذره من أي استخدام للأسلحة الأميركية في قبرص من دون إذن مسبق من واشنطن وإلا فإن الولايات المتحدة لن تتدخل في حال تعرضت تركيا لأي هجوم سوفياتي. وخلقت هذه الرسالة استياء تركيا عاليا.

- عام 1974 غزت تركيا قبرص ففرضت واشنطن حظرا على بيع السلاح لتركيا، ولم ترفعه إلا بعد أربع سنوات. في المقابل كانت تركيا تغلق جميع منشآتها العسكرية بما فيها قاعدة إينجيرليك على الأراضي التركية أمام استخدامات الولايات المتحدة خلا تلك التي لها صلة بأنشطة أطلسية. ولم تفتح هذه المنشآت للقوات الأميركية إلا بعد الانقلاب العسكري عام 1980 وكانت أحد أسباب حصوله.
- وفي العام 2003 رفض البرلمان بفضل المعارضة ونواب متمردين داخل حزب العدالة والتنمية مذكرة حكومة حزب العدالة والتنمية المشاركة في غزو العراق وتلا ذلك توتر بين البلدين وتحميل واشنطن لتركيا ولا سيما مؤسستها العسكرية مسؤولية رفض المذكرة في البرلمان. وصدرت عن نائب وزير الدفاع الأميركي بول وولفوويتز بعد ذلك بشهرين تصريحات انتقد فيها بحدة المؤسسة العسكرية التركية لأنها لم تمارس الضغط الكافي على البرلمان لقبول المذكرة.
- وفي الرابع من تموز/يوليو من العام نفسه كانت حادثة إدخال جنود أميركيين أكياسا من القماش في رؤوس مجموعة من العسكريين الأتراك في السليمانية، وعدّها الأتراك إهانة لهم.
- وبعد انفجار الأزمة في سوريا كان انحياز الولايات المتحدة، رغم تحذيرات تركيا، إلى جانب قوات الحماية الكردية في شمال سوريا.
- وبعد ذلك اتهم الرئيس التركي رجب طيب أردوغان إدارة باراك أوباما بأنها ضالعة مع دول أوروبية كذلك (وأخرى خليجية عربية) بمحاولة الانقلاب العسكري في 15 تموز/يوليو 2016 ضد سلطة أردوغان.
- ثم كانت أزمة تأشيرات الدخول في نهاية العام 2017.
- ومن بعدها أزمة القس أندريه برانسون في مطلع آب/أغسطس 2018.
- ومن ثم تهديد ترامب، في كانون الثاني/ يناير 2019، بتدمير الاقتصاد التركي إذا ما حاولت تركيا ضرب الأكراد في منطقة شمال شرق الفرات بعد انسحاب القوات الأميركية من هناك. لكن الطرفين استمرا في التنسيق للانسحاب ومحاولة

وضع ترتيبات لمنطقة آمنة في شمال سوريا تشرف عليها تركيا وتحظى بغطاء أميركي.

يتبين لنا من زاوية السياق التاريخي أن العلاقات بين الطرفين مرت بأزمات متعددة ومنها الخطير لكنها كانت تعرف دائما طريقا للمعالجة لتبقى في دائرة التعاون والتحالف (لا الاشتباك) الاستراتيجي.

ب- من زاوية المصالح المتبادلة الراهنة

في العام 2005 تحدث رئيس الحكومة التركية رجب طيب أردوغان عن شراكته في رئاسة مشروع الشرق الأوسط الكبير. وتحدث أوباما عام 2009 عن "الشراكة النموذج" مع تركيا. وفي الأزمة السورية بدءا من 2011 كانت التنسيق والتعاون كاملا بين تركيا والولايات المتحدة والغرب لاستقدام المسلحين وتدريبهم وتمريرهم عبر الأراضي التركية إلى الداخل السوري، والدعوة والعمل للإطاحة بالرئيس السوري بشار الأسد. كذلك كان هناك تقاطع كبير بين أنقرة وواشنطن في العلاقة مع إقليم كردستان العراق حتى تاريخ إجراء الاستفتاء على الاستقلال.

التوافق شبه الكامل بين الطرفين خرقه تطوران بارزان:

الأول الموقف من سوريا والمنطقة بعد العام 2012 والعلاقة مع الأكراد. حيث ارتكزت الولايات المتحدة في سياستها في سوريا والمنطقة على دعم قوات الحماية الكردية بمختلف الوسائل وهو ما سبب انزعاجا كبيرا في تركيا التي رأت في إنشاء شريط كردي على حدودها الجنوبية تهديدا لأمنها القومي ولاحقا لوحدة الأراضي التركي عبر خلق نزعات تقسيمية كردية في سوريا يمكن أن تنتقل إلى تركيا.

والثاني هو توسع الدور التركي في المنطقة بعد وصول أنظمة موالية لأنقرة في مصر وتونس والمغرب وازدياد الضغوط الجدية على النظام في سوريا وازدياد النفوذ التركي في ليبيا وتحرك تركيا في اليمن فضلا عن رعاية تركيا لحركة حماس الفلسطينية. ويأتي هذا النفوذ في إطار "العثمانية الجديدة" التي سعى إليها حزب العدالة والتنمية.

ومثل هذا التطلع خلق مخاوف جدية لدى الولايات المتحدة من تعاظم الدور التركي المندفع من خلفية تاريخية لم ينكرها قادة حزب العدالة والتنمية والتي يمكن أن تحوّل تركيا إلى قوة إقليمية كبيرة خارج السيطرة. من هنا كانت محاولات الولايات المتحدة إضعاف تركيا، في أكثر من مناسبة عبر أدوات داخلية في رأسها جماعة فتح الله غولين. وهذا طبيعي في تعامل الولايات المتحدة مع أي قوة قد تخرج عن السيطرة ولو كانت حليفة. أما التقارب التركي مع روسيا (ومن ذلك صفقة صواريخ أس 400 ومد خط أنابيب نفط وغاز عبر تركيا وبناء مفاعل نووي في مرسين) أو إيران فهذا عامل متأخر في انزعاج واشنطن من أنقرة، ظهر منذ آب 2016 ليس أكثر. وجاء، من الزاوية التركية، ردة فعل على محاولة الانقلاب ضد أردوغان.

أما فيما يتعلق بانزعاج الولايات المتحدة من توتر العلاقات التركية – الإسرائيلية فليس هذا العامل برأينا حاسما في التوتر التركي – الأميركي خصوصا أن تركيا حافظت على علاقات اقتصادية متنامية كما على تعاون أمني مع إسرائيل. كذلك تخلت تركيا عن مطلب رفع الحصار عن غزة ووقعت اتفاقية إعادة التطبيع مع إسرائيل في 28 حزيران 2016.ولم تبادر تركيا إلى أي خطوة جدية تزعج أو تؤذي إسرائيل في المنطقة.

ج- محددات مستقبل العلاقة بين تركيا والولايات المتحدة

تمر العلاقات بين تركيا والولايات المتحدة من وقت لآخر في توترات. لكن مستقبل العلاقات بينهما استمرارا أو انقطاعا تحدده عدة عوامل:

1- من الزاوية التركية:

- **تموضع تركيا الاقتصادي**

في الأرقام أن صادرات تركيا إلى الاتحاد الأوروبي عام 2017 بلغت 48 في المئة من مجمل صادرات تركيا الخارجية. أما واردات تركيا من الاتحاد الأوروبي فبلغت 40 في المئة من مجمل الواردات. وبلغت صادرات تركيا إلى الولايات المتحدة 5.2 في المئة من مجمل الصادرات التركية والواردات 5.5 في المئة من مجمل الواردات. وشكلت

الاستثمارات الغربية في تركيا نسبة 80 في المئة من مجمل الاستثمارات الخارجية في تركيا.

وبلغت قيمة التعامل بالدولار 42 في المئة من صادرات تركيا و56 في المئة من وارداتها. وباليورو 48 في المئة للصادرات و35 في المئة للواردات. بينما بلغت قيمة التعاملات بالروبل الروسي مثلا 0.1 في المئة من الصادرات التركية و صفر في المئة من الواردات. وبالليرة التركية 5.5 في المئة للصادرات و 7 في المئة للواردات.

ومن ذلك يتبين مدى الارتباط الكبير جدا للاقتصاد التركي بالاتحاد الأوروبي والغرب وبالدولار وبنسبة متقاربة منذ أكثر من ثلاثين عاما.

- **تموضع تركيا العسكري**

في حال نظرنا من الزاوية التركية للعلاقات العسكرية مع الولايات المتحدة نجد اعتمادا شبه كامل لتركيا في مصادر تسلحها على الولايات المتحدة.

ففي سلاح الجو تقريبا جميع القاذفات والمقاتلات (300 طائرة) من الولايات المتحدة وكل المروحيات (500 مروحية) من الولايات المتحدة. وفي سلاح البر هناك أكثر من 1600 دبابة من صنع أميركي و750 من بريطانيا. وأكثر من نصف المدرعات (3000 من 6000) من الولايات المتحدة وكل المصفحات التي تحمل مدافع (1000 مصفحة) من أميركا. فضلا عن سيادة المفاهيم الأميركية في التدريب والبناء والتثقيف العسكري.

- **تموضع تركيا السياسي**

وعلى الصعيد السياسي فإن جانبا كبيرا من مشكلات تركيا المزمنة هي مع دول مسيحية، مثل اليونان وقبرص وأرمينيا. وتشكل الولايات المتحدة درع حماية من تأثر تركيا السلبي من هذه المشكلات، وهو درع لو رفع عنها لكانت تركيا أمام تحديات صعبة. كذلك فإن تركيا تحتاج إلى الدعم الغربي الكامل لمنع الأكراد في الداخل التركي من الحصول على ضوء أخضر (لم تعطه أميركا أبدا) لتطوير معركتهم ضد الدولة التركية إلى مستوى الحكم الذاتي أو الدولة المستقلة. ولو حصل ذلك لتحولت مناطق

جنوب شرق تركيا إلى شمال عراق آخر أو شمال سوريا آخر. ومن المفيد الإشارة هنا إلى أن حاجة الولايات المتحدة لتركيا موحدة وقوية لمواجهة خصومها مثل إيران وروسيا وآخرين من بين أسباب فشل أكراد تركيا في التقدم بمشروعهم نحو حكم ذاتي أو الفدرالية رغم أنهم، بين أكراد المنطقة، الأكبر عددا والأعرق نضالا والأكثر تضحية.

- **تموضع تركيا الحضاري**

في نظرة إلى كل حركات التحديث التركية منذ نهاية القرن الثامن عشر وحتى اليوم، فقد كانت وجهتها ونموذجها حركات التحديث في أوروبا وفي الغرب. هذا ما حصل في فرمانات 1839 و 1856 و دستور1876 وحركة 1909 وإصلاحات 1923 (مع مصطفى كمال)، و1946 (الانتقال إلى التعددية السياسية في عهد عصمت إينونو)، وعام 1963 (بروتوكول أنقرة مع أوروبا في عهد عصمت إينونو أيضا)، وعام 2005 (مع بدء مفاوضات العضوية المباشرة مع الاتحاد الأوروبي في عهد حزب العدالة والتنمية). من هنا نرى أن وجهة التحديث كانت دائما التجربة الغربية. ورغم أن تركيا كانت توسع في بعض الظروف، دائرة التفاتتها إلى الشرق فإن بوصلة التحديث استمرت في اعتبار الغرب النموذج الحضاري الوحيد الممكن الاقتداء به للأخذ بسبل التقدم والتطور.

2- من الزاوية الغربية:

- تشكل تركيا منذ الحرب العالمية الثانية منصة فكرية متقدمة للغرب داخل العالم الإسلامي من خلال التجربة العلمانية التي تجعل من تركيا أقرب إلى الغرب وحالة لا تهدد أوروبا المسيحية كما كان الحال عليه قبل العلمنة وفي عهد الدولة العثمانية. ووفقا للغرب، بقدر ما يتراجع حضور الدين في الدول والمجتمعات الإسلامية بقدر ما يتراجع التهديد الديني الإسلامي للغرب. لذلك فإن احتضان التجربة التركية العلمانية حاجة لاستمرار الاستقرار والأمن في أوروبا ومنع نشوء نزعات دينية وقومية متشددة على حدود جنوب شرق أوروبا.

- وتركيا تشكل لأوروبا حاجزا جغرافيا واجتماعيا مع مشكلات الشرق الأوسط العرقية والدينية والسياسية ومنع امتدادها إلى الداخل الأوروبي. ومن آخر الأمثلة على ذلك مسألة اللاجئين السوريين الذين عملت تركيا مع الأوروبيين لمنع تدفق المزيد منهم إلى أوروبا وإبقائهم في تركيا طريق مرورهم الأساسية إلى أوروبا.
- وتشكل تركيا للغرب قاعدة عسكرية (نووية أيضا) أساسية في الصراع على الزعامة العالمية مع روسيا الاتحادية ولمواجهة التهديدات العسكرية والأمنية في إيران وأفغانستان وباكستان وآسيا الوسطى والقوقاز والشرق الأوسط.
- وتشكل تركيا رقما مؤثرا في صراع الطاقة العالمي لمصلحة الغرب والذي بدأ مع خط باكو جيهان في نهاية التسعينيات مع الرئيس الأميركي بيل كلينتون.
- وتشكل تركيا للغرب حالة مساعدة لشرعية إسرائيل في الوجود من خلال اعتراف دولة مسلمة وغير عربية بها منذ العام 1949،وحالة مساعدة لاستمرار وجود إسرائيل واستقرارها في المنطقة في ظل العلاقة التركية الوثيقة معها والمستمرة حتى الآن. وهذا أساسي بالنسبة لمصالح الغرب الاستراتيجية في ضمان أمن إسرائيل.

استنتاجات

في ظل الحاجة المتبادلة المتنوعة بين تركيا والولايات المتحدة (كما الغرب) فإن الطرفين محكومان باستمرار التعاون الاستراتيجي بينهما ولا يقلل منه أو تضعفه بعض الخلافات التي تظهر من وقت لآخر ولو كانت أحيانا أساسية وتأخذ وقتا طويلا لحلها (مثل الموقف من الأكراد أو محاولة الانقلاب الفاشلة).

فالولايات المتحدة لن تفرّط بمسار مفيد ومربح عمره أكثر من سبعين عاما (حتى لا نذهب ثقافيا أبعد من ذلك) حتى لو اضطرت أحيانا لاستخدام أساليب غير شرعية أو عنفية (انقلابات 1960 و 1971 و 1980 والقرارات ضد حكومة نجم الدين أربكان في 28 شباط/فبراير 1997 ومحاولة انقلاب 15 تموز/يوليو 2016) لتصويب مسار

السياسات التركية. كما إن الغرب لن يضحي بحليف استراتيجي كبير مثل تركيا قياسا مع "حفنة" من المقاتلين الأكراد في شمال سوريا ترى فيهم الولايات المتحدة ورقة تأثير لمصالحها المستقبلية في الداخل السوري أكثر من أن يكونوا تهديدا استراتيجيا للحليف التركي. وأميركا تخلت في لحظة ما عن حليف كردي أكبر بكثير من أكراد سوريا عندما لم تمارس تأثيرها بالنسبة لاستفتاء استقلال كردستان العراق في 24 أيلول 2017. لذلك فلن يكون مفاجئا أن تتخلى واشنطن، بمعزل عمن يكون حاكما في البيت الأبيض، عن قوات الحماية الكردية في سوريا إذا كانت العلاقة مع الأكراد ستكون فعلا عاملا حاسما في كسر العلاقة الأميركية مع تركيا.

وفي المقابل فإن تركيا فضلا عن أنها لا ترغب في، ولا تستطيع، الانفكاك عن الغرب، فلا بديل لها ممكنا أو مربحا يجعلها تتجه إلى دول مشرقية مثل روسيا أو إيران أو العالم العربي أو الصين. فصورة روسيا أو إيران على حد سواء في العقل التركي هي صورة العدو وليس مجرد منافس. بالنسبة لروسيا، هي "عدو" ديني (أورثوذكسي) وعرقي (سلافي) .وبالنسبة لإيران، هي "عدو" مذهبي (شيعي) وعرقي (فارسي).ولا تختلف في المقابل صورة تركيا المذهبية والطورانية والتوسعية لدى روسيا وإيران، وما بين كل هذه الأبعاد من مساحات وساحات للاختلاف والصدام.

كذلك فإن روسيا، التي لا يزيد حجم اقتصادها على تريليون و250 مليار دولار (حجم الاقتصاد التركي 850 مليون دولار)، ليست بديلا اقتصاديا واقعيا لتركيا عن أوروبا والغرب. ولا تمثل روسيا نموذجا سياسيا وثقافيا تبحث عنه تركيا. والأمر نفسه اقتصاديا وسياسيا وثقافيا يسري على إيران.

لكل هذه الأسباب وغيرها، فإن تركيا والغرب وخصوصا الولايات المتحدة الأميركية (بجمهورييها وديموقراطييها)، مهما اتسعت هوة الخلافات بينهما، محكومان بالتفاهم والتحالف. أما محاولات تركيا بناء علاقات متقدمة مع روسيا وإيران وغيرها من الدول المشرقية وغير المشرقية وتحقيق مكاسب وأرباح فلا يمكن أن تكون على حساب الثابت الاستراتيجي مع الغرب بشقيه الأميركي والأوروبي.

الانعكاسات الشرق أوسطية للخلاف الأمريكي الأوروبي

د. السيـــد أمـــين شلبـــي

المدير التنفيذي للشئون الخارجية الاسبق - القاهرة

تقديم

رغم حدة الخلاف الذي بدأ يتطور بين الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي ودوله الرئيسية، إلا أن هذا لا يخفي أنه حتى في مرحلة الحرب الباردة والتحالف في مواجهة الاتحاد السوفيتي، كان ثمة تشققات في العلاقات الأمريكية الأوروبية أوضحت تمايزات في الرؤية ونزعة أوروبية مستقلة، وهي النزعات التي ترسخت مع مجيء دونالد ترامب للرئاسة الأمريكية وسياساته في التعامل مع أوروبا ومؤسساتها السياسية (الاتحاد الأوروبي) والعسكرية (حلف الأطلنطي) وباعتبار التشابك التاريخي بين أمريكا وأوروبا من ناحية، ومنطقة الشرق الأوسط والعالم العربي من ناحية أخرى، كان من الطبيعي أن يكون للخلاف الأخير انعكاساته على قضايا الشرق الأوسط .

وعلي هذا، سيعالج هذا المقال الخلفيات التاريخية للخلافات الأمريكية الأوروبية، ثم واقع وتطور هذا الخلاف منذ مجيء دونالد ترامب، وأخيرًا انعكاسات هذا الخلاف على قضايا الشرق الأوسط والعالم العربي .

أولاً: خلفيات الخلاف الأمريكي الأوروبي

فمع بداية الستينيات وبداية استعادة أوروبا لعافيتها السياسية والاقتصادية وثقتها في نفسها بدأت القوة الأوروبية وفي إطار استمرار تحالفهما وانتمائها السياسي والأيديولوجي

مع الولايات المتحدة تشكك في السلطة الأمريكية وحقها في التحدث باسمها وباسم التحالف كله، كما أخذت تنظر إلى نفسها كشريك لأمريكا وتطالب بنصيبها في تقرير السياسات الخاصة بقضايا الحرب والسلام. ولوحظ أن هذه القوى الغربية بدأ يتملكها القلق من أن تزج بها الولايات المتحدة في حرب شاملة نتيجة إدارتها للمواجهة مع القطب الآخر مثل المواجهات التي دارت حول كوبا وتصاعد الحرب في فيتنام بل إنها خشيت أن تصل الولايات المتحدة إلى تأسيس سيطرة مشتركة Condominium مع الاتحاد السوفيتي والتصرف على حسابها ومن وراء ظهرها، وقد بدت هذه المخاوف، ومن ثم التصرف على أساسها خصوصا لدى قوتين أوروبيتين رئيسيتين هما فرنسا وألمانيا الاتحادية.

وفي منتصف الستينات أوصل الجنرال ديجول العلاقة مع الولايات المتحدة وقيادتها للتحالف الغربي إلى نقطة الأزمة الكبرى عندما أصر أن يغير من طابع العلاقة السياسية بين واشنطن وحلفائها بل وأن يجعل من نفسه المتحدث باسم أوروبا القارية ولعبت، ليس فقط شخصية ديجول وفكره، بل خبرة فرنسا التاريخية والأوروبية دورًا أساسيًا في هذه التوجهات فمن خلال تقويم ديجول لعلاقات القوى في العالم ومعانيها بالنسبة لفرنسا وأوروبا، وكذلك تصدره الفلسفي والتاريخي لدور فرنسا ومكانتها، تصور أن فرنسا يجب أن يكون لها سيطرتها على مصيرها الخاص. بهذا التصور بدأ ديجول سلسلة إجراءاته لفك العلاقة العسكرية لفرنسا مع حلف شمال الأطلنطي وهي الإجراءات التي انتهت في عام 1966 بسحب فرنسا لقواتها من الناتو وانسحاب القوات الأمريكية من الأراضي الفرنسية عام 1967.

أما التحول الآخر في نطاق التحالف العسكري الأوروبي نحو سياسات أوروبية مستقلة، فقد صدر عن القوة الأوروبية الرئيسية الأخرى وهي ألمانيا الاتحادية وبدا هذا التطور مع قيام حكومة ائتلافية في 1966 شرعت تعيد النظر في عدد من مفاهيم إدارة علاقاتها الدولية واستخلصت أن المشكلة الألمانية لا يمكن أن تحل في مناخ الحرب الباردة الجامدة. وبلغ هذه التطور مداه عام 1969 عندما جاء إلى الحكم الحزب

الديمقراطي الاشتراكي بزعامة فيلي برنارت الذي اتبع سياسة التوجه شرقًا ostopolitik والتي انطلقت منها التطورات التي تلت ذلك في علاقة الشرق بالغرب عمومًا .

وبعد انتهاء الحرب الباردة واختفاء الاتحاد السوفيتي الذي كان يمثل العامل الذي وحد وجمّع التحالف الغربي، والذي من أجل مواجهته تقبلت واحتملت الدول الأوروبية القيادة والزعامة الأمريكية، وتماسكت المؤسسات التي أنشأها التحالف وفي مقدمتها حلف شمال الأطلنطي، بدأت مظاهر الخلافات تطفو على سطح العلاقات الأمريكية الأوروبية، وبدأت الدوائر الأمريكية تنظر بالشك والتخوف من تحول أوروبا إلى القوة المنافسة للولايات المتحدة أو على الأقل المشارك لها في زعامة العالم .

وعبر عقد التسعينات أخذت مظاهر الخلاف حول قضايا أمنية وسياسية وتجارية تتطور بين الجانبين. ورغم لحظة المشاركة العاطفية التي جاءت نتيجة لأحداث 11 سبتمبر وما تعرضت له الولايات المتحدة، إلا أن هذه اللحظة ما لبثت أن تبددت وبدأت تظهر من جديد وبشكل أقوى، عناصر الاختلاف في الرؤية للعالم وقضاياه. كان الاختلاف الذي حدث حول العراق يعكس في حقيقته خلافًا حول المكانة في العالم وحول رفض الجانب الأوروبي، وعلى الأقل قواه الرئيسية لأسلوب الهيمنة الأمريكية وتجاهل السياسات والاتفاقيات الدولية .

وقد كان من الطبيعي أن تنشغل مدارس الفكر والبحث بهذه الحالة وأن تناقش أبعادها المختلفة والاتجاه الذي ستأخذه. وفي هذا الشأن نشأت مدرستان تركز الأولى على عناصر الخلاف وترى أنها عميقة في البنية الفلسفية والثقافية على الجانبين فضلاً عن معادلات القوة المختلفة، وبهذا الاعتبار فإن هذه الخلافات ستظل قائمة بل قد تتزايد. وتُنبه المدرسة الثانية إلى العناصر التي تجمع بين الجانبين من القيم والمصالح المشتركة التي تدفعهما إلى العمل والتعاون معًا ومواجهة أخطار مشتركة يصعب مواجهتها إذا عمل كل منهما مستقلاً عن الآخر.

ثانيًا: واقع الخلاف الأمريكي الأوروبي

يبدو أن تولي دونالد ترامب الرئاسة الأمريكية وسياساته تجاه الاتحاد الأوروبي وحلف الأطلنطي جاء لكي يعطي زخمًا للمدرسة التي كانت تركز على عمق عناصر الخلاف في البنية الفلسفية والثقافية على الجانبين فضلا عن معادلات القوة المختلفة .

ذلك أنه حتى خلال حملته الانتخابية وجه ترامب انتقادات للمؤسسات الأوروبية، بل إنه رحب بانسحاب بريطانيا من الاتحاد الأوروبي في الوقت الذي كان الاتحاد الأوروبي يعتبره "زلزالا"، وذهب ترامب إلى تشجيع القوى اليمينية والأحزاب الأوروبية. وخلال حملة الرئاسة الفرنسية استقبل ترامب المرشحة اليمينية لوبان. كما كان لصعود ترامب تأثيره على صعود الأحزاب اليمينية والقوى الشعبوية في إيطاليا، والنمسا وبلجيكا والمجر. غير أن التطور الحاسم في الخلاف الأمريكي الأوروبي جاء بانسحاب ترامب من الاتفاق 5+1 حول البرنامج النووي الإيراني، فقد أعلن الاتحاد الأوروبي التزامه بالاتفاق واعتباره مفيدًا للأمن القومي الأوروبي والإقليمي.

وقد حاول الاتحاد الأوروبي وقواه الرئيسية إقناع ترامب بالعدول عن انسحابه، وسافر إلى واشنطن كل من الرئيس الفرنسي ماكرون والمستشارة الألمانية ميركل، لإقناع ترامب، وجادلا أنه يمكن معالجة الثغرات في الاتفاق مثل الصواريخ الباليستية، غير أن ترامب لم يستجب لهذه المساعي وأعلن انسحابه رسميا من الاتفاق يوم 7 يونيو 2018.

وعلى المستوى الاقتصادي عارض الاتحاد الأوروبي العقوبات الاقتصادية الأمريكية ضد إيران، وفي مواجهة هذه العقوبات وضعت المجموعة الأوروبية حزمة من السياسات من بينها حماية شركاتها من العقوبات الأمريكية وتشجيعها على إبرام الصفقات المحرمة، ووضع نظام نقدي بديل عن النظام النقدي الأمريكي، وكذلك سلة مالية جديدة مستقلة تسهل التجارة مع إيران. كما طرحت فكرة استخدام نظام المقايضة، بضائع أو خدمات، مقابل النفط الإيراني الأمر الذي واجهه المسئولون الأمريكيون بالرفض والوعد بمقاومته، وإن كانت هذه الإجراءات لم تُفعّل بشكل يُرضي الإيرانيين، بل إن عددا من الشركات الأوروبية انسحبت من إيران خوفا على علاقاتها بالسوق الأمريكي .

وإضافة إلى الإجراءات الأوروبية لحماية الشركات الأوروبية من العقوبات الأمريكية، أعلن الاتحاد الأوروبي في اجتماعه ببروكسل في أغسطس 2018 تقديمه مبلغ 20 مليار يورو إلى إيران كجزء من المبلغ الذي كان الاتحاد الأوروبي قد وعد به عند توقيع الاتفاق وهو 50 بليون يورو، وهو ما اعتبرته الإدارة الأمريكية "رسالة خاطئة" لإيران وأن الاتحاد الأوروبي يوجه هذه المبالغ من أموال دافعي الضرائب الأوربيين .

وفي قمة حلف الأطلنطي، التي انعقدت في بروكسل في 12-13 يوليو 2018 سيطر الخلاف بين الولايات المتحدة وأعضاء حلف الأطلنطي الأوروبيين، حيث واصل ترامب انتقاداته لأعضاء الحلف حول اتفاقهم الدفاعي وأن الولايات المتحدة تحملت بشكل غير عادل، العبء الأكبر من تعاقدات الدفاع في وقت كان فيه أعضاء الحلف يبنون اقتصادياتهم، وركز ترامب هجومه على ألمانيا التي اعتبرها "أسيرة" لروسيا مشيرًا إلى مد أنابيب الغاز الروس إلى ألمانيا عبر البلطيق، ونظرا إلى أن ترامب كان مقدرا أن يعقد قمة مع نظيره الروسي في هلسنكي بعد قمه الأطلنطي، فقد وصل به الأمر إعلان أن لقاءه مع بوتين سوف يكون "أسهل" في سياق جولته الأوروبية .

وبين دول الاتحاد الأوروبي، كانت تربط بريطانيا "علاقة خاصة" مع الولايات المتحدة" بل إن البعض داخل الاتحاد كان يعتبر بريطانيا، "حصان طروادة" الأمريكي داخل الاتحاد، غير أن الوضع اختلف مع مجيء ترامب حيث لم تنجُ بريطانيا من انتقاداته، وعانت رئيسة الوزراء تيريزا ماي أوقاتًا صعبة مع ترامب بعد أن انتقدت سياسته حول الهجرة، وخروج أمريكا من الاتفاق الإيراني، واتفاقية المناخ، ووصل الأمر لترامب أثناء توجهه لزيارة عدد من دول أوروبية، منها بريطانيا، إلى القول إن بريطانيا تعيش "حالة من الفوضى "

واتصالا بالصعوبات الاقتصادية أعلن ترامب فرض رسوم جمركية على الواردات الأوروبية من الحديد والصلب، الأمر الذي ارتقى إلى مستوى الحرب التجارية، ففي محاولة من الاتحاد للتأثير على قرار ترامب حول التعريفات الجمركية سافر جان كلود رئيس المفوضية الأوروبية إلى واشنطون للاجتماع مع ترامب، ورغم الشكوك التي

أحاطت بهذا الإلغاء إلا أنه أسفر عن "مفاجأة" تعليق التهديدات بفرض أي رسوم تجارية أمريكية جديدة على الواردات الأوروبية، وهو ما اعتبر اختراقًا يُمكن الأطراف من تفادي حرب تجارية، وينقذ ملايين الوظائف. أما ما استخلصه الأوروبيون من هذه الصفقة فهو "أنها أوضحت مرة أخرى أن أوروبا تصبح قوية حين تتصرف كمجموعة".

أما على المستوى الفرنسي وعلى مدى الشرخ الذي حدث في العلاقات الأمريكية الأوروبية، فقد عبر عنه الرئيس الفرنسي ماكرون في خطابه أمام اللقاء السنوي للسفراء الفرنسيين لعام 2018 بقوله "أوروبا لا يجب أن تعتمد على الولايات المتحدة في أمنها. ودعا إلى إنشاء جيش أوروبي هو ما اعتبره ترامب "إهانة"، أما على المستوى الأيديولوجي فقال" إن أمريكا لا تحترم قيمنا وهويتنا الأوروبية ".

وقد بلغ الخلاف الأوروبي الأمريكي مداه خلال مؤتمر ميونيخ للأمن الدولي الذي عُقد 14 فبراير 2018 وبدا هذا في خطاب مايك بنس نائب الرئيس الأمريكي والذي جاء بلهجة آمرة للأوروبيين أن يخرجوا من الاتفاق النووي الإيراني وأن يوقِفوا علاقتهم الاقتصادية مع روسيا خاصة في مجال استيراد الغاز الطبيعي وتشديد العقوبات الاقتصادية عليها وهي اللهجة التي استهجنها المشاركون الأوروبيون خاصة المستشارة الألمانية أنجيلا ميركل.

ثالثًا: الانعكاسات الشرق أوسطية للخلاف الأمريكي الأوروبي

تاريخيًا تمثل منطقة الشرق الأوسط منطقة استراتيجية هامة بالنسبة للعالم العربي، نستطيع أن نتبين هذا منذ التنافس الاستعماري على الإقليم والذي دفع بفرنسا بقيادة نابليون، وفي نطاق منافستها مع بريطانيا، إلى غزو مصر عام 1789، وعندما انتهى الغزو الفرنسي لمصر بفعل "ثورات القاهرة" تلا هذا الاحتلال البريطاني لمصر عام 1882 لكي تستكمل به مكانتها الاستعمارية واحتلالها للهند. ومن الغزو الفرنسي والاحتلال البريطاني كان حكم محمد علي لمصر منذ 1804، وخلال حكمه وإلى جانب مشروعه لبناء الدولة المصرية الحديثة ومقوماتها العسكرية والاقتصادية، امتد حكم محمد

علي، ومن خلال جيشه بقيادة ابنه ابراهيم، إلى الجزيرة العربية، وبلاد الشام والسودان، الأمر الذي دفع الدول الأوروبية إلى الوقوف ضده وفرض معاهدة 1840 التي تقيد حكمه وتحد من طموحاته وتفرض حدودًا على الجيش المصري. وخلال الحرب العالمية الأولى تقاسمت بريطانيا وفرنسا وفقًا لمعاهدة سايكس بيكو 1917 مناطق النفوذ في العالم العربي. ومع مطلع الخمسينات، وبروز حركات التحرر الوطني في العالم العربي، فضلا عن آسيا وإفريقيا وأمريكا اللاتينية، كان من مظاهر هذه الحركة "ظهور قيادة ثورية جديدة في مصر كان من أول خطواتها تأميم شركة قناة السويس عام 1954 الأمر الذي أثار كلا من فرنسا وبريطانيا. بالتواطؤ مع إسرائيل، إلى شن هجوم عسكري على مصر في أكتوبر 1956. وفي رد فعل المجتمع الدولي وإدانته لهذا الغزو ، يستوقف النظر الموقف الأمريكي الذي اصطدم مع اثنين من حلفائه الرئيسين، بريطانيا وفرنسا" وطلب منهما الانسحاب الفوري من مصر، وهو الحدث الذي سيسجل أفول المكانة الاستعمارية لكل من فرنسا وبريطانيا، وحلول الولايات المتحدة ، القوة الأعظم البازغة في سياسات الشرق الأوسط .

وقد كانت القضية الفلسطينية من القضايا التي تأثرت بالمواقف الأمريكية والأوروبية، فأوروبا، من خلال الاتحاد الأوروبي، أبدت تفهما للقضية الفلسطينية وحقوق الفلسطينيين وأبعاد الصراع الفلسطيني الإسرائيلي، فمع استمرار التأييد الأوروبي لإسرائيل، إلا أن الاتحاد الأوروبي كان يعرب عن مواقف متباينة مع الولايات المتحدة، من حيث تأييده لدولة فلسطينية مستقلة، وإدانته لبناء المستوطنات الإسرائيلية في الأرض المحتلة. وقد ظلت السياسة الأوروبية تعطي للولايات المتحدة قيادة عملية سلام في الشرق الأوسط، إلا أن دول الاتحاد الأوروبي، استخلصت أن انفراد الولايات المتحدة بعملية السلام لم يحقق أي تقدم ولذلك قدمت فكرة الرباعية Quartet عام 2000 بهدف توسيع قاعدة البحث عن السلام وحيث ضمت الرباعية : الولايات المتحدة ، الاتحاد الأوروبي، وروسيا الاتحادية والأمم المتحدة، غير أن دول الرباعية الأوروبية، سرعان ما اشتكت أن الولايات المتحدة تستخدم الرباعية كمظلة لسياستها في المنطقة، وقد طورت

فرنسا بوجه خاص الدور الأوروبي بالدعوة إلى عقد مؤتمر دولي حول النزاع الفلسطيني الإسرائيلي حيث دعا الرئيس الفرنسي هولاند لعقده عام 2016 حضرته 70 دولة بهدف التوصل إلى إطار للتسوية السياسية وهو المؤتمر الذي اعترضت عليه، الولايات المتحدة فضلا عن إسرائيل .

وفي السياق الفلسطيني الإسرائيلي، أعلن دونالد ترامب في فبراير 2017 اعترافه بالقدس عاصمة لإسرائيل، ثم نقل السفارة الأمريكية من تل أبيب إلى القدس، وهو الإجراء الذي دفع أعضاء في الأمم المتحدة للتقدم في 12 ديسمبر 2017 بمشروع قرار برفض الإجراء الأمريكي، ويؤكد على الطبيعية الخاصة لمدينة القدس واستدعت قرارات الأمم المتحدة التي تؤكد أن الوضع النهائي للقدس تقرره المفاوضات النهائية، وقد حاز مشروع القرار على تأييد 127 دولة ولم تعترض عليه إلا 8 دول، ويستوقف النظر أن مندوبة أمريكا في الأمم المتحدة أعلنت قبل التصويت على مشروع القرار أن الدول التي ستؤيده سوف تتعرض للعقوبات الاقتصادية الأمريكية .

ومن تداعيات سيطرة العامل الإيراني على إدارة دونالد ترامب، أعلن الرئيس الأمريكي أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة في دورتها الأخيرة أن بلاده تسعى مع دول الخليج العربي ومصر والأردن لإقامة تحالف استراتيجي لضمان استقرار المنطقة، ورغم اتساع مهام هذا التحالف إلا أن الهدف الرئيسي منه هو مواجهة إيران وتحييد دورها في المنطقة .

وفي تصورنا أن الخلاف الأمريكي، الأوروبي سوف يجعل الدول الأوروبية خاصة الرئيسية فيها، أكثر اقترابًا من قضايا الشرق الأوسط والعالم العربي، ولكي تمارس دورًا أكثر في أزماته، الأمر الذي يدعو الدبلوماسيات العربية إلى تتبع عناصر هذه الخلاف وتطوره وإدراك أنه لا يقتصر على جانبيه وإنما ستمتد تأثيراته على منطقة استراتيجية هامة مثل الشرق الأوسط والعالم العربي.

ملـــــف دولـــــي

- تداعيات التطورات القلقلة في أوروبا وتأثيراتها على موقفها الدولي وعلاقاتها الأمريكية — د. ســـلام الكواكبـــــي
- الحرب التجارية بين الولايات المتحدة والصين .. أبعادها ومآلاتها — د. ماجـــدة شاهيـــــــن

الأزمات الأوروبية
وتداعياتها على الساحة الدولية والعلاقة مع أميركا

د.ســـلام الكواكبـــي

كاتب سوري في العلوم السياسية - دمشق

مقدمة

توترات داخلية، اقتصادية وسياسية عدّة تعرفها "القارة العجوز" الأوروبية من شمالها إلى جنوبها ومن شرقها إلى غربها. يُضاف إلى ذلك بؤر الصراع العنيف سياسيًا أو عسكريًا القائمة على حدودها البحرية الجنوبية في دول شمال إفريقيا، كما ليبيا ومصر، وحدودها البرية شرقًا مع تركيا وما يحيط بها من ملفات صراعات وتجاذبات إقليمية ودولية تنعكس بشكل واضح على أمن واستقرار أوروبا وتؤثّر أيما تأثير في صعود التيارات الوطنية المتطرفة والشعبوية اليسارية أو اليمنية.

من جهة السياسات الداخلية وحوكمتها، يمكن اعتبار صعود التيارات السياسية ذات الصبغة الشعبوية والميول اليمينية المتطرفة، كأنه نوعٌ من التطور السياسي الذي يشهد "ازدهارًا" لم تعرفه هذه البلاد منذ عقود طويلة، خصوصًا بعد الانتهاء من الحرب العالمية الثانية سنة 1945 وبناء البيت الأوروبي بدءًا من خمسينات القرن المنصرم. ويكاد بالإمكان أن يعتبر المراقب للتطورات المختلفة، والتي تحمل تناقضات بنيوية . القائمة في السياسات الداخلية الأوروبية، بأن الاتحاد الأوروبي هو في طور عملية تحوّل مقلقة كي يصبح فيها ناديًا للدول المتطرفة على درجات مختلفة في شدة هذا التطرف.

اليمين المتطرف والشعبوية:

التسونامي اليميني المتطرف متجسّد في بعض الدول كالمجر والنمسا وإيطاليا، ولكنه أيضًا يغمر دولاً عديدة أخرى جزئيًا أو محليًا كما يحصل في إسبانيا وفي بعض الدول الإسكندنافية. فبودابست التي تدّعي حكومتها المتطرفة بأنها وسطية مُحذرة من وصول أحزاب أشد يمينية منها، تنعكس السياسات المحافظة على الملفات الأمنية وسياسة الجوار والتعامل مع ملف اللاجئين كما في عملية تعزيز "الوطنية" القومية الانعزالية على الرغم من استفادتها الكاملة من تمويل أساسي وفعال يأتيها من الاتحاد الأوروبي دون أن تجد نفسها ملزمة للتقيد بسياساته أو احترام قيمه ومعاييره. ومن خلال متابعة ممارسات الأجهزة الشرطية كما محاولات الحكومة السيطرة على أجهزة الإعلام بالتعاون مع رؤوس المال التي تميل لها، يمكن أن يعتبر الملاحظ بأن المجر تُشكّل عقدة أساسية في الميل السلبي لتقييم توجهات القارة العجوز. يُضاف أخيرًا، الميل التسلطي لدى فيكتور أوربان، رئيس الحكومة الحالية والمستمر في الحكم منذ سنة 2010، إلى التمثّل بفلاديمير بوتين، فكرًا وأداءً، وجعل روسيا مثالاً يُحتذى في مرحلة يعرف فيها القاصي والداني مدى سعي موسكو إلى زعزعة استقرار الأنظمة التقليدية في الاتحاد الأوروبي.

من جهة أخرى، وعلى الرغم من العداء التاريخي المستحكم بين وارسو وموسكو، إلا أن ذلك لا يمنع من الإقرار أيضًا بأن اليمين المحافظ الكاثوليكي يُسيطر على بولندا منذ عام 2015 بشكل ينتهك معايير الحياة الديمقراطية الأوروبية المتعارف عليها. فالإجراءات الاجتماعية كما الإعلامية كما القضائية وسواها، لا تلتزم بأي من المعايير التي توافق عليها المنتمون إلى الاتحاد الأوروبي القدماء والجدد. وفي تعزيز للشرخ الداخلي، قام عنصر متطرف في يناير الماضي باغتيال بافل اداموفيتش رئيس بلدية مدينة غدانسك عاصمة حركة التضامن التي أطلقت الثورة على الحكم الشيوعي سنة 1980 والذي ينتمي إلى المعارضة الليبرالية للحكومة المحافظة.

وإلى جانبهما بلغاريا التي تتشارك مع جارتها رومانيا في مقاومة كل الإجراءات المفروضة من الاتحاد الأوروبي للتخلص من الفساد المزدهر فيهما وخصوصًا على

مستوى الحكومات والأجهزة التنفيذية. ومجموع ما تقدم من دول دخل الاتحاد الأوروبي في مراحل متأخرة بعد انهيار الاتحاد السوفييتي والمعسكر الشرقي، واستفادت كل منها بدعم اقتصادي هائل لإعادة تكوين البنى الاقتصادية فيها وذلك للتماشي مع متطلبات المشروع الأوروبي .

كما تعرف منطقة البلقان فشل نموذج الحل الأوروبي لصراعات دول ما بعد تفتت يوغوسلافيا الاتحادية. فالسلام حل من الناحية الحربية، فتوقفت المعارك بين الأخوة الأعداء من صرب وكوسوفويين وبوسنيين وكروات، دون أن يترافق ذلك مع تحقق أي تقدم ملموس على مستوى الملف السياسي أو الاقتصادي في أي من بلدان المنطقة. ويمكن الجزم بأن المنطقة تعتبر بالوعة للدعم الأوروبي حيث نسبة الفساد وصلت إلى مستويات قياسية.

وتشهد إسبانيا صعودًا مقلقًا أيضًا للتطرف على أنواعه. فهناك النزعة الانفصالية الكاتالانية التي طوّرها وساهم في تعزيزها التعنت الرسمي في التعامل مع ملف إدارة التنوع القائم في إسبانيا بين المكونات المتنوعة من كاتالان إلى باسك إلى غاليسيين إلى أندلسيين. حيث أدى هذا إلى شعور كل مجموعة بتميّز يدعو بعضها إلى المطالبة بالانفصال كما هي حال برشلونة التي تدعو إلى إقامة الجمهورية والخروج من سيطرة التاج الإسباني. يُضاف إليه صعودٌ مفاجئ لليمين المتطرف الذي يشعر بالحنان لمرحلة الديكتاتورية التي قادها الجنرال فرانكو لأربعين عامًا في البلاد من سنة 1936 إلى سنة 1975. وفي تجسيد حي لهذا التوجّه، فقد فاز يمين التطرف في الانتخابات الإقليمية الأخيرة برئاسة مجلس الحكم المحلي لإحدى أهم المقاطعات الإسبانية وأكثرها كثافة سكانية وهي الأندلس. وقد فشلت الحكومة الاشتراكية الشابة المركزية من الصمود أكثر من عدة أشهر وسقطت لدعوتها إلى الحوار مع الانفصاليين حيث استغله المتطرفون كقميص عثمان للانتقاص من وطنيتها ومشروعيتها، مما دفع برئيس الوزراء الاشتراكي بيدرو سانشيز إلى الدعوة لإجراء انتخابات برلمانية مسبقة في شهر أبريل القادم. ويرجّح

المراقبون أن يعود فيها اليمينيون من حزب الشعب مع تحالفات متطرفة، للإمساك بزمام الحكومة في مدريد.

أما الحاضرة الأوروبية الأعرق في أثينا، فاليونانيون لا يتخلصون إلا بصعوبة من ارتهانهم الاقتصادي الذي قيّد من تصرفات حكومتهم بعد الأزمة المالية الأخيرة التي عصفت بالبلاد سنة 2010 وجعلتها تقع بشكل شبه كامل تحت الانتداب الاقتصادي الأوروبي عمومًا والألماني خصوصًا. كما تتحمّل البلاد عبئًا لا قدرة اقتصادية لها على القيام به فيما يتعلق بمسألة مرور اللاجئين من أراضيها. وعلى هامش المأزق الاقتصادي الداخلي، والذي يُعزّز بدوره من نمو تيارات التطرف يمينًا ويسارًا، تستمر خلافات أثينا مع أنقرة بخصوص احتلال تركيا للجزء الشمالي من جزيرة قبرص عام 1974 .

كما وقعت إيطاليا في فخ التحالف بين تجمّع شعبوي كان محسوبًا على اليسار المتطرف وصار حزبًا باسم النجوم الخمس، إلى جانب رابطة الشمال اليمينية المتطرفة والتي تمثّل إعادة إنتاج للمفاهيم الفاشية في العداء للأجانب والوطنية المتطرفة والانعزالية على مستوى القارة الأوروبية. وعلى الرغم من العجز الهائل في ميزانية البلاد وحاجتها الحيوية للضخ المالي الأوروبي، إلا أن التطرف اليميني الذي يقودها اليوم قد أدى بها إلى تعجيز بروكسل المتمثّل في تأخير اتخاذ الإجراءات الإنقاذية المقترحة اقتصاديا والتمرّد على القوى التقليدية في القارة كألمانيا وفرنسا. كما أن النمسا، رغم هدوء أحداثها ظاهريًا، إلا أنها أيضًا وقعت فريسة ثمينة بين مخالب اليمين المتطرف الذي وصل عبر تحالف مع المحافظين إلى سدة السلطة التنفيذية سنة 2017 .

الدول الأوروبية المؤثّرة

من جهة القوى الأساسية في المشهد الأوروبي، أي بريطانيا وألمانيا وفرنسا، فكل من هذه الدول المفتاحية في وضع أسس السياسة الأوروبية، اقتصاديا وسياسيًا واستراتيجيًا، تعرف تحوّلات داخلية. وعلى الرغم من تفاوت هذه التحولات في أهميتها النسبية من دولة إلى أخرى، ولكنها تمثّل نموذجًا سلبيًا ومقلقًا لمآلات المشروع الأوروبي.

فبعد حملة شعبوية قادتها الأحزاب المتطرفة في بريطانيا للتصويت على الانسحاب من الحلم الأوروبي ومغادرة الاتحاد، فاز الرافضون للاستمرار في التواجد في الاتحاد. وبالمقابل، لم يتمكن من قاد الحملة "الانفصالية" المسماة بالبريكسيت، من تقديم أية خطة بديلة للذين صوتوا لمشروعهم. وقد وقع التاج البريطاني في مأزق شديد التعقيد قاد حكومة لندن لخوض عملية تفاوض ماراثونية مع بروكسل للوصول إلى نتائج مخففة لهذا الانسحاب على الاقتصاد البريطاني. وبعد أن جرى الاتفاق بين الاتحاد الأوروبي والتلميذ البريطاني المتمرد، رفض برلمان البلاد شروط أو قيود الانسحاب المتفق عليها وأعاد العملية إلى نقطة الصفر في ظلّ تمسّك بروكسل بشروط الطلاق ومطالبة البريطانيين بتغييرها لصالحهم. وتعزيزًا للوضع المتخبّط في المشهد الداخلي البريطاني، عرفت الأشهر الأولى من العام الحالي انقسامات هامة على مستوى التحالفات النيابية وانسحاب عدد من نواب اليمين واليسار من أحزابهم وسعيهم وراء تشكيل قوى سياسية جديدة يجمع فيما بينها المعاداة الكاملة لعملية البريكسيت ومحاولة العودة إلى الأسرة الأوروبية .

وتشهد ألمانيا مراجعة يمينية متطرفة لسياسات الانفتاح الإنساني التي تبنتها المستشارة أنجيلا ميركل بخصوص استقبال اللاجئين سنة 2015، وخصوصًا منهم القادمون من سوريا. وقد دفعت ثمنا باهظًا داخليًا حيث صعدت أحزاب اليمين المتطرف "بيغيدا" والـ AFD وحصلت على نسب عالية نسبيا في الانتخابات المحلية لبعض الولايات خصوصًا في ولايات ما كان يُعرف بألمانيا الشرقية. وصار التهديد اليميني المتطرف مبعث قلق حقيقي للحكومة الألمانية القائمة. وعلى الرغم من استقرار الوضع الاقتصادي على العكس من عديد من الدول الأوروبية الأخرى، إلا أن مسألة الهجرة واللجوء، تُشكّل عبئًا رمزيًا هامًا لتحميلها الكثير مما يُصيب الاقتصاد الألماني من ركود نسبي ومؤقت. بالمقابل، لا ينكفئ المختصون عن الإشارة إلى حاجة البلاد إلى المزيد من المهاجرين للحفاظ على مستوى متقدم من الإنتاجية، إلا أن الخطاب الشعبوي والمعادي للأجانب يكتسب بعضًا من المساحة العامة .

في فرنسا، تستمر الاحتجاجات المطالبية من قبل مجموعات ما يُسمى بالسترات الصفراء الذين لا تتبدّى بوضوح أية قيادة سياسية لهم، على الرغم من محاولات عديد من الأحزاب السياسية استقطابهم، ولا حدود جلية لمطالبهم التي انطلقت من طلب تخفيض أسعار المحروقات لتصل إلى تعديل دستور الجمهورية الخامسة واعتماد الاقتراع المباشر للشعب على القرارات السياسية والاقتصادية. حركة السترات الصفر هي تحرّك شعبي يضم عناصر من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار. كما أنها تتجاوز الأطر الوسيطة من أحزاب ومن نقابات مما يُصعّب من جهود الحكومة للتعامل معها وإيجاد منصة حوارية منتجة. وهي تعكس انفجارًا كان منتظرًا لتراكم بعض الأوضاع الاقتصادية الصعبة لدى الطبقات الدنيا، كما أن هذا الحراك يثُبت نسبيًا فشل السياسيين التقليديين وأطرهم الناظمة كما عجْز الأحزاب والنقابات عن القيام بدورها التقليدي في عكس مطالب من ينتمي إليها وتأطيرها وتنظيمها.

إضافة إلى هذا التوتر الاجتماعي الداخلي، تطفو على السطح خلافات سياسية فيما يتعلق ببروز مستجد لرغبات قديمة تتعلّق بتجريم معاداة الصهيونية على أنها معاداة للسامية إثر تكرار مشاهد العداء لليهود. نقاش سياسي ومجتمعي متوتر ينعكس سلبًا على أداء الحكومة وتصريحات رئيس الجمهورية إرضاءً للمجلس التمثيلي للمنظمات اليهودية في فرنسا.

الحروب الباردة الجديدة

في ظل هذه التقلبات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية التي تشهدها أوروبا، يُراهن المتمسكون بالمشروع الأوروبي في قدرة المؤسسات العريقة على إيجاد أنجع السبل لتجاوز هذه العوائق والاستمرار في تحقيق الحلم الأوروبي. بالمقابل، يُعزّز المؤمنون بالانتهاء من هذا المشروع والقضاء عليه، وهم الأحزاب اليمينية المتطرفة كما الشعبويون، من جهودهم للدخول بقوة في البرلمان الأوروبي المقبل الذي ستجري انتخاباته في مايو 2019. كما يشهد الاتحاد الأوروبي تحديًا هامًا يتمثل بمحاولة التمسك بموقفه الصلب

تجاه المطالب البريطانية بتعديل اتفاقية انسحاب التاج البريطاني منه. فالبريطانيون يحاولون تعديل الاتفاق لصالحهم اقتصاديًا وهذا ما يُحاول مفاوضو بروكسل الصمود أمامه.

من جهتها، "تستمتع" الولايات المتحدة الأميركية، وبالأحرى، الإدارة الأميركية برئاسة دونالد ترامب، بما يحصل في أوروبا من أزمات متعددة. وكما أن سعي واشنطن قد توضّح، وبشكل مباشر أو غير مباشر، إلى دعم الانقسام الأوروبي من خلال دعم بعض التوجهات المتطرفة في لدن حراكه السياسي. كما تدعو واشنطن الدول الأوروبية إلى التعامل معها بشكل فردي منعزل وتبتعد كل الابتعاد عن مؤسسات الاتحاد الأوروبي المُديرة للملفات في بروكسل. كما تواجه أميركا، بكل عنف وتعنّت، الرغبة الخجولة التي تعبر عنها بعض التصريحات الأوروبية لتعزيز الدفاعات القارية بمعزلٍ عن السيطرة الأميركية عسكريًا واستراتيجيًا. وفي آخر الخطوات الأميركية، تُطالب الإدارة الأميركية الأعضاء الأوروبيين في حلف شمال الأطلسي بسداد مبالغ طائلة تعويضًا عما أنفقته الولايات المتحدة منذ نهاية الحرب العالمية الثانية لتعزيز دفاعات الدول الغربية. وبالمقابل، فهي تشعر بالفاجعة إن سعى الرئيس الفرنسي ماكرون إلى تشكيل قوة دفاعية أوروبية مستقلة عن إرادة واشنطن .

إن الإدارة الأميركية الحالية تناصب النموذج الأوروبي الاتحادي العداء السياسي والاقتصادي. وبالتالي، فهي لم تعد القطب الضامن الذي كانت عليه إبان الحرب الباردة قبل انهيار المعسكر الاشتراكي. بل وبالمقابل فهي تُعلن حربًا باردة من نوع جديد على حليفاتها الأوروبيات ما دمن لا ينصعن إلى توجهاتها السياسية إقليميًا ودوليًا على مختلف الأصعدة والملفات. وما الانسحاب الأخير المعلن للقوات الأميركية من شمال سوريا إلا محاولة ضغط واضحة على السياسات الأوروبية في مجال مكافحة الإرهاب. وقد صرّح أحد المقربين من ترامب أخيرا بأنه واعتمادًا على قاعدة انتماء أكثر "المجاهدين" لدى تنظيم داعش الإرهابي إلى أوروبا، فعلى أوروبا أن تتولى مهمة محاربتهم ولا يجد غضاضة في انفكاك أميركا عن الأمر.

الدب الروسي المتربّص

إلى جانب الفردانية الأميركية والحرب الباردة الناعمة التي تشنها واشنطن على القارة القديمة، لدينا في شمال هذه القارة من يسعى حثيثًا ومنذ انهيار المعسكر الاشتراكي إلى الدفع في مسار انهيار الاتحاد الأوروبي. ففلاديمير بوتين، ومن خلال سياساته الأوروبية، فهو لا يُخفي هذا السعي ولا ينفيه، بل يتخذ الخطوات اللازمة لتأكيده. فتقربه من متطرفي القارة من اليمينيين واليساريين بدا منهجًا. كما أن دعم إدارته المالي والإعلامي لكل الحركات الانفصالية في الدول الأوروبية. وقد أنشأ جيشًا إلكترونيًا متخصصًا في نشر الإشاعات في أوروبا عبر مواقع الشبكة العنكبوتية وخصوصًا وسائل التواصل الاجتماعي فيها. وتبقى محاولات التلفزيون الروسي ووكالة سبوتنيك لزعزعة الانتخابات الرئاسية الفرنسية عام 2017 علمًا بارزًا في مسار الإعلام الحربي الذكي رغم فشلها .

والحرب على الاتحاد الأوروبي لم تتوقف بعد من قبل الكرملين. والروس يعدّون العدّة للانتخابات البرلمانية الأوروبية القادمة بضخّ الأخبار كما الأموال في مسارات دعم الشعبويين والمتطرفين من كل الاتجاهات لشغل أكبر عدد من المقاعد في هذه المؤسسة الأوروبية التشريعية الهامة. كما أن الإجراءات الروسية العسكرية وتحالفاتها الدفاعية في أكثر من إقليم في المناطق المحاذية للاتحاد الأوروبي تشير كلها إلى انعدام الرغبة في تعزيز الاستقرار وعلى العكس، فهي تنشر بؤر الصراع والتوتر.

خلاصة:

الاتحاد الأوروبي يتعرض إلى خطر انقسامات جادة وليس البريكسيت أهمها. ففي الهيكلية الداخلية للاتحاد، أساءت عملية توسيعه إلى الشرق من أوروبا للمشروع أكثر من إفادته. وعلى الرغم من رمزية هذا الانضمام والانفتاح المتمثلة بانتقال تاريخي صادم لدولٍ كانت تحت سيطرة موسكو إلى معسكر العالم "الحر"، إلا أن تكاليف هذا التوسع كانت باهظة وربما تجاوزت النتائج الإيجابية له. كما أن البنية السياسية لهذه الدول

حديثة العهد بالديمقراطية لعبت دورًا مهمًا في التأثير على السياسات الأوروبية الداخلية من حيث تعزيز أحزاب اليمين المتطرف، كما تطوير مسار الرهاب من الإسلام خصوصًا ومن المهاجرين عمومًا وتحميلهم ما لا يُحتمل من مآسي الاقتصاد إن هي وقعت. كما يبدو أن التأثير الروسي سياسيًا على الأقل، ما زال قائمًا في الكثير من عواصم هذه الدول وقياداتها. وقد أثّر ذلك أيما تأثير في التصويت على مواقف أوروبية في السياسات الخارجية. وفي النهاية، فملف الفساد الممنهج في تلك الدول يبقى عائقًا أمام بروكسل في إنجاح السياسات الاقتصادية والمالية الموحدة للاتحاد.

ويجد الأوروبيون أيضًا أمامهم تحديين كبيرين يتمثلان بروسيا فلاديمير بوتين وأميركا دونالد ترامب، عدا عن الجزئيات الإقليمية المقلقة والتي هي مبعث على تطوير عملية اللجوء والهجرة إلى أوروبا أساسًا قبل أية منطقة في العالم. وكما استعرضنا، فسياسات موسكو ليست ودية تجاه المؤسسة السياسية الأوروبية. ويُنقل عن بعض المقربين من الكرملين أن هدف بوتين الأساسي من سياساته الأوروبية العودة بالأوروبيين إلى ما قبل إتمام عملية بناء البيت الأوروبي انتقامًا منه، ومن يُفكر مثله، من تفكيك الاتحاد السوفييتي، معتبرًا بأن الأوروبيين لعبوا دورًا أساسيًا فيه. كما يسعى دونالد ترامب إلى تحجيم القوة الاقتصادية الأوروبية متجاوزًا مسألة التحالف التاريخي والمصالح المشتركة كما في علاجه لمختلف الملفات انطلاقا من مصالح قصيرة الأجل لأميركا التي يتصورها كبائع عقارات متمكن.

ابتعد الأوروبيون أيضا عن "قيمهم" في العدالة الاجتماعية ودعم مسارات التحرر والدمقرطة والدفاع عن حقوق الإنسان. فصرنا نجد أن السياسات الأوروبية تميل أكثر إلى ما يسمونه "استقرارًا أمنيًا" و "وقف الهجرة" في علاقاتها مع دول الجنوب. فهي بالتالي ستتغاضى عن الانتهاكات المؤسسة لحقوق الإنسان في تلك الدول، لا وبل فستقوم بعض الدول الأوروبية كفرنسا وإيطاليا، ببيع الأسلحة الفتاكة إلى عدد من الأنظمة التي تقتل من المدنيين ما يمكن له أن يوقظ الضمائر النائمة في الحكومات الغربية ولكن لا حياة لمن تنادي .

في السنوات القليلة القادمة، هناك تحديات عدة تواجه وستواجه المشروع الأوروبي، فإن صمد البيت ولم ينهار خلال الأشهر القليلة القادمة، فديناميكيات مؤسساته وقدرات مجتمعاته المدنية الموحدة أو المنفصلة، ستكون حجر الأساس في عملية إنقاذ المشروع ودعمه في مواجهة من يسعى إلى تخريبه ولو سياسيًا. فما تتعرض له أوروبا في أوضاعها الداخلية وفي موقعها الدولي ليس نهاية العالم. ولا يمكن أيضا اعتبار الأزمات الحالية وكأنها من أقسى ما واجهته أوروبا، فقد سبق للمشروع الاتحادي أن واجه عوائق عدة في ماضيه القريب. كما أن انتكاسات متكررة عصفت بالبيت الداخلي الأوروبي واستطاع القائمون عليه ومن خلال العمل المؤسسي أن يتجاوزوها بأقل الخسائر.

إن تمسك الأوروبيون بمفاهيمهم المؤسسة وتعزيز استقلاليتهم السياسية والاقتصادية عن الأقطاب الخارجية المؤثرة سلبا على مشروعهم سيؤدي إلى إنقاذ البيت من الهدم. وهذه العملية تعود إلى وعي السياسيين الأوربيين، وهو متوفر، كما أنها ترتكز على إمكانيات اقتصادية هائلة لا يمكن إلا إبداء القلق من شحّها النظري أو العملي.

الحرب التجارية
بين الصين والولايات المتحدة

د. ماجـــدة شاهيـــن

مدير مركز الأمير الوليد بن طلال للدراسات والأبحاث الأمريكية، الجامعة الأمريكية - القاهرة

إلى حين كتابة هذه السطور لم يتم بعد حسم الحرب التجارية بين الصين والولايات المتحدة، تلك الحرب التي تتصاعد تارة وتتهاوى تارة أخرى، وتُحدث معها زلزالاً مدويًا في صعودها وسقوطها في الاقتصاد الدولي، قد لا ينجو منه الكثيرون في النهاية. وابتدع الرئيس الأمريكي دونالد ترامب هذه الحرب بعد أشهر قليلة من توليه الحكم، معتبرها صفقة جديدة ضمن صفقاته ومعتقدًا أنه لا مناص الفائز في النهاية. ولعله يكون محقًا، ولكن المشاهد هو أنه مرت سنة تقريبًا على هذه الحرب، ومازالت البلبلة والحيرة تشوش عقول الاقتصاديين ويبقى مصير هذه الحرب مجهولاً بالنسبة للكثيرين.

فالمحاولات مازالت يائسة لتحجيم أبعاد هذه الحرب وتداعياتها ما زالت جارية دون جدوى ملموسة. فبعد خلفية مقتضبة نقدمها من خلال هذا المقال توضيحًا للأسباب الرئيسية وراء هذه الحرب، سوف نسعى إلى تدارس وتحليل موقف كل من الدولتين الولايات المتحدة والصين وردود فعل كل منهما آخذين في الاعتبار الظروف والأوضاع التي تتحكم في كل منهما. وأخيرًا، وعلى الرغم من أن ذلك قد يبدو صعبًا، فإننا سوف نجتهد لتحليل الآثار المحتملة لهذه الحرب على الاقتصاد الدولي، وما إذا كنا بصدد فترة كساد قد تفوق تداعيات كساد الثلاثينيات من القرن الماضي أو أن النظام الذي نعمل في إطاره سوف ينقلب رأسًا على عقب، الأمر الذي قد يستغرق سنوات طويلة لإعادة بنائه .

الأسباب الرئيسية وراء الحرب التجارية:

بدأت الولايات المتحدة التمهيد لهذه الحرب عندما تقدمت بطلب للمشاورات مع الصين في أوائل عام 2018 في إطار منظمة التجارة العالمية بحجة أن الأخيرة تقوم بانتهاك حقوق الملكية الفكرية .

بعدها قليلاً وبدون سابق إنذار أو اكتمال المشاورات بين الدولتين في المنظمة، قامت الإدارة الأمريكية بفرض رسوم جمركية إضافية بنسبة 10% على الصين، اعتمادًا على الفصل 301 من قانون التجارة الأمريكي لعام 1974 الصادر من الكونجرس لمنع ممارسات التجارة غير العادلة وسرقة الملكية الفكرية. ولم تهتم الإدارة الأمريكية كثيرًا بأن هذا القانون غير معترف أو معمول به في منظمة التجارة العالمية، ومن ثم الاستناد إليه لا يبرر فرض الإدارة رسومًا جمركية إضافية بل يعتبر انتهاكًا صريحًا لالتزامات الولايات المتحدة في المنظمة. فما يمنحه الكونجرس الأمريكي من حق وسلطة للرئيس الأمريكي لفرض عقوبات أو رسوم جمركية على الدول فرادى، لا يعني ولا يمثل حقًا مكتسبًا للرئيس في إطار منظمة متعددة الأطراف تقوم على توافق الآراء بين دولها وآليات متفق عليها لحسم النزاعات فيما بين الدول الأعضاء بها. فالقانون الذي يستند إليه الرئيس الأمريكي يبقى إجراءً من جانب واحد على شريك تجاري عضو في المنظمة، منتهكًا بذلك القواعد الأساسية لمنظمة التجارة العالمية. فإجراءات الحماية الأحادية في الأصل غير مسموح بها وهي تخرق قواعد النظام التجاري الدولي المعمول به والمتفق عليه بين جميع أطرافه .

ارتكزت إدارة الرئيس ترامب في حربها التجارية ضد الصين على خرق الصين لاتفاقية أوجه حقوق الملكية الفكرية المتصلة بالتجارة في إطار منظمة التجارة العالمية من خلال ما تقوم به من تحايل للحصول على التكنولوجيا الأمريكية. وتدفع الإدارة الأمريكية وبقناعة تامة بأن الصين لا تسمح للشركات الأمريكية بالعمل في الصين أو الدخول في مشاريع مشتركة مع الشركات الصينية إلاّ بعد إجبار الأولى على نقل التكنولوجيا الأمريكية المتقدمة. في حين ترى الصين أن هذا حقها مقابل ما تقدمه لهذه

الشركات من عمالة مدربة ومنخفضة الأجور وسوق كبير يسمح لهذه الشركات بتحقيق أرباح طائلة من جراء العمل في السوق الصيني .

واستبعدت الإدارة الأمريكية تمامًا ما يرجحه الاقتصاديون من إرجاع هذه الحرب إلى العجز المتفاقم في ميزان المدفوعات بين البلدين لغير صالح الولايات المتحدة. وعلى الرغم من أن عجز الميزان التجاري للولايات المتحدة مع الصين، الذي وصل إلى 375 مليار دولار في العام المنصرم، يعتبر مبلغاً ضئيلاً إذا ما قورن بحجم الاقتصاد الأمريكي الإجمالي، والذي يبلغ ما يقرب من 20 تريليون دولار، فإننا نتفق وما يرجحه كبار الاقتصاديين من أن السبب الرئيسي بالفعل هو معاقبة الصين وفرض رسوم إضافية عليها لاستمرارية تعزيز فائضها مع الولايات المتحدة وتفاقمه .

غير أن في ذلك كله تناست الولايات المتحدة أنها أصبحت اقتصادًا خدميًا في الأساس وتشكل الخدمات 83% من اقتصادها الوطني وأنها المصدّر الرئيسي للصين في مجال الخدمات. فإذا كانت صادرات الصين السلعية ستتأثر بموجب رفع التعريفة الجمركية على واردات الصين، فإن الصين تعتبر من كبار مستوردي الخدمات من الولايات المتحدة، فإذا ما اتخذت الصين إجراءات انتقامية وأغلقت سوقها أمام الخدمات الأمريكية، فسوف تتأثر صادرات الولايات المتحدة الخدمية، وتصبح هي الخاسر الأكبر .

مواقف كل من الولايات المتحدة والصين من اندلاع الحرب التجارية:

هذا، وبدأت الحرب التجارية بين الصين والولايات المتحدة تأخذ أبعادًا صارمة منذ الوهلة الأولى. وتعاملت الصين مع الولايات المتحدة على أساس من الندية. وكان واضحًا حينئذ أن الصين على استعداد للذهاب إلى أبعد مدى مع الولايات المتحدة، فهي لم تكتف بمعاملة الولايات المتحدة الند بالند، فيما فرضته من رسوم جمركية مماثلة على وارداتها من الولايات المتحدة، ومعظمها على السلع الزراعية الأمريكية التي تضرب في العُمق الأمريكي ولايات الوسط المؤيدة للرئيس ترامب. ففور فرض الإدارة الأمريكية على الصين رسوما إضافية بموجب الفصل 301 أو بحجة حماية أمنها القومي، لجأت

الأخيرة إلى جهاز فض المنازعات بالمنظمة في 9 أبريل 2018 لمقاضاة الولايات المتحدة على قرارها المخالف لتعهداتها وإلزامها بالتعويض، لما قد ينجم عنه من خسائر على الصين. فاستناد الولايات المتحدة على استثناء تداعيات الأمن القومي (المادة 21 من اتفاقية الجات 1994) لزيادة التعريفة الجمركية غير سليم، لأنه جرى العرف على استخدام حجة الأمن القومي وقت الحروب أو حالات الطوارئ فقط. ومن ثم، فإن تفعيل هذا الاستثناء في ضوء الظروف الراهنة بين الدولتين غير مُبرر.

أضف إلى ذلك، وفي غضون أشهر قليلة وبالتحديد في مؤتمر قمة دول الـBRICS، المنعقد بين رؤساء دول وحكومات كل من البرازيل وروسيا والهند والصين وجنوب أفريقيا في الفترة ما بين 25 و27 يوليو 2018 في جوهانسبرج بجنوب أفريقيا، شن الرئيس الصيني Jinping Xi هجومًا طاحنًا على الولايات المتحدة وتنبأ أن السنوات القادمة سوف تشهد إعادة تشكيل جذري للنظام التجاري الدولي وطالب قادة المجموعة برفض السياسات الأحادية وسياسات الحماية العدائية بين الدول، التي قد تقودها إلى حرب تجارية أكثر شراسة من تلك التي عاشتها الدول في فترة الكساد العالمي .

لا يشك أحدٌ من أن الصين تمثل اليوم خط الدفاع الأول لنظام متعدد الأطراف تشرف عليه منظمة التجارة العالمية والتي تقوم على أسس العولمة وحرية التجارة. ومن المتوقع أن تصبح الصين من أقوى اللاعبين داخل منظمة التجارة العالمية في مواجهة تراجع الولايات المتحدة عن التجارة متعددة الأطراف ورفضها للعولمة، على اعتبار أنها تضر بالمصالح الأمريكية وتقوض تطبيق مبدأ الرئيس الأمريكي: "الولايات المتحدة أولاً". وإن كان الرئيس ترامب لم يضف على نحو ما قام به ملك فرنسا لويس الخامس عشر في القرن الثامن عشر "ومن بعدي الطوفان"، فإن تقييم نصف المدة لسياساته الخارجية والداخلية تبشر بأنه يمضي في هذا الاتجاه. وتفضل الإدارة بموجب توجيهات ترامب التفاوض من خلال أطر ثنائية، لما يعنيه ذلك من نفوذ أكبر وقدرة أفضل للمفاوض الأمريكي على المناورة من موقع قوة وتحقيق صفقات أفضل لخدمة المصالح الأمريكية.

وعلى الرغم من البداية الحسنة بين الرئيسيين الأمريكي والصيني عند تولي ترامب الرئاسة، وهو ما أفرج أسارير العالم اعتقادًا من أن العملاقين سوف يتعاونان للنهوض بالاقتصاد العالمي، فإن العلاقات ما لبثت أن تدهورت بشكل كبير خلال العام الماضي، لما تعتبره الإدارة الأمريكية من تقاعس الصين في الاستجابة لمطالب الولايات المتحدة، الأمر الذي دعاها إلى زيادة التعريفة الجمركية بشكل منفرد. كما تعيب الولايات المتحدة على الصين سياسات القمع التي تتبعها إزاء الشركات الأمريكية وإلزامها بنقل التكنولوجيا المتطورة إذا ما أرادت الاستثمار في الصين، وهو ما تعتبره الإدارة الأمريكية سرقة للتكنولوجيا الأمريكية وانتهاكًا لحقوق الملكية الفكرية، على نحو ما سبق أن أوضحناه.

بيْد أن أحدًا لا ينكر أن لدى الولايات المتحدة مشكلة، ولكن هذه المشكلة ليست مع الصين، كما أنها لم تكن منذ عقود مضت مع اليابان أو ما بعدها مع ألمانيا عندما غزت سلع ومنتجات هاتين الدولتين في ستينيات وسبعينيات القرن الماضي السوق الأمريكي وارتفع عجز ميزان المدفوعات الأمريكي معهما إلى ذروته. إن المشكلة تكمن داخل الولايات المتحدة نفسها، فهي دولة مستهلكة وتنفق ببذخ. كما أن الشعب الأمريكي لا يعرف الادخار، فهو يعيش على مستوى فوق طاقته. فمشكلة الولايات المتحدة هي أنها تتباهى بطريقة عيشها وتلزم العالم على سداد ديونها. وتحجيم أو احتواء الصين اقتصاديًا غير ممكن، كما أنه لن يحل المشاكل الأمريكية بالداخل .

وعلى الإدارة الأمريكية أن توقن، خاصة قياسًا بتجاربها السابقة، أن الإجراءات المنفردة لا تعدو أن تكون قرارات مؤقتة، سوف تضطر إلى التراجع عنها إن عاجلاً أم آجلاً. فقد سبق أن فشلت محاولة الرئيس نيكسون في أوائل السبعينيات في فرض تعريفة جمركية بشكل منفرد على واردات شركائه من أوربا واليابان تبلغ 10% واضطراره إلى التراجع عنها تحت ضغوط أوروبية ويابانية. كما حاول الرئيس جورج بوش الابن في عام 2002 مرة أخرى فرض تعريفة جمركية على واردات الولايات المتحدة من الصلب واضطر إلى سحبها في غضون سنة واحدة، لما قامت به من رفع أسعار الصلب داخل الولايات المتحدة بنسبة 3%، بما أضر بالصناعة الأمريكية وأفقدها في النهاية نحو 200

ألف وظيفة، وهو ما يحذّر منه رجال الاقتصاد على اعتبار أن فرض التعريفة الجمركية على الواردات من الصين سيعود بالضرر أساسًا على الصناعة والمستهلك الأمريكي .

ويتعين على الولايات المتحدة أن تقر بحاجتها إلى الإصلاحات الاقتصادية الهيكلية في الداخل، أسوة بما فعلته الصين قبل أربعة عقود. فبدلاً من استمرار إلقاء لوم عجزها التجاري الضخم على الممارسات التجارية التي يفترض أنها غير عادلة في الدول الأخرى، ينبغي على الولايات المتحدة أن تعيد النظر في سياساتها الاقتصادية وتدهور قدرتها الصناعية، وتراجع الاستثمار في البنية التحتية والتعليم والتدريب.

المهادنة أفضل من التصعيد

نلاحظ اليوم تراجعًا واضحًا في مواقف الصين ومرونة أكبر في الموقف الأمريكي. فبينما تعيد الصين حساباتها بالنسبة لمواجهة الولايات المتحدة، تتحرك الولايات المتحدة نحو التفاوض وتفضيل إبرام اتفاق ثنائي خارج نطاق النظام التجاري متعدد الأطراف. وظهر تراجع الصين جليًا في إعلان قمة مجموعة العشرين في أول ديسمبر عندما ارتضت الإصلاح وفقًا للمعايير الأمريكية بعيدًا كل البعد عمّا طالب به الرئيس الصيني قبيل شهور قليلة في يوليو 2018 في قمة الـBRICS ورفضه للسياسات الأحادية وإدانة إجراءات الحماية المنفردة. كما توصل الرئيسان الأمريكي والصيني إلى اتفاق هدنة لمدة ثلاثة أشهر ينتهي في مارس 2019 لإعطاء فرصة للمفاوضات الثنائية .

فالرئيس الصيني بعدما كان يدافع عن النظام التجاري القائم، أصبح على أتم استعداد بأن يتوصل إلى حل ثنائي مع الولايات المتحدة حتى لو كان هذا الحل خارج نطاق منظمة التجارة العالمية، في محاولة منه لتهدئة الوضع. وأوضح البيت الأبيض أنه إذا لم يتم التوصل لاتفاق في غضون 90 يومًا مع الصين بشأن قضايا تجارية من بينها نقل التكنولوجيا والملكية الفكرية والحواجز غير الجمركية والسرقة الإلكترونية والزراعة سيتم رفع التعريفات الجمركية تلقائيا من 10% إلى 25%

وأيقنت الصين أن إغضاب الإدارة الأمريكية لن يحقق مصلحة أي من الطرفين. فعلى الرغم من صمود الصين أمام الولايات المتحدة، فإن لديها مخاوفها المشروعة إزاء تصرفات الإدارة الأمريكية. وتشعر الصين أنها المستهدف الأول من سياسات الرئيس الأمريكي وتعلم جيدًا أنها في موقف لا تحسد عليه. فالسوق الأمريكي هو السوق الرئيسي للصادرات الصينية، فضلاً عن أن الصين تمتلك أكثر من 3,5 تريليون دولار كاحتياطي عملة صعبة في خزائنها. وأن إغضاب الإدارة الأمريكية ليس في مصلحة الصين في النهاية. كما أن الصين تعلم جيدًا أنها لا تخلو من خطأ فيما تنتهجه من سياسات دعم مستتر وغير مشروع لصناعاتها، وهو إجراء تحظره منظمة التجارة العالمية، لما تعتبره منافسة غير شريفة وإغراق الأسواق الدولية بمنتجات مدعمة منخفضة السعر.

وعلى صعيد آخر، لم يكن هناك أي بوادر تدل على احتمال تراجع الرئيس الأمريكي عن استمرار ممارسة الضغط على الصين حتى ترضخ، خاصة وأنه على قناعة تامة بأن الصين تقوم بممارسات تجارية غير عادلة، ويؤمن بأن ما يقوم به من إجراءات للضغط على الصين هو أمر ضروري لإعادة التوازن بين الولايات المتحدة والصين. وبدا جليًا أن محاولة الصين معاملة الولايات المتحدة الند بالند لم تحقق المرجو منها، خصوصًا أن الولايات المتحدة كانت على أتم استعداد للتصعيد مرة أخرى وتطبيق زيادة جديدة في التعريفات الجمركية تصل إلى 25% اعتبارًا من أول يناير 2019 على 200 مليار دولار منتجات صينية واردة للسوق الأمريكي. ويبدو أن الرئيس الصيني أبدى استعداده لتقديم تنازلات حيال بعض الموضوعات العالقة مقابل وعود ترامب بتجميد التعريفات الجديدة، حيث تأتي قائمة الطلبات الأمريكية على النحو التالي:

أ- معالجة التعريفات الجمركية والحواجز غير الجمركية.

ب-معالجة قضية الملكية الفكرية والشكاوى المتعلقة بالنقل القسري للتكنولوجيا.

ج- شراء المزيد من المنتجات أمريكية الصنع، بما في ذلك السلع الزراعية والصناعية، كوسيلة للحد من العجز التجاري الثنائي بين الولايات المتحدة والصين.

د- تخفيض الرسوم الجمركية على واردات السيارات الأمريكية، والتي كانت الصين رفعتها ردًا على الولايات المتحدة الأمريكية، حيث إن التعريفات الجمركية الصينية على واردات السيارات الأمريكية تبلغ حاليا 40٪ مقارنة بـ 15٪ فقط بالنسبة لوارداتها من الدول الأخرى.

الآثار المحتملة لهذه الحرب على الاقتصاد الدولي ولا مناص من البدء في إصلاح منظمة التجارة العالمية

فيما يخص الهدنة التجارية بين الرئيس الأمريكي والرئيس الصيني في أعقاب قمة مجموعة العشرين في ديسمبر 2018 في الأرجنتين، فمن المتصور أن هذه خطوة إيجابية، إلاّ أنه ليس متوقعًا أن تكون مؤثرة بالشكل الكافي. فإن هناك احتمالاً قائمًا بألاّ يتوصل الطرفان إلى اتفاق خلال الفترة المحددة 90 يومًا وعندئذ تكون كل البدائل مطروحة للبلدين. أمّا إذا توصل الطرفان إلى اتفاق، فإن تأثيره على منظمة التجارة العالمية سيظل محدودًا، حيث إنه يتم في إطار ثنائي وبمعزل عنها. فمن المتخيل أن يحقق مثل هذا الاتفاق بعض الهدوء المؤقت في النظام الاقتصادي الدولي، غير أنه لن يكون حاسمًا، بل إنه قد يعطي فرصة أكبر للإدارة الأمريكية لفرض قبضتها على النظام الدولي تارة بالتهديد وتارة بالمراوغة وفقًا لمبدأ العصا والجزرة.

ويتبادر إلى الذهن في ظل هذا التوتر بين العملاقين التجاريين السؤال عمّا إذا كانت مستجدات التجارة الدولية ستعصف بالنظام الاقتصادي الدولي وإضعاف منظمة التجارة العالمية حامية النظام. فإن منظمة التجارة العالمية، التي كانت أحد أهم إنجازات القرن الماضي، تواجه العديد من التحديات والتي ترجع أساسًا إلى مخاوف الولايات المتحدة من الصين سواء كانت هذه حقيقية أم احتمال، بما تشكله من تهديد صريح لدور

الولايات المتحدة الريادي في المجتمع الدولي. فإن الاعتقاد السائد اليوم هو أن النزاع التجاري بين عملاقي التجارة قد يؤدي إلى انهيار دور ومصداقية منظمة التجارة العالمية وبالتالي النظام التجاري مُتعدد الأطراف ككل، بيْد أنه ليس هناك بديل للنظام متعدد الأطراف ولا بديل من تعافيه وإصلاحه. فلا مناص من البدء في إصلاح منظمة التجارة العالمية وإعادة مصداقيتها، بما يجعلها قادرة من جديد على الإشراف العادل على النظام التجاري متعدد الأطراف وحمايته .

ولنا أن نتذكر أن سياسة إضعاف النظام متعدد الأطراف وتفريغه من مضمونه بدأت من قبل وصول الرئيس ترامب إلى الحكم. فإدارة أوباما السابقة بدأت في إضعاف النظام التجاري متعدد الأطراف من خلال شروعها في إبرام اتفاقيات تجارة حرة خارج نطاق المنظمة، بحجة أنها تلقى مقاومة شديدة لمطالبها داخل المنظمة، لا سيما من الدول النامية مثل الهند والبرازيل. وجاءت إدارة ترامب لتؤكد على مزيد من تباعد الولايات المتحدة عن النظام الذي قامت بتأسيسه في أعقاب الحرب العالمية الثانية وإلزام العالم بقواعده. وتُجدر الإشارة إلى أن جهود إدارة ترامب لتقويض منظمة التجارة العالمية من خلال منع تعيين القضاة في محكمة الاستئناف الفريدة من نوعها والتابعة لآلية فض المنازعات بالمنظمة، التي تعالج النزاعات التجارية، يمكن أن تتوج بأزمة خطيرة إذا فشلت جهود إصلاح الهيئة. كما سبق أن هدد ترامب بسحب الولايات المتحدة من جانب واحد من منظمة التجارة العالمية. ومع ذلك، فحتى إذا لم يحدث انهيار كامل، فإن استمرار تآكل قواعد منظمة التجارة العالمية سيقوض الرغبة عامة وبين مختلف الدول في الحفاظ على نظام تجاري قائم على القواعد. وإذا لم تَشرع الدول الأعضاء في الحفاظ على منظمة التجارة العالمية والنظام متعدد الأطراف، فإن الولايات المتحدة قادرة على تخريبها لعدم انصياعها للمطالب الأمريكية.

تخشى مصر مثلها في ذلك مثل كثير من الدول النامية والمتقدمة على حد سواء انهيار النظام التجاري متعدد الأطراف إثر الإجراءات المنفردة التي يتخذها الرئيس الأمريكي والانتقادات الصريحة الموجهة من الإدارة الأمريكية إلى المؤسسات والاتفاقيات

متعددة الأطراف على أساس أنه عفا عليها الزمن والدعوة إلى إعلاء السيادة الوطنية. ومصر على قناعة تامة بضرورة احترام الدول كبيرها قبل صغيرها قواعد هذا النظام، الذي ارتضته الدول وتفاوضت عليه. وإن توجهها العام هو الحفاظ على النظام القائم وحمايته من حرب تجارية وأن يتم حسم النزاعات بين الدولتين عن طريق اللجوء إلى آلية فض المنازعات بمنظمة التجارة العالمية بعيدًا عن تبادل الإجراءات العقابية، التي قد تعود بالضرر على الدول النامية والصغيرة قبل المساس بعمالقة التجارة. كما يجب تفادي اللجوء إلى الصفقات الثنائية كتسوية للنزاعات بكل حسم وقوة، فهي ولا شك سوف تعمل على ترجيح طرف على آخر، الأمر الذي يقلل من شأنها ويضعف من احتمالات دوامها.

وعلى الرغم من التوتر القائم بين عملاقي التجارة والتصدع في النظام التجاري الدولي، الذي يستدعي إعادة الهيكلة، فمن غير المرجح الانزلاق إلى الهوية، طالما أن الولايات المتحدة وصانعي السياسة بها مدركون وقابلون "الوضع الطبيعي الجديد" للصين، التي تمتلك أكبر ناتج محلي إجمالي في العالم (من حيث تعادل القوة الشرائية). ومثلما كانت الولايات المتحدة هي أكبر اقتصاد في القرن العشرين، فقد تصبح الصين أكبر اقتصاد في القرن الحادي والعشرين، مع بقاء الولايات المتحدة بالطبع قوة اقتصادية عظمى يعتد بها، بما يؤدي تدريجيًا إلى التحول السلمي للنظام من نظام القطب الواحد إلى نظام متعدد الأقطاب قد يتسع ليضم إلى جانب الصين أوربا وروسيا الاتحادية في فترة لاحقة.

الإنسحاب الأمريكي من سوريا

- دلالات وتداعيات الانسحاب الأمريكي من سوريا اقليميا ودوليا — غـــازي دحمـــــان
- الكاسب والخاسر من الانسحاب الأمريكي من سوريا — عصـــام عاشـــور

قرار
الانسحاب الأمريكي من سوريا وتداعياته

غـــازي دحمـــان

باحث سوري - سوريا

مقدمة

أعلن رئيس الولايات المتحدة الأمريكية، دونالد ترامب، في 2018/12/20، قرار انسحاب القوات الأمريكية من شرق سورية، بعد ما وصفه " بإتمام النصر على داعش"، وقد أثار هذا القرار جدلاً واسعا داخل أميركا وخارجها، وتمثلت ردود الفعل، على قرار ترامب، بالاستقالة الفورية لكل من وزير الدفاع جيمس ماتيس والمبعوث الخاص الأمريكي للتحالف الدولي ضد "داعش" بريت ماكغورك.

ويعد هذا الإعلان نقطة تحول نوعية في سياق المشهد السوري ومعادلاته العسكرية والسياسية؛ وستشكل تداعياته المحتملة والمفتوحة رسمًا أوليًا لطبيعة الأدوار المحلية والإقليمية والدولية وحدودها، وبغض النظر عن أن القرار ارتجالي أو مخطط له، فإنه سيكون تحت الاختبار وسيترتب عليه إعادة تموضع لكل القوى المنخرطة في سورية.

أهمية منطقة شرق سورية

تشكل المنطقة التي تقع تحت سيطرة القوات الأمريكية، أو حمايتها، وفق الخطاب الأمريكي، حوالي ربع مساحة سوريا، لكنها تحوي معظم ثروتها من النفط والغاز، كما أنها منطقة مجاورة لتركيا والعراق.

وقد جعلت هذه الميزات للمنطقة، محط تصارع قوي بين القوى الموجودة في سوريا، وخاصة بين طرف النظام السوري وحلفائه " روسيا وإيران" من جهة، وبين تركيا من جهة أخرى، على الرغم من أن الأطراف الثلاثة: روسيا وإيران وتركيا، تشارك في محادثات حول سوريا. فالنظام السوري وحلفاؤه يعدونها منطقة استراتيجية لما فيها من ثروات، كما أنها بالنسبة إلى إيران منطقة أمان وحماية للطريق البري من طهران لدمشق مرورًا ببغداد، ولروسيا أيضًا، للتأكيد على أنها الجهة الفاعلة الأقوى، ومن يحدد الأدوار والمساحات للقوى الأخرى. أما بالنسبة إلى تركيا فهي قضية أمن قومي كما تعدّها، وساحة لمحاربة لتنظيمات إرهابية مثلها مثل "داعش."

ضمن هذه الخريطة من تشابك الصراعات في سوريا، جاء قرار ترامب سحب القوات الأميركية، ليزيد نسبة الإرباك والتوتر في المشهد السوري.

المشاكل التي ينطوي عليها القرار

يعكس هذا القرار تغيّرًا في الاستراتيجية الأمريكية، وهو دليل على الفوضى الخطيرة داخل الإدارة الأميركية، حيث يعارضه كثيرون وعلى جميع المستويات من أركانها، لكنه بالتأكيد يضيف تعقيدًا جديدًا على الوضع في سوريا، وهو الوضع غير المستقر أساسًا، ويشير إلى أن مدة التصارع طويلة في المنطقة، إن لم يكن نذيرًا بانطلاق شرارة صراع أكبر.

في عام 2018، بدأ المسؤولون الأمريكيون في إعادة صياغة الأهداف الأمريكية في سورية، وبالإضافة إلى هزيمة داعش نهائيًا، وضع الأمريكيون أهدافًا جديدة، أهمها: احتواء الوجود الإيراني وطرده من سورية في نهاية الأمر، بالإضافة إلى التوصل لتسوية سياسية في نهاية الأمر، وكان وزير الخارجية الأمريكية السابق ريكس تيلرسون قد حدّد ركائز هذه الاستراتيجية في خطاب ألقاه في جامعة ستانفورد منتصف يناير/ كانون الثاني 2018، وفي صيف 2018 تولى السفير جيمس جيفري، الذي تم تعيينه لقيادة الاستراتيجية الأمريكية لإعطائها دورًا أكثر فعالية، حيث أكد للحلفاء الغربيين والشرق

أوسطيين أن الولايات المتحدة الأمريكية ستحافظ على وجودها في سورية وإحياء الجهود الأمريكية لتحقيق انتقال سياسي في سورية .

والغريب أن التيارات المختلفة في الإدارة الأمريكية، وخاصة في البنتاغون والخارجية والبيت الأبيض كانت متفقة على ضرورة بقاء طويل الأمد في شمال سورية قبل أن يفاجئها ترامب بقرار الانسحاب، وهذا القرار إضعاف لمصداقية أميركا تجاه حلفائها وشركائها في المنطقة .

مشاكل إدارية

توضح طريقة إعلان ترامب الانسحاب من سورية وجود فجوة واسعة بين رئيس يريد انتزاع بلاده من الحروب الخارجية والبيروقراطية الأمنية الوطنية المكلفة إدارة هذه الحروب، فقد اتخذ ترامب قراره بعد مكالمة مع أردوغان وجاء على شكل تغريدة على تويتر دون أن يسبق ذلك مداولات على المستوى الوطني ولا تبادل للآراء مع الحلفاء والشركاء. ولا إبلاغ الناتو، بعد أن كانت كل من فرنسا وبريطانيا قد نشرتا جنودهما في سورية واعتمدوا على الخدمات اللوجستية والمخابرات الأمريكية والمراقبة والاستطلاع للقيام بعملياتهم الخاصة .

وحاول المسؤولون الأمريكيون إدارة تداعيات قرار ترامب بتأجيل مدة الانسحاب ووضعوا الشروط المتعلقة بإيران، وإعادة طرح أفكار قديمة مثل منطقة آمنة تفرضها تركيا أو نشر قوات عربية.

صعوبات لوجستية

تعتبر إعادة الجنود الأمريكيين أمرًا ليس بالبساطة التي تصورها ترامب، فالانسحاب من وجهة نظر خبراء البنتاغون يمثل كابوسًا لوجيستيًّا. إذ يتعيَّن على الجيش الأمريكي تفكيك وشحن عددٍ من القواعد العسكرية، وسيارات الهامفي، ومكيفات الهواء، وأكشاك الوجبات السريعة. ويجب شحن كل الأسلحة والذخائر، أو منحها للحلفاء، أو تدميرها،

لضمان عدم وقوعها في أيدي الأعداء. وفي حالة سوريا، سيتعيَّن على القوات الأمريكية أن تُغادر عبر أراضٍ محظورةٍ وسط منطقة حربٍ نشطةٍ، دون وجود ميناءٍ قريب. وحتى لو انسحبت القوات الأمريكية، فهي على الأرجح ستضطر للعودة سريعًا. فما يحدث داخل منطقة الشرق الأوسط سرعان ما يُؤثِّر في المصالح والقِيَم الأمريكية، وسط عالمٍ تسوده العولمة، وهو ما اضطر الرؤساء الأمريكيين السابقين للتدخل في صراعات المنطقة؛ لحماية الأمن والمصالح الأمريكية رغم نفورهم من ذلك.

إعادة تقييم

اضطر رئيس الإدارة الأمريكية دونالد ترامب، إلى التخفيف من حدّة قراره، بعد الحملة الداخلية عليه وخاصة في مجلس الشيوخ حيث تلاقت مواقف الجمهوريين والديمقراطيين على إدانة الخطوة واعتبارها ضارة بالأمن القومي للولايات المتحدة ومصالحها، فكانت أولى نذر التلويح بإعادة تقييم الموقف أو تطمين الحلفاء بالخارج، أو تهدئة ردّات الفعل في الداخل، أن غرد ترامب بأنه "أبلغ الرئيس التركي أن الانسحاب سيكون بطيئًا ومنسّقًا مع تركيا"، ثم جاءت الخطوة الأهم وذات الدلالة، وهي أن ترامب لم يتمكن بعد من حسم الصراع مع مرتكزات الدولة العميقة، حيث أكد السيناتور ليندسي غراهام بعد اجتماعه مع الرئيس لمدة ساعتين على ثلاث نقاط 1"- القضاء الكامل على داعش 2- عدم السماح لإيران بملء الفراغ الذي سيحدثه الانسحاب الأميركي 3- حماية الحلفاء الأكراد"، بل ذهب غراهام إلى أبعد من ذلك حيث أفاد بأن ترامب قال له "أشياء لم يكن يعرفها، جعلته يشعر بشكل أفضل لما تتجه إليه الأمور في سورية"، وقد أثارت تصريحات غراهام تساؤلات حول طبيعة ما قاله ترمب له وجعله يوقف حملته ضد قرار ترمب، واعتقد بعض المراقبين أنه قد تكون هناك تفاهمات مع بعض أطراف الصراع لم تظهر للعلن بعد على إخراج إيران من سورية، أو أن إيران قطعت وعودًا بالانسحاب، ذلك أنه من شبه المستحيل أن يتم التوصل إلى تسويات في سورية مع هذا العدد من

الدول المتدخلة والتي لا تتطابق في أهدافها، ولا بد من أن تخرج أغلب هذه الأطراف بالتدريج من معادلات الصراع، حتى يمكن عقد صفقة مع طرف أو اثنين.

ماهي أهداف قرار ترامب؟.

لم يكن خافيًا أن قرار الانسحاب مع سورية يأتي في سياق استراتيجية ترامب القاضية بإخراج أميركا من حروب ونزاعات العالم التي يرى أنها تكلف أميركا كثيرًا بدون وجود عوائد حقيقية لانخراطها في هذه النزاعات، والتي غالبًا ما تذهب ثمارها لأطراف أخرى ومعادية لأميركا بنفس الوقت.

غير أن ترامب، سواء قصد ذلك أم لم يقصده، أوجد ديناميكيات جديدة للصراع في سورية وعليها، ذلك أن قراره غذى طموحات وقلق الجهات الفاعلة المحلية والإقليمية التي تتنافس على الشكل المستقبلي لسورية، فقد وضع قرار ترمب روسيا في مواجهة مباشرة مع كافة أطراف الصراع في سوريا، حلفاء كانوا أم خصوما، وبعد "اتفاق إدلب" أصبح الثنائي الروسي – التركي أمام 3 تحديات: حل مشكلات الشمال–الغربي السوري، وهي متنوعة ومتشابكة، محليًا وإقليميًا، المسؤولية المباشرة عن التأزم القديم–الجديد في العلاقات التركية الكردية، بخاصة مسألة المنطقة الآمنة، التي تريدها تركيا ويرفضها النظام السوري والأكراد في آن، وأخيرًا مشكلات ما بعد الحرب، من قضية النازحين واللاجئين إلى الإعمار، وفوق ذلك، سيكون على روسيا التعامل مع "العقدة الإيرانية" في امتداداتها السورية والإسرائيلية وجها لوجه، من دون أي وجود "للفزاعة الأمريكية" التي تتذرع إيران كي تحافظ على وجودها العسكري في سوريا.

ولكن ماذا عن خسارة أميركا لتأثيراتها في سورية نتيجة غياب حضورها العسكري، وهو الأمر الذي نبه منه خبراء الاستراتيجية الأمريكية، بقولهم إن وزن التأثير الأمريكي سيصبح صفرًا في أي مفاوضات قادمة حول سورية في حال انسحابها العسكري.

ويبدو أن الإدارة الأمريكية تنبهت لهذا الأمر، وفصلت بين انسحاب عسكري وانسحاب سياسي من الملف السوري، هذا الملف الذي لا تزال تمتلك أميركا فيه أدوات

نوعية كأوراق للضغط، فضلاً عن ملف إعادة الإعمار التي تشترك فيه مع العديد من الفواعل برؤية موحدة، وقد حركت المؤسسات الأمريكية مؤخرًا قانون" قيصر" الذي يتبنى عقوبات اقتصادية ضد كل مؤسسة أو شركة أو دولة تساهم في مشروع إعادة الإعمار في سورية.

مواقف ومواقع اللاعبين من قرار الانسحاب

- **تركيا**

أربك القرار المفاجئ بالانسحاب تركيا وخططها إلى الدرجة التي دفعت الرئيس التركي رجب أردوغان أن يطلب من ترامب التريث في تنفيذه، وكأن ما تداولته وسائل الإعلام عما قاله ترامب لأردوغان بأن "شرق الفرات كله لك، وأن كل شيء انتهى"، تحمل في طياتها –إن صحّت– احتمالين متناقضين يستدعيان التريث الذي قرره الرئيس التركي، أولهما أن يكون الرئيس الأميركي قد أعطى تركيا غطاءً لتملأ الفراغ الذي ستخلفه القوات المنسحبة، وذلك لتخفيف التوتر الذي شاب العلاقات الأميركية التركية والعلاقة مع حلفاء تركيا الأطلسيين، ، كما يعزز هذا الاحتمال قرار ترامب بيع تركيا منظومة صواريخ باتريوت بديلًا عن صفقة S400، التي تتفاوض حولها تركيا مع الروس، إضافة إلى الإفراج عن صفقة طائرات F35 .

والاحتمال الثاني، وهو احتمال ضعيف، أن يكون ترامب قد عنى بكلامه أننا سننسحب، وإذا أردت الدخول شرق الفرات اعتمادًا على قواك الذاتية أو تفاهماتك مع الروس، فيمكنك فعل ذلك، وهذا نوع من التوريط تخشاه تركيا.

المهم أن كلا الاحتمالين يتطلب تريثًا ومفاوضات قد تكون قاسية مع الروس.

غير أن الوقائع تثبت أن تركيا والولايات المتحدة الأمريكية أصبحتا منذ مدة طويلة متنافرتين جيوسياسيًا، وقد أطلق القرار الأمريكي بالانسحاب من سوريا، سباقًا من أجل السيطرة على شمال شرق سوريا، حيث تهدف تركيا إلى الحد من المكاسب الإقليمية

وإضعاف الهيكل الإداري لقوات سوريا الديمقراطية الكُردية. وهي استراتيجية تصطدم بالأهداف التي حددتها أميركا بشأن انسحابها: مواصلة القتال ضد تنظيم الدولة (داعش) وحماية الحلفاء الأكراد والتصدي للنفوذ الإيراني في سوريا.

إن عدم الاتساق الاستراتيجي والجيوسياسي كانا الخصائص المهيمنة على العلاقات الأمريكية– التركية في سوريا منذ البداية، من حيث الرؤية والأهداف، كما أن تصورهما للتهديدات مختلف، وقد تطوّر الانفصال الاستراتيجي وعدم التوافق الجيوسياسي بين البلدين قد تطور منذ فترة، إذ تقوم تركيا منذ عدة سنوات بتشكيل تحالفات مرنة مع روسيا وإيران. ومع ذلك كانت الولايات المتحدة دائمًا شريكًا ثالثًا غير مرئي، يقوم بتحديد طبيعة ونوعية الاتصالات بين الروس والأتراك، وبنفس الطريقة، فإنه من المرجح، أن تكون موسكو من الآن فصاعدًا الشريك الثالث غير المرئي الذي يحدّ من أي تفاعل أمريكي– تركي حول سوريا .

- **إيران**

تعاملت بحذر مع القرار الأميركي، وعززت مواقعها غرب الفرات استعدادًا لما قد يتركه الانسحاب من تداعيات تطالها، وليس أدل على قلقها ما بدر من ردّات فعل الميليشيات العراقية التي تتبعها بالعراق كـ (النجباء) أو (حزب الله) العراقي، وتهديدها باستهداف القوات الأميركية احتجاجًا على زيارة ترامب المفاجئة إلى قاعدة (عين الأسد) ليلة رأس السنة الجديدة، واعتبارها انتهاكًا للسيادة العراقية، لأن ترامب أكد منها أنه "لا توجد لدى الولايات المتحدة خطط للانسحاب من العراق"، وأضاف "أن العراق سيشكل قاعدة لنا، إذا أردنا القيام بشيء ما في سورية."

وتُعَدُّ إيران من أكبر المستفيدين بوصفها الحليف الدولي الأكثر استثمارًا في سوريا والأكثر عرضةً للخطر. ففي خلال الحرب، ثبَّتت إيران أقدامها في سوريا وأعادت رسم خريطة الشرق الأوسط الاستراتيجية. وأرسلت آلاف القوات الشيعية التي حاربت على الأرض، ونشرت الطائرات بدون طيار والأسلحة الدقيقة للإبقاء على الأسد في السلطة.

وأمدها ذلك بجسرٍ أرضيٍ يمر عبر سوريا لتُزوِّد حركة "حزب الله" بالأسلحة، ودرَّبت إيران المقاتلين الشيعة، في حين عزَّزت علاقاتها بحلفائها في العراق ولبنان أملًا في بناء جبهة قوية في حال وقوع حربٍ مع إسرائيل.

سيكون لتكتيك" تقويض إيران" كقاسم مشترك جديد، بين أطراف اللعبة في سورية، دور "ناجع" في اختبار مدى اتساق القرار مع الركائز الاستراتيجية لتعاطي الولايات المتحدة الأمريكية في المنطقة؛ وبالتالي قد يشكل ذلك قاسمًا مشتركًا لكل الفواعل ومدخلاً مهمًا في ملء الفراغ؛ إلا أنه لا يغفل حقيقة عدم إدراك أميركا للتموضع الإيراني النوعي في بنية النظام السوري وشبكاته الأمنية والسياسية والاقتصادية وخبرتها في ملء الفراغ سواء عبر تحالفاتها مع مجموعات محلية أو من خلال تعميق مجالات التأثير على نظام الأسد أو من خلال استثمار انتشارها على طرق الإمداد والمواصلات والبادية فضلاً عن قواعدها وثكناتها المنتشرة في معظم المحافظات والتي تقدر بـ (13) قاعدة وثكنة.

- **روسيا**

حاولت روسيا أن تخفف من وقع الصدمة عبر التشكيك بجدية الجانب الأميركي بالانسحاب، فقد نُسب إلى بوتين قوله: "منذ سبعة عشر عامًا وهم يقولون إنهم سوف ينسحبون من أفغانستان، لكنهم ما زالوا موجودين هناك حتى الآن"، لكنها بالمقابل تتصرف بما يخفف من تداعيات الانسحاب، أو تريد الإيحاء بذلك .

لقد وجدت روسيا نفسها بموقف مفاجئ من هذا القرار، فهي كانت تريده أن يكون نتيجة لمفاوضات مع الجانب الأمريكي يمكنها من نيل مكاسب سياسية في ساحات متعددة، لكنه أتى دون أي صفقة كما ترغبها روسيا، بل سيزيد هذا الانسحاب أعباء روسيا إذ سيكون لزامًا عليها التعامل مع التمدد الإيراني ومحاولة احتوائه بحكم الضرورات التي تمليها الترتيبات الناشئة، كما أنه سيجعل تحديات ثلاثي الأستانة عابرة للموجبات الأمنية

لكن لا شك أنَّ الانسحاب الأمريكي في المحصلة النهائية أمر مفيد للاستراتيجية، التي استفادت استفادةً كبيرة من استثمارها لمحدود داخل سوريا. لقد أعاد الروس تأسيس أنفسهم باعتبارهم لاعبًا دوليًّا في وقتٍ ظن فيه البعض أنَّ عصر مجد الاتحاد السوفييتي قد ولَّى.

ويسهم انسحاب الولايات المتحدة في توسيع نطاق النفوذ الروسي. وقد تجنبت روسيا حتى الآن الكشف عن أي خططٍ واضحة. لكن بالنظر إلى تصريحاتها بشأن الأمر حتى الآن، ووفقًا لسلوكها السابق داخل المنطقة، فالمرجح أن تحاول روسيا التلاعب بالأتراك والأكراد سعيًا لتحقيق هدفها الأساسي، وهو عودة نظام الأسد للسيطرة على سوريا بالكامل، بما في ذلك شمال شرق البلاد. ويتطلَّب ذلك الأمر أن تُوازن روسيا بين مصلحتها في توطيد علاقاتها مع تركيا وبين دعم حليفها في دمشق.

- **إسرائيل**

تعهدت "إسرائيل" منذ فترة طويلة ألا تدع إيران تؤسس قاعدة أمامية في سوريا، حيث يمكن أن تشن من خلالها هجومًا عليها، ووفقًا لذلك فإن الانسحاب الأمريكي يعني أن "إسرائيل" قد تفقد أقوى حائط صد للقوات الإيرانية ووكلائها في المنطقة.

وتبرز هنا مسألة قاعدة التنف، التي يعتبرها الخبراء الإسرائيليون أهم الأدوات في محاربة التمدد الإيراني في سورية، وتؤكد المؤشرات الأولية ازدياد تواتر الحديث عن مستقبل القاعدة الأمريكية في التنف؛ إذ تدفع واشنطن قوات المعارضة المتواجدة هناك (مغاوير الثورة وأسود الشرقية وبعض المجموعات الصغيرة) لتبني خيار الانسحاب نحو الشمال السوري؛ وبذات الوقت أنشأ الجيش الأمريكي قاعدتين عسكريتين جديدتين في محافظة الأنبار العراقية: الأولى شمالي ناحية الرمانة والثانية إلى الشرق من مدينة الرطبة غربي الرمادي، في نقطة التقاء طرق رئيسية قادمة من ثلاثة معابر حدودية؛ هي عرعر مع السعودية، وطريبيل مع الأردن، والوليد مع سورية؛ وذلك في إشارة واضحة لعدم نفاذ داعش من جهة والاستمرار في استهداف المشروع الإيراني من جهة ثانية.

وتعتبر التنف، إحدى العقبات الأساسية التي تقف أمام انسحاب القوات الأمريكية من سوريا، حيث يسعى بعض المسؤولين الإسرائيليين لإقناع الولايات المتحدة بالبقاء لقطع خطوط الإمداد الإيرانية القادمة إلى "حزب الله" في لبنان.

ورأى (آرون شتاين)، مدير "برنامج الشرق الأوسط" في "معهد أبحاث السياسية الخارجية الإسرائيلية" أن "الأمر برمته يعتمد على ترامب.. أمر القوات العسكرية بمغادرة سوريا. مع وجود جهود للتراجع عن القرار ومعاملة التنف كقضية منفصلة عن الشمال الشرقي، إلا أنه من غير الواضح ما إذا كان الرئيس مقتنعًا بذلك."

ولكن يبقى من غير الواضح، كيف يمكن للولايات المتحدة الحفاظ على وجود صغير نسبيًا، لا يزيد عن بضع مئات من الجنود في التنف، وسط بيئة غير آمنة وخطرة إلى أبعد الحدود.

- **الأكراد**

يجد الأكراد، بتنظيماتهم العسكرية وقواهم السياسية، أكثر الفواعل تضررًا من الانسحاب الأمريكي بحكم الانكشاف الاستراتيجي الذي سيخلفه خروج القوات الأمريكية؛ مما سيجعلهم منفتحين على كل المفاوضات المحتملة سواء مع النظام والروس أو مع المعارضة وتركيا، وذلك ريثما يتضح التجلي العملي للقرار؛ وهذا لا ينفي أنهم سيقومون بإعادة تموضع عسكري وإداري تقلل من خسائرهم المحتملة.

خاتمة

على الرغم من أن قرار الانسحاب الأمريكي من سورية سيشكل عاملاً دافعًا لتنافسية القوى الفاعلة على ملء الفراغ الناجم واشتراكهم بقاسم مشترك يتمثل بتقليص مساحة فاعلية إيران المنتشرة بشكل نوعي في بنية الدولة والنظام وشبكاته؛ إلا أن أي إعادة ترتيب للمشهد وتموضع فاعليه ستبقى ضمن الأطر المؤقتة ريثما يتضح التعريف التنفيذي لقرار الانسحاب.

وثمة عناصر عديدة من المتوقع أن تحكم الاتجاهات المتوقعة في المرحلة القادمة، أهمها طبيعة الاتفاق الذي ستخرج به حول المنطقة الآمنة، والتي يبدو أنها ستضطر الولايات المتحدة الأمريكية إلى تأخير انسحابها، نتيجة اختلاف تصورات الأطراف المختلفة لهذه المنطقة، وخاصة مساحتها والقوى التي ستديرها، كما ستشكل الضمانات التي ستقدمها أميركا وروسيا لإسرائيل أحد العناصر التي ستحكم اتجاهات المرحلة القادمة، فهل ستبقى أميركا في قاعدة التنف لحراسة الطرق وشبكات المواصلات التي تربط إيران بسورية، عن طريق العراق؟، أم أن روسيا ستتكفل ضمان أمن إسرائيل من خلال ضبط الوجود الإيراني في سورية وإنهائه؟ .

الرابحون والخاسرون
من الانسحاب الأمريكي من سوريا

عصـــام عاشـــور

كاتب وباحث مصري - مصر

ظهر تنظيم الدولة الإسلامية في العراق والشام في المنطقة منذ عام 2014 وحتى 2017م، وكان ظهور هذا التنظيم بالشكل الذي ظهر به وباتباعه سياسة إدارة التوحش التي اعتمدها كخطة مفصلية في تغيرات جغرافية وديمغرافية في المنطقة بشكل عام، وفي الشمال الشرقي لسوريا بشكل خاص، حيث تشجعت قوات كردية ذات طموح انفصالي أبرزها قوات سوريا الديمقراطية، والتي شجعتها ومولتها بالمال والسلاح والتدريب الولايات المتحدة وكذلك حزب الاتحاد الكردستاني، القريب من النظام السوري. أيضا عززت تركيا وجودها بالمنطقة عبر القوات التركية "درع الفرات"، وفى مرحلة تالية قوات "غصن الزيتون"، وبالتالي كثفت روسيا عبر تحالفها مع الحكومة السورية والحرس الثوري الإيراني، والميليشيات الشيعية عملياتها لتعزيز سيطرتها وبقائها بهذه المنطقة، والحقيقة فإنه لم يوقف هذا الطموح أو على الأقل يحجمه إلا ظهور وكثافة الوجود الأمريكي في معظم أماكن شمال شرق سوريا حيث إنه في نفس العام الذي ظهرت فيه داعش (2014) بدأت الولايات المتحدة في تشكيل تحالف دولي بهدف معلن هو مواجهة تنظيم الدولة الإسلامية "داعش" وبدأ هذا التحالف بإنشاء أول قاعدة عسكرية في سوريا.

ومن ثم بدأت القوات الأمريكية عملياتها البرية في سوريا أواخر عام 2015 حيث وصل عدد من عناصر الوحدات الخاصة إلى مناطق شمال وشرق البلاد لتشكل تحالفًا مع ميليشيات محلية وفصائل معارضة للنظام ضد الدولة الإسلامية "داعش". وازداد عدد القوات الأمريكية بشكل تدريجي في سوريا اعتبارا من 2016 ليصل تعدادها رسميا إلى

2000 جندي يتمركزون في قواعد عسكرية بمناطق شرق وشمال البلاد، وأخذت هذه القوات والقواعد في الانتشار والتمدد لتصل إلى تسعة عشر قاعدة تشمل تقريبا معظم بقاع سوريا من جنوبها إلى شمالها. قاعدة التنف في الجنوب السوري بالقرب من المثلث الحدودي للعراق والأردن مع سوريا في منطقة صحراوية تتبع محافظة حمص، قاعدة الزكف على بعد 70 كيلومترًا إلى الشمال الشرقي من قاعدة التنف، قاعدة عسكرية في حقل العمر النفطي بالقرب من بلدة الشحيل في ريف الزور، قاعدة تل سمن وتقع شمال مدينة الرقة، قاعدة الجلبية وتقع في ريف حلب الشمالي بالقرب من الحدود التركية، قاعدة خراب عشق في ريف حلب الشمالي قرب الحدود التركية، قاعدة منبج في ريف حلب الشمالي، قاعدة عين عيسى شمال مدينة الرقة، قاعدة ديريك في محافظة الحسكة بأقصى الشمال الشرقي، قاعدة كوباني في جبل مشتنور شمال شرق مدينة منبج بالقرب من الحدود التركية، قاعدة سيرين شرق نهر الفرات، قاعدة الطبقة المجهزة بمهابط للطائرات المروحية، قاعدة تل تمر في مدينة تل تمر بالحسكة، القاعدة العسكرية في صباح الخير لهبوط الطيران الحربي، قاعدة مطار الرميلان بالحسكة قرب الحدود مع تركيا والعراق، قاعدة الشدادي بين محافظتي الرقة ودير الزور قرب نهر الخابور بالقرب من الحدود العراقية، قاعدة تل البيدر بالحسكة، قاعدة تل أبيض بالرقة قرب الحدود التركية.

مع تباشير هزيمة داعش في الربع الأخير من عام 2017، اتضحت نوايا اقتسام الشمال السوري وبالتحديد منطقة شمال شرق سوريا، بين القوى المتصارعة فيها وعليها، وبدأ يعكف كل طرف على تنفيذ مخططاته ومشاريعه في مناطق نفوذه، لكن ما هي هذه المنطقة وما هي أهميتها؟

منطقة شمال شرق سوريا، هي منطقة غنية وسكانها مهمشون تاريخيًا، وتشمل هذه المنطقة محافظات دير الزور، الرقة، الحسكة، ريف حلب الجنوبي، ريف حلب الشرقي، ومساحتها تزيد عن 40% من مساحة سوريا، وقبل الأحداث السورية في عام 2011 كانت هذه المنطقة تمد الاقتصاد السوري بحوالي نصف موارده حيث 42% من المساحة

قابلة للزراعة، وتنتج 58% من إجمالي محصول القمح، و78% من محصول القطن، 72% من محصول الذرة، وبها 41% من رؤوس الأغنام، كما تنتج آبار النفط فيها 360 ألف برميل يوميًا، أي نحو 95% من كامل الإنتاج السوري، وبالرغم من ثراء هذه المنطقة فإن سكانها قبل الأزمة السورية وأحداث عام 2011 عانوا أسوأ الأوضاع الاقتصادية حسب تقرير (الفقر في سوريا 1996-2004).

ونتيجة لما تقدم وأيضا للأهمية الجيوسياسية لهذه المنطقة نعود للقول إن هذه القوى المتصارعة على المنطقة يمكن وطبقا لآخر خريطة نفوذ تصور الشكل كالآتي:

- تسيطر قوات سوريا الديمقراطية "قسد" المدعومة من الولايات المتحدة على مناطق شرق الفرات وشماله من الحدود التركية إلى الحدود العراقية شرقًا مع نتوءين من كل من منبج والطبقة، حيث عبرت تلك القوات النهر وبسطت سيطرتها.
- تسيطر قوات الحكومة السورية والميليشيات الإيرانية على المنطقة الواقعة جنوب نهر الفرات من منبج إلى البوكمال، مع بعض النتوءات شمال النهر عند بلدة حطلة وتحافظ على وجود لها في مركزي مدينتي الحسكة والقامشلي.
- يسيطر تنظيم الدولة الإسلامية "داعش" على بلدات شمال نهر الفرات إلى الشرق من دير الزور، وجيبين كبيرين في الصحراء أحدهما شمال النهر على الحدود العراقية والآخر جنوب النهر بمحاذاة مناطق سيطرة قوات الحكومة السورية.
- تسيطر قوات درع الفرات المدعومة من تركيا على بلدة جرابلس ونواحيها، نقطة دخول نهر الفرات إلى سوريا إضافة إلى منطقة الباب.
- تهيمن الوحدات الكردية على معظم المراكز الحضرية الرئيسية في منطقة شمال شرق سوريا، وهي مدن القامشلي والرقة والطبقة ومنبج وتل أبيض وعين العرب (كوباني) وعامودا والدرباسية والشداوي والصور والبصيرة

وغيرها، في حين تقتسم السيطرة على مدينة الحسكة مع قوات الحكومة السورية وبعض الميليشيات المحلية، وتسيطر قوات الحكومة على مدن دير الزور والميادين والبوكمال.

عندما تأكد شبه نهاية تنظيم الدولة الإسلامية في العراق والشام "داعش" سواء من العراق أو سوريا، أصبح لتركيا مطالب محددة سواء في غرب العراق أو في شمال سوريا بشكل عام أو في شمال شرق سوريا بشكل خاص، تمحورت هذه المطالب أساسًا في المطالبة بتفكيك قوات سوريا الديمقراطية الكردية أصلا "قسد" وهي تمثل الحليف الرئيسي للولايات المتحدة الأمريكية في هذه المناطق، خاصة شمال شرق سوريا، هذا من ناحية، أما من ناحية ثانية وهي شرق الفرات فكان المطلب التركي هو السماح لها بعملية عسكرية للسيطرة على المناطق الكردية فيها والتي يوجد بها عدد من القوات العسكرية الأمريكية، تقدر بنحو 2500 جندي أمريكي، وعدد آخر من القوات الخاصة الفرنسية والبريطانية، كانت مهمتهم الرئيسية هي قتال مسلحي عناصر الدولة الإسلامية "داعش"، هذه المنطقة – شرق الفرات –تمثل مساحة كبيرة تسيطر عليها قوات سوريا الديمقراطية بعد أن حررتها من تنظيم داعش، وكانت أهم مطلب لتركيا وحتى قبل أن يعلن ترامب عزمه الانسحاب الأمريكي من سوريا.

وفى 19 ديسمبر 2018 أعلن البيت الأبيض قرار الرئيس دونالد ترامب بانسحاب القوات الأمريكية من سوريا، بقرار منفرد، كما أعلن البيت الأبيض أن هذا يمثل تحولاً كبيرًا في السياسة الأمريكية بالمنطقة، خاصة وأنه تمت هزيمة تنظيم الدولة الإسلامية داعش في كل من العراق وسوريا.

وبالطبع لم يكن هذا القرار مفاجئًا، فقد كان أحد وعود ترامب الانتخابية، وكان قد ذكره مرات عديدة ولكنه تراجع عن تنفيذه أكثر من مرة تحت وطأة ضغوط المؤسسات الأمنية الأمريكية، وعلى رأسها البنتاجون، هذه المؤسسات التي اعتبرت أن الانسحاب سوف يقوض جهود التحالف في محاربة تنظيم الدولة الإسلامية "داعش"، كما كان يعارض هذا القرار أعضاء في الكونجرس الأمريكي سواء من الجمهوريين أو

الديمقراطيين، محذرين من عودة داعش مرة أخرى، وملء الفراغ الناتج عن الانسحاب الأمريكي بين كل من إيران وروسيا.

وكانت مجموعة الصراع الدولية الأمريكية (ICG) قد نشرت في بيان لها في 5 ديسمبر أي قبل إعلان ترامب أن الانسحاب "المتسرع" من شمال شرق سوريا، من شأنه أن يطلق قوى متنافسة تتصارع لتحقيق مصالح وامتيازات، وقد حذر البيان من أن عدم وجود اتفاق مسبق متفاوض عليه يمكن أن يهدد بنشوء صراع متصاعد، كما صدر تقرير في نفس يوم إعلان ترامب أي في 19 ديسمبر من مركز دراسات الحرب الأمريكي (ISW) جاء في مطلعه (لم تهزم الولايات المتحدة الأمريكية وحلفاؤها تنظيم الدولة الإسلامية "داعش" في العراق أو في سوريا).

وبعد صدور قرار ترامب وصفته صحيفة نيويورك تايمز بأنه قرار منفصل عن أي سياق استراتيجي، أو سبب منطقي، وأنه كلف وزير الدفاع الأمريكي منصبه، وأثار جدلا واسعًا من قبل حلفاء الولايات المتحدة الأمريكية مثل فرنسا وإنجلترا وألمانيا.

ورأت التايمز "أن الانسحاب سيكون له وقع مختلف على الأطراف بحسب مصالحها في الوجود الأمريكي في المنطقة، وبحسب علاقاتها مع الولايات المتحدة.

وإذا حاولنا وضع قائمة بالرابحين والخاسرين في معادلة الانسحاب الأمريكي، وهنا يمكن حصر الرابحين، التي تجيء تركيا على رأسهم من حيث رغبتها في التخلص من قوات سوريا الديمقراطية "قسد" ومجمل القوات والمليشيات الكردية – عدو تركيا الأول – وذلك من الشمال السوري المتاخم لحدودها الجنوبية، وخاصة الشمال الشرقي والذي تعتبره تركيا من صميم أمنها القومي. هذه القوات – سوريا الديمقراطية – والتي كانت الولايات المتحدة الأمريكية حليفا داعما لها منذ عام 2015، سوف تترك بعد الانسحاب تحت رحمة تركيا، حتى أن الرئيس التركي رجب طيب أردوغان لم يخف نواياه بتدخل عسكري في الشمال السوري بما يوحي بأنه على استعداد لتنفيذ ضربة أو ضربات ضد

القوات الكردية هناك، فتركيا تنوي السيطرة ليس على منبج فقط وإنما على منطقة كردستان السورية بأكملها.

هذا فيما يخص تركيا، التي كانت ومنذ بداية الأزمة السورية ضد نظام بشار الأسد، وتدعم في مواجهته كل معارضي النظام السوري حتى الفصائل والمليشيات الإرهابية منها.

أما حلفاء النظام السوري والرئيس بشار الأسد فلا أحد ينكر أن الانسحاب الأمريكي سوف يصب في مصلحة هؤلاء الحلفاء العسكريين، وسيزيد من إحكام سيطرتهم على المناطق التي كانت خاضعة للسيطرة الأمريكية أو سيطرة حلفائها وخاصة قوات سوريا الديمقراطية " قسد"، وبالتأكيد فإن أهم حلفاء الدولة السورية وبشار الأسد والتي تأتي على رأس هذه القائمة هي إيران، باعتبارها الحليف الأول لسوريا في حربها ضد المعارضة والمليشيات والفصائل الإرهابية التي تشارف على إنهاء عامها الثامن في مارس القادم .

وبالتأكيد أيضا لا يمكن تغافل روسيا التي كانت ولا تزال الحليف الأقوى لسوريا، لكن سيكون مكسبها – سوريا – من هذا الانسحاب الأمريكي، أقل نسبيا نظرًا لأن وجودها في سوريا يقتصر على الدعم العسكري لتوفير الحماية للدولة والنظام السوري، مقارنة بالوجود الإيراني الذي يمتد إلى ما هو أبعد من ذلك بشكل أكثر تشعبا ليصل إلى حلفاء لها بلبنان والعراق، فضلاً عن امتلاكه لأفق استراتيجي أكثر اتساعا.

وهناك رابح آخر هو رأس النظام السوري المؤيد من روسيا وإيران، ولم تكن الولايات المتحدة تعترف بشرعيته، والذي يزيل الانسحاب الأمريكي عقبة أمام امتدادات قواته على الأراضي السورية.

هذا لا يجعلنا نتناسى رابحًا يتغافل الكثيرون عن ذكره أو الإشارة إليه وهو تنظيم الدولة الإسلامية "داعش" خاصة وكما سبق أن ذكرنا أن مركز دراسات الحرب الأمريكي (ISW) ذكر في تقرير له يوم إعلان ترامب انسحاب القوات الأمريكية من سوريا (لم تهزم الولايات المتحدة الأمريكية وحلفاؤها "داعش" في العراق أو في سوريا)، فالتقرير

يتخوف من أن جيوب التنظيم قادرة على لملمة نفسها مرة أخرى، وأن آلاف المقاتلين الدواعش مازالوا موجودين في مناطق متفرقة من البادية السورية والقرى، بالإضافة إلى شبكة لسيطرتهم من خلال طرق وأنفاق تمتد لأطراف المدن السورية أيضًا.

أما الخاسرون في هذه المعادلة السورية دون وجود للقوات الأمريكية فلا جدال أن أولهم وعلى رأسهم الشعب الكردي في هذه المنطقة، فانسحاب القوات الأمريكية يعني فقدان هذا الشعب حليفه الأساسي الذي موله ونظمه ودربه وسلحه وحماه، وبانسحابه يكون قد تركه معلقًا بين مطرقة تركيا عدوه التاريخي المتأهب دائما للانقضاض عليه والتخلص منه، وبين سندان النظام السوري الذي يعتبر أن الأكراد انضموا في خلال الأزمة إلى زمرة المعارضة المسلحة التي عملت ضد النظام خلال ما يقرب من ثمانية أعوام، هذا وقد قالت قوات سوريا الديمقراطية التي تسيطر الآن على ضفة نهر الفرات اليسرى، والممثلة للأكراد في اليوم التالي مباشرة لقرار ترامب بالانسحاب من سوريا "إن سحب القوات والمسئولين الأمريكيين من المنطقة، سيكون له تداعيات خطيرة على الاستقرار العالمي، وأن ذلك سيؤدي إلى خلق فراغ سياسي وعسكري في المنطقة، وترك شعوبها بين مخالب القوى والجهات المعادية" خاصة وأن دمشق تصر على أن تسلم قوات سوريا الديمقراطية المناطق الغنية بالنفط في الضفة اليسرى من الفرات إلى الحكومة السورية، وتنسحب طواعية إلى الشمال، وعندئذ يضعها الجيش السوري تحت حمايته، بالإضافة إلى خسارة الأكراد لعوائد كبيرة من آبار النفط.

أما إسرائيل فإنها تأتي في المرتبة الثانية من الخاسرين، كنتيجة منطقية للانتصار الإيراني، فإن إسرائيل تعتبر هذا التواجد – الإيراني– خطرًا رئيسيًا يهدد وجودها وأمنها، حتى أن رئيس الوزراء الإسرائيلي ناتنياهو قال في اليوم التالي لقرار ترامب بالانسحاب من سوريا "إن إسرائيل ستصعد معركتها ضد القوات المتحالفة مع إيران وسوريا، بعد انسحاب القوات الأمريكية من سوريا".

وإذا كانت إسرائيل تتوجس من تقليل نفوذها السياسي في المنطقة بعد الانسحاب الأمريكي إلا أن ما يطمئنها –من ناحية أخرى – هو الضمان الروسي الحاسم بالحفاظ على أمنها.

أما الخاسر الأكبر من الانسحاب الأمريكي فهو الشعب السوري في شمال البلاد وخاصة الشمال الشرقي، فيرى البعض أن انسحاب القوات الأمريكية قد يفتح الطريق للقوات الحكومية السورية للسيطرة على هذه المناطق والتي يتخوف سكانها الأصليون بالإضافة إلى ملايين الذين نزحوا وهاجروا إلى هذه المناطق من أنهم سيتكبدون ربما أهوالا وخيمة على الصعيد الإنساني.

بناء على كل ما تقدم يمكن استخلاص النتائج التالية:

أولاً: أن قرار الرئيس الأمريكي دونالد ترامب بالانسحاب من شمال سوريا وخاصة من الشمال الشرقي قد أُتخذ دون الرجوع للمساعدين الرئيسين وأهمهم بالتأكيد وزير الدفاع جيمس مايتس "الذي استقال".

ثانيًا: أن هذا القرار هو امتداد السياسة الانكماشية التي يريد الرئيس الأمريكي اعتمادها، خاصة في الشرق الأوسط ككل كمرحلة جديدة وليس فقط في سوريا أو إيران أو تركيا، مقابل طور جديد في التركيز على تهديدات يعتبرها الرئيس الأمريكي أكثر خطورة وجدية، تأتي من الصين في أقصى الشرق ومن روسيا، ونسبيا من الهند الصاعدة اقتصاديا بقوة.

ثالثًا: اعتقاد ترامب أن أمريكا تتحمل الكثير من الأعباء لتهدئة الصراعات وتسويتها وحماية مصالح قوى ودول أخرى ولكنهم جميعا لا يقدرون ما تفعله بلاده، ولا يدفعون ثمنًا مناسبًا للجهود والتضحيات الأمريكية، وكان أكثر وضوحًا حين قال "على الآخرين أن يحاربوا من أجل أنفسهم، وأن الأعداء المحليين لداعش عليهم أن يتحملوا العبء الأكبر، بعيدًا عن أي إسهام أمريكي مباشر".

إذًا نصل إلى السؤال الأهم " ما هي أهم تداعيات الانسحاب الأمريكي؟."

فمن الثابت والمؤكد وطبقًا لنظرية ملء أو سد الفراغ، أنه عند انسحاب القوات الأمريكية من هذه المناطق، ستقوم قوة أو أكثر بملء هذا الفراغ إن صراعًا أو اتفاقًا، ويمكن حصر هذه القوى التي من المحتمل أن تسد أو تملأ هذا الفراغ في تركيا وروسيا وإيران والدولة السورية، أما السيناريو الأسوأ هو عودة تنظيم الدولة الإسلامية "داعش" حيث إن الكثير من التقارير تؤكد أن الانتهاء من هذا التنظيم سيستغرق وقتًا أطول بكثير، لأن هناك خلايا سرية لهذا التنظيم، لا يُتوقع أن تختفي بين عشية وضحاها، وهي تتخفى في جيوب صحراوية في شمال نهر الفرات على الحدود العراقية وفى جنوبه.

شـــؤون اجتماعيــة

مجلة فصلية علمية محكمة تعنى بالعلوم الإنسانية والاجتماعية
رئيس التحرير : د. محمد عبد الله المطوع
نائب رئيس التحرير : د. ندى مرتضى صبَّاح

تنشر البحوث والدراسات في شتى العلوم الإنسانية والاجتماعية والتي تتوفر فيها الأصالة والمنهجية العلمية

تعطى الأولوية مرحلياً للبحوث والدراسات حول مجتمع الإمارات لسد النقص في هذا المجال.

تخصص زاوية لمناقشة الآراء والأفكار التي تتناول قضايا فكرية وثقافية واجتماعية معاصرة ترحب بمساهمة الأكاديميين والمثقفين في اختصاصات العلوم الإنسانية والاجتماعية كافة.

مواعيد الصدور
مارس (ربيع) – يونيو (صيف) – سبتمبر (خريف) – ديسمبر (شتاء)

الاشتراكات

للأفراد سنوياً : في الإمارات : 40 درهماً * في الوطن العربي : 15 دولاراً * في الخارج : 20 دولارا
المؤسسات سنوياً : في الإمارات : 100 درهم * في الخارج : 40 دولاراً

تصدر عن جمعية الاجتماعيين والجامعة الأمريكية في الشارقة

ترسل البحوث والدراسات بعنوان رئيس تحرير مجلة شؤون اجتماعية
ص.ب.: 3745 هاتف: 5567722 (6–971) فاكس : 5567227 (6–971)
جمعية الاجتماعيين – الشارقة – دولة الإمارات العربية المتحدة
E-mail:social@emirates.net.ae
www.sociological-uae.org.ae

ملف ثقافـــي

- محمد فوزى — سليـــــم سحـــــــاب
- العربي والعالمي في الموسيقى المعاصرة — د. فـــراس الطرابلســـــي
- المفكرون في الارض — شعبـــــان يـوســـــف

محمد فوزي حياته وأفلامه

سليـــم سحـــــاب

قائد أوركسترا وناقد ومحلل ومؤرخ موسيقى – لبنان

في سنة 1938 قدم إلى القاهرة من مدينة طنطا (محافظة الغربية) شاب في العشرين في عمره كله طموح في أن يثبت نفسه بين كبار الفنانين المسيطرين على الساحة الفنية في مصر. ولكي نعرف مدى جنون هذ الطموح علينا أن نعرف هذه الحقبة في تاريخ الموسيقى العربية في مصر. ويكفي لذلك أن نذكر اسم رياض السنباطي الذي كان في انطلاقته الكبرى مع أم كلثوم ومحمد عبدالوهاب الذي كان متربعا ومنذ فترة كبيرة على عرش الغناء والطرب والتلحين بعد اكتسابه لقب مطرب الملوك والأمراء وكان فيلمه الرابع (يوم سعيد) قد انطلق أو كان على وشك الانطلاق في كافة دور عرض السينما في العالم العربي، وكان القصبجي في أوج عطائه لأم كلثوم، وكان زكريا أحمد يقدم مسرحيتين غنائيتين من مسرحياته الـ54 إحداها مع فرقة منيرة المهدية (الأميرة روشنارا، لبديع خيري) والثانية مع فرقة نجيب الريحاني (أنا وانت، لبديع خيرى)، غير عطائه التاريخي لأم كلثوم في هذه الفترة من الأدوار والطقاطيق التاريخية. وكان فريد الأطرش وأسمهان أخته يكافحان في سبيل مكانتهما بين هؤلاء العمالقة. وجاء هذا الشاب إلى القاهرة في هذا الجو المزحوم بالفنانين العمالقة ليثبت نفسه في مجال الموسيقى والغناء.

اسمه محمد فوزي وهو اسم مركب[1]. أما اسمه الكامل فهو محمد فوزي عبدالعال الحوّ. ولد في 15 آب/أغسطس من سنة 1918 في قرية كفر أبو جندي بمحافظة

(1) المعلومات مشتقة من ويكيبيديا بعد ضبط التسلسل الزمني للأحداث ومن لائحة أعطاني إياها الصديق المرحوم نبيل محمد فوزي ابن الفنان الراحل.

الغربية وهو الابن الواحد والعشرون من أصل خمسة وعشرين ولدًا وبنتًا منهم أخته هدى سلطان. في سنة 1931 نال محمد فوزي شهادة الابتدائية في مدرسة طنطا. ومنذ مرحلة دراسته كان محمد فوزي ميالاً إلى الغناء وتعلم أصول الموسيقى على رجل مطافئ اسمه محمد الخربتلي من أصحاب والده، وكان يصحبه للغناء في الأفراح والموالد وكان مغرمًا في ذلك الوقت في أداء أغاني محمد عبدالوهاب وأم كلثوم وخاصة في احتفالات طنطا بموالد السيد البدوي. ويروي محمد فوزي بنفسه في إحدى المقابلات الإذاعية أنه في أحد الأفراح الذي دعي لإحيائه أصرّ على غناء أغنية محمد عبدالوهاب الرثائية (أيها الراقدون تحت التراب) فما كان من أصحاب الفرح إلا أنهم أعطوه "علقة" ساخنة جدا وألقوا به خارج المنزل. انتقل محمد فوزي إلى القاهرة بعد حصوله على شهادة الإعدادية والتحق في القاهرة بمعهد فؤاد الأول للموسيقى. لكن قساوة حياته جعلته يترك المعهد بعد عامين ليعمل في ملهى ليلي التثقيفيين رتيبة وإنصاف رشدي انتقل بعد ذلك إلى أشهر صالة موسيقية في تلك الحقبة صالة بديعة مصابني. تعرف محمد فوزي هناك على ثلاثي شياطين العود (فريد الأطرش وفريد غصن وجورج ميشال) وعلى محمود الشريف ومحمد عبدالمطلب وارتبط بصداقة قوية معهم، شاركهم في تلحين وغناء الإسكتشات والاستعراضات، مما كان له الأثر الكبير في تطوير أسلوبه التلحيني لاحقًا، خاصة في تلحين الأوبريتات والإسكتشات والاستعراضات. تقدم في هذه الفترة لامتحان في الإذاعة كمطرب وكملحن لكنه فشل كمطرب ونجح كملحن. وإلى جانب صالة بديعة مصابني عمل في فرقة فاطمة رشدي ثم في الفرقة القومية للمسرح. ثم جاءت فرصته مع الفرقة المصرية للتمثيل التي جاءت به بديلا عن المطرب إبراهيم حمودة في مسرحية شهر زاد لسيد درويش في دور البطل زعبُلّة. وبالرغم من إرشادات المخرج زكي طليمات وقيادة الموسيقي الكبير محمد حسن الشجاعي فشل في عرضه الأول مما جعله يتوارى عن الأضواء إلى أن عرضت عليه فاطمة رشدي المؤمنة بموهبته العمل معها مغنيا وممثلاً وملحنا. وفي سنة 1944 عرض عليه يوسف وهبي دورًا صغيرًا في فيلم (سيف الجلاد) يغني فيه أغنيتين من ألحانه وكان شرط يوسف وهبي أن يختصر اسمه من محمد فوزي عبدالعال الحوّ إلى محمد فوزي فقط فوافق فورًا وكانت هذه أولى خطواته في السينما.

وفي سنة 1945 أسند إليه المخرج كامل مدكور دورًا ثانويًا أمام مديحة يسري وأنور وجدي في فيلم قبلة في لبنان، فلفت أنظار المنتجين والمخرجين الذين كانوا يبحثون عن الوجوه الجديدة ومنهم محمد كريم الذي أعجب بشخصية محمد فوزي فأسند إليه دور البطولة في فيلم أصحاب السعادة (1946) أمام رجاء عبده وسليمان نجيب، وكان له شرط أن يجري عملية تجميلية لشفته العليا فوافق. وكان نجاحه في هذا الفيلم كبيرًا جدًا ساعده في تأسيس شركته السينمائية الخاصة التي حملت اسم أفلام محمد فوزي 1947. وتوالت أفلام محمد فوزي التي لم تنقطع سنة واحدة من سنة 1944 لغاية 1959 سوى في سنتين: 1957 و1958 التي لم ينتج فيها أفلامًا. ووصلت غزارته في إنتاج الأفلام أنه أنتج في سنة 1948 وحدها ستة أفلام وتراوح عدد الأفلام في السنوات الأخرى بين ثلاثة إلى خمسة أفلام في السنة لغاية 1953. ثم بدأ عدد أفلامه يقل. فسنة 1954 عرضت فيلمين فقط بينما لم ينتج في 1955 و 1956 إلا فيلمًا واحدًا في كل سنة منهما وأنهى مسيرته السينمائية سنة 1959 بفيلمين وسوف نأتي على ذكر أفلامه بالتفصيل لاحقًا.

مأساة مرضه

في أوائل الستينيات أصيب محمد فوزي بمرض غير معروف عالميا (حسب معلومات نبيل محمد فوزي وويكيبيديا) حتى أن الطبيب الألماني سماه آنذاك بمرض محمد فوزي. وقد عرف بعد ذلك باسم سرطان العظام. وذكرت مصادر أخرى أن المرض كان سرطان النخاع الشوكي. ذهب للعلاج في إنجلترا وألمانيا وأمريكا لكن للأسف من دون نتيجة فقد كان المرض في مرحلة متقدمة جدًا كما أن علاجه كان في بداية اكتشافه. وعانى محمد فوزي من المرض لمدة ثلاثة سنوات توفي بعدها في العشرين من أكتوبر سنة 1966 وهو في الثامنة والأربعين من عمره، بعدما كتب وصيته في يوم وفاته سوف نأتي على ذكرها لاحقًا.

معلومات متضاربة

بينما يذكر نبيل محمد فوزي في لائحة معلوماته الخاصة التي أملكها أن والده مثّل 36 فيلما تذكر ويكيبيديا اسم 37 فيلما وسنة إنتاجها وجدتها بتفاصيل إنتاجها في موسوعة الأفلام الروائية للمؤرخ الأستاذ محمود قاسم. ويذكر نبيل محمد فوزي في لائحته أن والده لحن 450 أغنية لنفسه ولغيره، وتذكر ويكيبيديا أن رصيد محمد فوزي من الأغنيات هو 400 أغنية منها 300 في الأفلام التي مثلها.

حالة محمد فوزي الاجتماعية

تذكر لائحة معلومات نبيل محمد فوزي وويكيبيديا نفس المعلومات مع اختلاف سنذكره حين الوصول إليه:

تزوج محمد فوزي ثلاث مرات زوجته الأولى السيدة هداية(1943) وأنجب منها المهندس نبيل محمد فوزي والمهندس سمير والدكتور منير. زوجته الثانية كانت الفنانة مديحة يسري(1952) التي أنجب منها عمرو محمد فوزي الذي توفي في حادث سيارة في طريق المطار. زوجته الثالثة كانت الفنانة كريمة(1960) ولقبها (فاتنة المعادي). وبينما يقول نبيل محمد فوزي في لائحته أن محمد فوزي لم ينجب من الفنانة كريمة أية أطفال تؤكد ويكيبيديا أنه "أنجب منها بنتا عام 1961 اسمها إيمان وظلت معه حتى وفاته" كان سنها خمس سنوات عند وفاته.

عجائب محمد فوزي السبع

كما يحلو لنبيل محمد فوزي أن يكتب في لائحته تيمنًا بعجائب الدنيا السبع المعروفة.

1- **أول من اكتشف الفنانة شادية وقدمها للفن في فيلم العقل في أجازة.**
2- **أول من أنتج أفلامًا ملونة للسينما المصرية** وكان باكورة هذه الأفلام فيلم **الحب في خطر** مع صباح وإسماعيل ياسين وغيرهم.

3- **أول من لحن الأغنية فرانكو – أراب مثل يا مصطفى يا مصطفى** التي عرفت عالميا بصوت بوب عزام المصري الأصل. وقد رفعت هذه الأغنية دعوى قضائية مزدوجة، كانت الأولى التي رفعها محمد فوزي على بوب عزام متهما إياه بسرقة اللحن والدعوى الثانية، رفعها محمد الكحلاوي على محمد فوزي بتهمة سرقة لحن يا مصطفى من أغنيته فضلك يا سايق المطر.

4- **أول من لحن أغنية وسجلها من دون فرقة موسيقية تصاحبها.** وهذه الطريقة تعرف في التاريخ الموسيقي بال أكابيلا A.cappella أي الغناء من دون مصاحبة آلات موسيقية هذه الأغنية هي كلمني طمني وهي الأغنية الوحيدة في تاريخ الموسيقى العربية التي سجلت من دون مصاحبة آلات موسيقية التي يقوم بدورها أصوات غنائية رجالية ونسائية.

5- **أول من غنى للطفل أغنية تربوية.** بل أقول إنه كان رائد تلحين وغناء أغاني الأطفال في العالم العربي في أغنياته : ذهب الليل طلع الفجر وأغنية ماما زمانها جايه التي استلهمها من الأغنية الألمانية وضمه لطريقة المكساج (عملية المزج) إلى اللحن الذي لحنه وغناه ونعرفه من الأغنيات الأخرى التي لحنها محمد فوزي للأطفال وجعلهم يشاركونه فيها فهي الأغنية الرمضانية هاتوا الفوانيس يا ولاد، والأغنية الوطنية كان وإن. وشاركه الأطفال بالغناء أيضا في أول أغانيه للأطفال ذهب الليل بينما لم يشارك في ماما زمانها جايه إلاّ ضحك وبكاء طفل ألماني.

6- **أول من قدم الملحن بليغ حمدي للسيدة أم كلثوم.**

7- **أول من أنشأ مصنعًا للأسطوانات في الشرق الأوسط.** وقد أطلق على هذا المصنع اسم مصروفون وبنى إلى جانبه أستوديو للتسجيلات الفنية.

ويقال إن تأميم مصنع الأسطوانات هذا هو أحد أسباب إصابة محمد فوزي بالمرض القاتل الذي أصابه، خاصة إحساسه بالقهر والغبن لسبب أن من بين شركات الأسطوانات الموجودة ومن بينها شركة محمد عبدالوهاب وعبدالحليم حافظ لم تؤمم إلا شركته.

أفلام محمد فوزي

بدأت مسيرة محمد فوزي السينمائية سنة 1944 في فيلم سيف الجلاد حيث ظهر بدور ثانوي، وانتهت سنة 1959 في فيلمي ليلى بنت الشاطئ وكل دقة في قلبي وقد تربع محمد فوزي بين هذين التاريخين على عرش الفيلم الغنائي الاستعراضي، ولم يجاره في ذلك سوى فريد الأطرش.

1944

1- **سيف الجلاد:** أول عرض 1944/10/9 الموسيقى والألحان لمحمود عبدالرحمن الغناء: عقيلة راتب محمد فوزي وقد شارك محمد فوزي في هذا الفيلم تمثيلا وغناء فقط ولم يشارك في التلحين.

1945

1- **قبلة في لبنان:** أول عرض: 1945/1/3 الأغاني الواردة في الفيلم: يا لبنان – بيقوللي قلبي – يا بنت بلدي – موال الوردة: جميعها تلحين وغناء محمد فوزي ديالوج تغيَّر هوا وحدك (تلحين محمد فوزي إلقاء محمد كامل وليلى عبده)

الدبكة: تلحين فريد غصن غناء محمد سلمان – يا شقيقة روحي: تلحين محمد القصبجي غناء محمد سلمان – الجرسون: تلحين رياض السنباطي غناء محمد سلطان – زايده محاسنها: تلحين إبراهيم حسين غناء محمد سلمان – الانتصار: تلحين رياض السنباطي غناء محمد سلمان – المال: تلحين إبراهيم حسين غناء محمد سلمان.

1946

1- **أصحاب السعادة:** أول عرض 1946/4/1 الموسيقى لعبدالحميد عبدالرحمن ولا ذكر لأسماء أغنيات. شارك محمد فوزي في هذا الفيلم ممثلاً ومطربًا إلى جانب المطربة الشهيرة رجاء عبده.

2- **مجد ودموع:** أول عرض 1946/3/4 شاركه في الغناء نور الهدى . باقي الأغنيات من ألحان محمد فوزي وهي: فين الحبيب اللي اتمناه (نور الهدى) – اسكتش يا بخت الأمير – خايفه – ديالوج أنا مش حلوه؟ بقى ده مغنى اسمعني لم أغني – ننى قول وغني. شارك في الغناء نور الهدى وسعاد مكاوي ولا ذكر لأسماء مؤلفي كلام الأغنيات.

3- **عدو المرأة:** أول عرض 1946/12/16 شاركته في الغناء صباح. أغاني الفيلم: أغنية الجمال (صالح جودت- تلحين وغناء محمد فوزي) –في غمضة عين بتهواني (مصطفى السيد تلحين محمد فوزي غناء صباح) – أغنية لبنان (صالح جودت تلحين فريد غصن غناء صباح) – أدى المعاد قرب (عبدالعزيز سلام تلحين وغناء محمد فوزي) أغنية سالوميه (عبدالعزيز سلام تلحين محمود الشريف غناء صباح) يا ست الكل، زفة ريفية (فؤاد شومان – لحن محمود الشريف غناء صباح) – ديالوج أنا صاحيه وشيفاك (تلحين محمد فوزي وغناؤه مع صباح – نظم مصطفى السيد).

1947

1- **قبلني يا أبي:** أول عرض 1947/9/8 شاركته في الغناء نور الهدى وشاركه في التلحين محمد عبدالوهاب ومحمد القصبجي ورياض السنباطي وموسى حلمي. الأغنيات: سبحان ربي (نظم نقولا بدران تلحين حلمي غناء نور الهدى) يللي تحب الفل (مأمون الشناوي محمد القصبجي- نور الهدى) – بصت لي في أول يوم(عبدالعزيز سلام تلحين وغناء محمد فوزي) – ديالوج الأزياء (عبدالعزيز سلام – تلحين محمد فوزي وغناؤه مع نور الهدى). الدنيا ساعة وصال (تلحين محمد عبدالوهاب – غناء نور الهدى – نظم مأمون الشناوي)

2- **عروسة البحر:** أول عرض 1947/9/27 أغاني الفيلم غير موجودة في موسوعة الأغاني / حبيبي شط –عم يا سماره – يا خاين العيش – صيد العصاري – نام يا لطيف. لا ذكر لأسماء المؤلفين.

3- **صباح الخير:** أول عرض 1947/12/1 شارك في الغناء صباح وشكوكو. الأغنيات: جاي منك جاي (حسن توفيق تلحين محمد فوزي غناء شكوكو) – مصر يا مشتاق (حسن توفيق لحن وغناء محمد فوزي) – صباح الخير على لبنان (حسن توفيق تلحين محمد فوزي غناء صباح) وورد في موسوعة الأفلام أغنية عم يا سجان(؟)

4- **العقل في أجازة:** أول عرض 1947/5/12 أول فيلم تظهر فيه شادية على شاشة السينما. لا ذكر للفيلم في موسوعة الأغاني ولا ذكر للأغنية في موسوعة الأفلام ولكن ذاكرتي تحضرني في أغنيتين كانتا تذاعان في العصر الذهبي للإذاعات في الخمسينات: التانجو الرائعة ياللي وهبتك حياتي والذي أذكر منه نصفه تقريبا وديالوج متشكر مع شادية. لا نعرف مؤلف الأغاني.

1948

1- صاحبة العمارة: أول عرض 1948/3/18 شاركه في الفيلم ساميه جمال إسماعيل ياسين وزينات صدقي. أغاني الفيلم: يا اللي الزمان جاد عليك. يا عريس الغفلة (غناء إسماعيل ياسين) – يا سكري يا تفاح – يا ام العُوام –قال أيه تقولي – يا ست الكل – ولوني يا أهل الهوى. لا تعرف أسماء المؤلفين

2- حب وجنون: أول عرض 1948/3/29 أغاني الفيلم حاقوله أيه (عبدالعزيز سلام لحن وغناء محمد فوزي) – الله أكبر (عبدالعزيز سلام لحن وغناء محمد فوزي) – زنوبة (فتحي قوره لحن محمد فوزي) – على الله الشفا (بديع خيرى لحن محمد فوزي غناء شكوكو وإسماعيل ياسين) – دلوعة وحيله (فتحي قوره لحن محمد فوزي – غناء تحية كاريوكا) – يا محمد (بديع خيري لحن محمد فوزي وغناؤه مع شكوكو وإسماعيل ياسين) – صلّوا على النبي (مصطفى السيد لحن محمد فوزي غناء شكوكو) – يالى خصامك (مصطفى السيد لحن محمد فوزي وغناؤه مع تحية كاريوكا) – ماكنش يومك (مصطفى السيد لحن محمد فوزي وغناؤه مع إسماعيل ياسين).

3- **نرجس:** أول عرض 1948/5/15 شارك في التلحين مع محمد فوزي محمد الكحلاوي وزكريا أحمد وشارك في الغناء نور الهدى وسعاد مكاوي. أغاني الفيلم: يا قاضي الغرام (مصطفى السيد لحن وغناء محمد فوزي) – استعراض قالوا الربيع والغرام (حسن توفيق لحن وغناء محمد فوزي) – قمر منوّر أو قمرين (مصطفى السيد لحن محمد فوزي– غناء سعاد مكاوي) – ما بحبش (بيرم التونسي لحن زكريا أحمد –غناء نور الهدى) – أربع أغنيات لم ترد في موسوعة الأغاني: قصيدة لست أدرى (نور الهدى) – المسرح – السوق – أهلا لست الكل: وردت في موسوعة الأفلام.

4- **الروح والجسد:** أول عرض 1948/10/4 أغاني الفيلم وردت في موسوعة الأغاني: يا قلبي (نظم إميل سليم غناء شادية) – أوبريت الربيع (نظم عبدالعزيز سلام – غناء محمد فوزي – شادية إسماعيل ياسين) – ديالوج متهيألي (عبدالعزيز سلام غناء محمد فوزي مع شادية) – داري العيون (نظم عبدالعزيز سلام – لحن وغناء محمد فوزي) غني للدنيا (نظم مأمون الشناوي لحن وغناء محمد فوزي) – أغنية الفرح (فتحي قورة لحن محمد فوزي – غناء إسماعيل ياسين) – قصيدة الذكريات (نظم علي محمود طه لحن وغناء محمد فوزي).

5- **بنت حظ:** أول عرض 1948/11/1 أغاني الفيلم: رمضان (محمد علي أحمد غناء ولحن محمد فوزي) – البط (بديع خيري لحن محمد فوزي وغناؤه مع شكوكو) على بلدي (مصطفى السيد – لحن وغناء محمد فوزي) – يا ناري (لحن وغناء شكوكو) الكحك (صالح جودت لحن وغناء محمد فوزي).

6- **الستات عفاريت:** ورد هذا الفيلم في رسالة في تاريخ السينما لجلال الشرقاوي صفحة 315 على أنه من تمثيل محمد فوزي ومحمود المليجي وإخراج حسن الإمام. أما في موسوعة الأفلام الروائية لمحمود قاسم فلا وجود لاسم محمد فوزي كما كذلك في موسوعة الأغاني حيث ورد اسم الفيلم وأغانيه ولا علاقة لها بمحمد فوزي لا لحنًا ولا غناءً ولا وجود لمحمد فوزي فيه إطلاقًا.

1- **المرأة الشيطان:** أول عرض 1949/2/28 ورد هذا الفيلم بموسوعة الأفلام ولم يرد في موسوعة الأغاني. كذلك لم يرد في موسوعة الأفلام اسم الأغاني مع أن أسماء المشاركين في الفيلم (أحلام – محمد فوزي – شكوكو) تشير إلى ضرورة وجود أغانٍ للأصوات الثلاثة المذكورة.

2- **المجنونة:** أول عرض 1949/1/31 شاركه في الفيلم ليلى مراد وإسماعيل ياسين. أغاني الفيلم: ديالوج فرحانه وخايفه (مأمون الشناوي محمد فوزي وليلى مراد) – يا ربي يا ربي (نظم مأمون الشناوي – لحن محمد فوزي –غناء ليلى مراد) – يا حبيبي أنا (مأمون الشناوي لحن محمد فوزي غناء ليلى مراد) حاروح وراك (مأمون الشناوي –لحن وغناء محمد فوزي) – يا محير قلبي (مصطفى السيد – لحن وغناء محمد فوزي) – يا خدود العذارى (مصطفى السيد – لحن محمد فوزي – غناء محمد فوزي وليلى مراد وإسماعيل ياسين) – أبين زين (مصطفى السيد لحن وغناء محمد فوزي).

3- **فاطمة وماريكا وراشيل:** أول عرض 1949/7/25 أغاني الفيلم: كان بدري عليك (لحن وغناء محمد فوزي) – فين حبيبي اللي عايش في خيالي (لحن وغناء محمد فوزي) فاطمة وماريكا وراشيل (لحن وغناء محمد فوزي) لا وجود لأسماء الشعراء في المعلومات عن الأغاني.

4- **صاحبة الملاليم:** أول عرض 1949/9/26 شاركه في الفيلم شادية وثريا حلمي وكاميليا وإسماعيل ياسين. أغاني الفيلم: المطبخ (جليل البندراي لحن محمد فوزي – إلقاء ثريا حلمي وإسماعيل ياسين) – يا رجليّه (عبدالعزيز سلام لحن محمد فوزي إلقاء ثريا حلمي) – إسكندرية (مصطفى السيد لحن محمد فوزي غناء كاميليا شادية ثريا حلمي) – قلبي بينادي عليكي (عبدالعزيز سلام لحن وغناء محمد فوزي) – حبايبي صبحوا عزّالي (عبدالعزيز سلام لحن محمد فوزي غناء

شادية) راح توحشيني (مأمون الشناوي لحن وغناء محمد فوزي) – انت وأنا (مصطفى السيد لحن وغناء محمد فوزي).

1950

هنا تتوقف الاستعانة بموسوعة الأغاني لمحمود قاسم لعدم وجود باقي الأجزاء ويتم الاستعانة فقط بموسوعة الأفلام الروائية لنفس المؤلف.

1- **بنت باريز:** أول عرض 1950/4/3 أنما في الفيلم: الوجوه المقنّعة (فتحي قوره لحن وغناء محمد فوزي – استعراض من باريس (فتحي قوره لحن وغناء محمد فوزي – الغرام هوّ (أبو السعود الإبياري لحن محمد فوزي غناء عزيز عثمان).
2- **اه من الرجالة:** أول عرض 1950/2/6 لا وجود لأسماء مؤلفي الكلمات في الموسوعة والأغاني كلها من تلحين وغناء محمد فوزي وهي: خالي يا قلب – آه من الستات – يا سمره.
3- **غرام راقصة:** أول عرض 1950/9/18 شاركه هذا الفيلم نور الهدى أغاني الفيلم: الجواب (مأمون الشناوي) عايز أقولك – ألف ليلة – إنها السماء (فتحي قوره) يا أم الخال (مصطفى السيد). ولا ندري أي من هذه الأغنيات غنتها نور الهدى.
4- **الزوجة السابعة:** أول عرض 1950/4/10 شاركه في الفيلم شادية وإسماعيل ياسين) أغاني الفيلم: عالباب أنا (مأمون الشناوي لحن وغناء محمد فوزي) تخاصميني تصالحيني (مأمون الشناوي لحن وغناء محمد فوزي) قاعد لوحدك (مأمون الشناوي لحن وغناء محمد فوزي) – يا سلام على جو الريف (فتحي قوره لحن وغناء محمد فوزي مع شادية وإسماعيل ياسين) كتبوا كتابها (فتحي قوره لحن محمد فوزي غناء شادية).
5- **الأنسة ماما:** أول عرض 1950/7/10 شاركه الفيلم صباح وإسماعيل ياسين وسليمان نجيب. ورد في موسوعة الأفلام أن كلام الأغاني لأبو السعود الإبياري وفتحي قورة دون أية تفاصيل أخرى. أغاني الفيلم: أنا خدام تراب رجليكي (أغنية

نوبية غناها نوبيّون) – هنا القاهرة (صباح) ما أعرفش (صباح) ليه يا ماما (غناء محمد فوزي وصباح بالاشتراك مع سليمان نجيب – استعراض أبطال الغرام (غناء محمد فوزي صباح – إسماعيل ياسين) – وجع قلبي (غناء جمالات كُفتي) – يانا يا انت يا قايد ناري (محمد فوزي) – يا عيني على قلبي (محمد فوزي).

1951

1- **الحب في خطر:** أول عرض 1951/7/2 أغاني الفيلم يا سلام يا سلام (بيرم التونسي – محمد فوزي) – شوف أنا فين – شاغلتوا بعين – آه من الحب اللي يحيّر (غناء صباح) ديالوج انت جيت (محمد فوزي مع صباح) الغيرة ليه والحيرة ليه (محمد فوزي) وإسكتش يا جنينة الغرام (غناء محمد فوزي – صباح – وإسماعيل ياسين).

2- **نهاية قصة:** أول عرض 1951/9/1 أغاني الفيلم : من نظرة عين (عبدالعزيز سلام –محمد فوزي) – إسكتش يالى انت عايز تعرف إيه (عبدالعزيز سلام – محمد فوزي مع إسماعيل ياسين) جمالك بيزيد فى عينيّا (مصطفى السيد –محمد فوزي).

3- **ورد الغرام:** أول عرض 1951/12/10 شاركه في هذا الفيلم ليلى مراد أغاني الفيلم: ديالوج شحات الغرام (بديع خيري لحن محمد فوزي وغناه مع ليلى مراد) – ديالوج فيه حاجة شغلاني (مأمون الشناوي لحن محمد فوزي وغناؤه مع ليلى مراد) – ليا عشم (بديع خيري لحن وغناء محمد فوزي) – انت مين انت (مأمون الشناوي لحن محمد فوزي غناء ليلى مراد) يا شاغلني وأنا شاغلاك (فتحي قورة لحن محمد فوزي غناء ليلى مراد) تانجو يا للي شغلتى القلب (فتحي قورة لحن وغناء محمد فوزي وليلى مراد).

1952

1- **من أين لك هذا:** أول عرض 1952/6/9 شاركه في الفيلم مديحة يسرى وإسماعيل ياسين) أغاني الفيلم: ديالوج يا بختك يا قلبي (محمد فوزي وإسماعيل ياسين) حبيبي حلفني قلبي اجيلك (محمد فوزي) – حبك خلاني روح من غير جسد (محمد فوزي) – ازاي وامتى وفين (محمد فوزي) لا ذكر للأغاني في موسوعة السينما.

2- **يا حلاوة الحب:** أول عرض 1952/10/29 أغاني الفيلم كما وردت في موسوعة الأفلام من دون ذكر أسماء المؤلفين فيه هي : الفنون تجيب الجنون – قالولي – فين قلبي – استعراض علاء الدين – يا سلام على حبك – مفاتيح القلوب.

1953

1- **ظلموني الحبايب:** أول عرض 11/3/ 1953 شاركته الفيلم صباح أغاني الفيلم حبيبي (مأمون الشناوي –محمد فوزي) قوم يا حبيبي (مأمون الشناوي – محمد فوزي) – دقة قلبي (مأمون الشناوي –محمد فوزي) –ديالوج ظلموني الحبايب (مأمون الشناوي –محمد فوزي وصباح) – ياللى بفكر فيك (فتحي قوره لحن محمد فوزي غناء صباح وشكوكو).

2- **ابن للإيجار:** أول عرض 1953/9/3 أغاني الفيلم وكلها من نظم مأمون الشناوي وألحان وغناء محمد فوزي أنا أخوك – يا مين يقول لها – احنا عشاق النور – الحلم – ويلك ويلك يا مشتاق.

3- **فاعل خير:** أول عرض 1953/3/21 أغاني الفيلم: لا ذكر لأسماء المؤلفين. مال القمر ماله – السعد واعدني – روحي (اسمه الهوى) – ديالوج أنا عايز مثلا مع صباح –مين شاغل قلبي.

1954

1- **دايما معاك:** أول عرض 1954/8/2 شاركه الفيلم فاتن حمامه وعبدالوارث عسر. أغاني الفيلم لم تذكر في موسوعة الأفلام وهي : والله والله يا حلو زمان.

طير بينا يا قلبي – اللي يهواك اهواه (يشاركه في الغناء المذاهب عبدالوهاب عسر وفاتن حمامه) – اللي جرالك كان ياما كان.

2- **بنات حوا:** أول عرض 1954/3/1 شاركه في الفيلم شادية وإسماعيل ياسين أغاني الفيلم: أنا بنت حلوه (صالح جودت – غناء شادية) – يا جار القلب (صالح جودت لحن وغناء محمد فوزي) – لقيته (أبو السعود الإبياري – غناء شادية) الأزياء (أبو السعود الإبياري – غناء محمد فوزي شادية وإسماعيل ياسين – تعب الهوى قلبي (فتحي قورة غناء محمد فوزي) – الموال.

1955

1- **ثورة المدينة:** أول عرض 1955/10/3 لم يرد في موسوعة الأفلام أسماء مؤلفي الأغاني. الأغاني يا جميل ياللى هنا – البحر – الفرح – عدد الليالي – جاني اللى بحبه – أخاف عليك.

1956

1- **معجزة السماء:** أول عرض 1956/3/19 لم ترد أسماء مؤلفي الأغاني في موسوعة الأفلام. الأغاني: مامبو فين اللى شغل بالى – ذهب الليل – مع مجموعة الأطفال وكلمني طمني وهي الأغنية التي سجلها من دون مصاحبة فرقة موسيقية بل استبدل الفرقة بكورال يغني اللوازم ويصاحب الغناء الفردي – ليالي الشوق.

1959

1- **ليلى بنت الشاطئ :** أول عرض 1959/1/12 شاركته في الفيلم فايزة أحمد. ولا ذكر لأسماء مؤلفي الأغاني في موسوعة الأفلام. الأغاني: يا ناري جود– يا ميت قدامي (موّال) يا الأسمراني (ألحان محمد الموجي – غناء فايزة أحمد) ليه يا قلبي (محمد الموجي – فايزة أحمد) – صعبان علىّ – أي والله – الشوق الشوق (كلها لمحمد فوزي) .

2- **كل دقة في قلبي:** أول عرض 1959/2/9 آخر فيلم لمحمد فوزي شاركته فيه المطربة نازك أغاني الفيلم : كل دقة في قلبي (عبدالعزيز سلام لحن محمد فوزي غناء نازك) – ايه جرالك (محمد حلاوه – لحن محمد فوزي – غناء أحمد فؤاد) حبيبي وعينيا (محمد حلاوة – لحن وغناء محمد فوزي) – يا حبيبي (محمد حلاوة – لحن وغناء محمد فوزي – انت يا أمي (عبدالعزيز سلام – لحن محمد فوزي غناء نازك).

هذا بالنسبة لأفلام محمد فوزي أما بالنسبة لأغانيه فإن هذا المبحث لا يتّبع لتحليلها لكثرتها أولا ولكثرة الممتاز فيها ثانيا ولأن هذه الأغاني الممتازة المختارة من بين جميع أغانيه تستحق الاهتمام الكبير. لذلك أتركها لمبحث آخر أخصصه لتحليلها وإبراز مناطق الجمال فيها.

وصية محمد فوزي

على فراش الموت وتحديدًا يوم 20أكتوبر 1966 وهو شعر بدنو أجله كتب محمد فوزي رسالته –الوصية– وجاء في هذه الرسالة: منذ أكثر من سنة و أنا أشكو من ألم حاد في جسمي لا أعرف سببه، بعض الأطباء يقولون إنه روماتيزم والبعض يقول إنه نتيجة عملية الحالب التي أُجريت لي. كل هذا والألم يزداد شيئا فشيئا... واحتار الأطباء في تشخيص هذا المرض، وأنا أحاول إخفاء آلامي عن الأصدقاء... حتى الحقن المسكنة التي كنت أُحقن بها لتخفف الألم بدأ جسمي يأخذ عليها وأصبحت لا تؤثر فيّ. وبدأ الأهل و الأصدقاء يشعرون بآلامي وضعفي وأنا حاسس أني أذوب كالشمعة. وأضاف تحياتي لكل إنسان أحبني ورفع يده إلى السماء من أجلي... تحياتي لكل طفل أسعدته ألحاني ... تحياتي لبلدي... وأخيرًا تحياتي لأولادي وأسرتي. واختتم الرسالة بجملة رهيبة يتنبأ فيها بيوم موته: "لا أريد أن أُدفن اليوم، أريد أن تكون جنازتي غدًا الساعة 11 صباحًا من ميدان التحرير، فأنا أريد أن أُدفن يوم الجمعة". وتحقق ما تنبأ به

ومات في نفس اليوم الذي كتب فيه رسالته وهو الخميس 20 أكتوبر ودفن في اليوم التالي الجمعة 21 أكتوبر.

وتذكّر في هذه الرسالة – الوصية المفجعة برسالة وصية أخرى كتبها أحد أعظم الشخصيات الموسيقية التاريخية وهو بيتهوفن عندما شعر بأن الصمم يغزو أُذنيه دون هوادة، وأن علاجه بات مستحيلاً وكذلك وقف تدهور الوضع. وكان بيتهوفن في الثامنة والعشرين من عمره فلجأ إلى قرية هايلجنشات وهي ضاحية من ضواحي فيينا وكتب هناك وصيته التي تعرف بوصية هايلجنشات والتي يُعلم أخويه كارل وبوهان بعزمه على الانتحار الوصية 6 أكتوبر 1802. ولكن إذا كانت شخصية بيتهوفن الجبارة قد ساعدته على تخطي هذه الكارثة، وعلى الاستمرار في الحياة والعطاء الفني العبقري لغاية وفاته سنة 1827 فإن المرض كان أقوى من فوزي ومات كما تنبأ في العشرين من أكتوبر سنة 1966 ولنلاحظ أن وصيتي الفنانين بيتهوفن ومحمد فوزي كتبتا في شهر أكتوبر.

خلاصة

بالرغم من مرور 52 سنة على وفاة محمد فوزي فإنه ما يزال وسيظل يحتل مساحة واسعة وكبيرة في وجداننا الموسيقي والثقافي العربي والقومي وهو واحد من الذين شكلوا تاريخنا الثقافي والحضاري الموسيقي في القرن العشرين بأفلامه التي أبدع فيها تمثيلاً وتلحينًا وغناءً، وفي ألحانه لغيره من المطربين والمطربات التي تعتبر من أهم ما قدموه في تراثهم الغنائي.

العربي والعالمي
في التجارب الموسيقية المعاصرة

د. فــراس الطرابلســي

أ. مساعد المعهد العالي للموسيقى، جامعة صفاقس – تونس

مقدّمة

إنّ الأسئلة في العلوم الموسيقيّة لا تنتهي، ومهما كانت بساطتها–في الظاهر– أو درجة عمقها في طرح الإشكاليّات، فهي على غاية من الأهمّيّة ومركزيّة أحيانا في فهم موضوعات متعلّقة بمجالات معرفيّة أخرى (التاريخ والأنتروبولوجيا وعلم النفس والسياسة والاقتصاد أحيانا...). ومن بين الأسئلة التي يمكن طرحها ونقف أمامها بدون إجابات شافية في ظل ما يحوم حولها من تباين في الرّأي نتيجة اختلاف الرؤى والمستويات الثقافية للمتكلّمين في الموضوع، تلك المتعلّقة بمفهومين أساسيين هما "العالمي" و"المحلّي" في الموسيقى، إذ كيف يمكن أن تكون موسيقى ما "عالميّة"؟ ومتى نكتفي بنعتها بأنّها محلّيّة؟ وما هي مقاييس العالمية؟ وهل أنّ ما هو غير عالمي بالمعايير "المتفق عليها" –والتي سنتحدّث عنها تباعا–لا يحمل العناصر التي بها يكون عالميّا؟ ثمّ ألا تكفي الموسيقى وهي على حالتها التي نشأت فيها أن تكون عالميّة بعناصرها المحلّيّة؟ ألا يكفي امتداد النظام المقامي مثلا في جغرافيّات موسيقية لا نقدر على حصرها – والذي تدخل الموسيقى العربية في تمثّلاته– بأن نقول بأنّها حتما عالميّة؟ أليست هنالك عوامل أخرى غير موسيقية أصبحت تتدخّل بقوّة في تحديد عالميّة الموسيقى من دونها؟ كل هذه الأسئلة سنسعى للإجابة عنها في هذه الورقة بمنهج تحليلي تدريجي ينطلق من مسائل متعلقة بالمصطلح نحو الحديث عن تجربة موسيقية عربية معاصرة تدعم رأينا في إحدى أهمّ قضايا الموسيقى العربية.

1- مفهوم "العالمي" في المجال الموسيقي وموقع الموسيقى العربية فيه

لا يخفى أنّ كلّ دراسة علميّة في أيّ مجال كانت وفي أيّ موضوع يُطرح، تعمل في البداية على بسط مسألة المصطلحات والمفاهيم الرئيسية المتعلّقة بمجال بحثها وتوضيح سياقاتها بما لا يُخرج سيرورة الاستدلال والحجاج صُلبها من إطارها المنهجي العام. وبالتالي الابتعاد عن كلّ تضارب أو تناقض في الرّأي أو خلط فادح في المفاهيم.

ولقد ارتأينا في البداية أن نقوم بمحاولة لبسط إحدى أهمّ مصطلحات هذه الورقة ونقد طرق توظيفها واستعمالها في دراساتنا وحواراتنا العلمية صُلب الاختصاص الموسيقي، وفهم مدلولاتها باعتماد منهاج حجاجي يعوّل على نماذج ودعائم من المدوّنة الموسيقية الحديثة. فبعد قراءتي المتأنّية لعدد من الدّراسات المتقاطعة مع محتوى ورقتي هذه، قدّرتُ أن يكون العنصر الأوّل حول مصطلح ضبابيّ متكرّر في أغلب تلك الدراسات الموسيقية وهو "العالمية" كمصطلح دارج في أدبيّات المشهد الثقافي والموسيقي العام، إضافة إلى أنّه أساسيّ في الورقة التي اخترتُ تقديمها; وذلك بمحاولة نقد طرق توظيفه واستعماله في دراساتنا وحواراتنا، وفهمنا لمدلولاته.

1-1 "العالميّة": المفهوم المتحرّك

تساءل المفكّر "هشام جعيّط" في مطلع أحد أهمّ كتبه الذي وضع له عنوانا انبثقت منه إشكاليات هامّة وحسّاسة وهو"أوروبا والإسلام" قائلا: "كيف يمكن تبرير دراسة تقارن بين مفهومين، أحدهما ذو أصل جغرافي بحت، والثاني ذو أصل ديني بحت؟"(...) لكنّ أوروبا حاليّا قد امتدّت خارج مساحتها. إنّها تشكّل من وجهة النظر هذه، المرجع التاريخي لأمريكا واستراليا وحتى لروسيا"[1]. ولقد وضع الرجل إصبعه على قضية رئيسية ذات أبعاد أيديولوجية وسياسية وحضارية وثقافية وربّما نفسيّة أحيانا. إذ أنّ مثل هذه

(1) جعيّط (هشام)، أوروبا والإسلام: صدام الثقافة والحداثة، بيروت، دار الطليعة، الطبعة الثانية، ماي 2001، ص.5.

المقارنات أصبحت دارجة في العديد من البحوث والمقاربات التّحليلية وفي المؤتمرات والملتقيات العلمية، ولكن يغيب عنها التّفكيك والتّبرير الذي ذهب إليه المفكّر "هشام جعيّط" في مقاربته التّأريخية النّقدية.

وهو ما دفعني إلى إعادة طرح سؤاله بما يتماشى مع إشكالية المبحث الذي أتناوله بالطّرح في هذه الدّراسة:

كيف يمكن تبرير دراسة تقارن بين مفهومين، أحدهما ذو أصل عرقي–لغوي بينما لا تضبط الثاني أيّ محدّدات جغرافية ولا لغوية ولا دينية"("عالمي"). فكأنّ المقارنة هنا بين العالم كلّه من جهة وجزء محدّد منه (أي العربي) من جهة ثانية، وهو ما يموقع الجزء الثاني في المقارنة –ظاهريّا– أصغر وأقلّ قيمة وربّما أقلّ قدرا من حيث الإنتاج والإبداع.

بينما يعرف كلّ العالم أنّ تلك الرّقعة العربية التي نتحدّث عنها هي إحدى أغنى الفضاءات الجغرافية في العالم بأجمعه ، وحولها تدور أغلب الصّراعات والحروب في العالم. فالمجال العربي هو مجال "عالمي" على مستوى الخيرات الماديّة والباطنيّة، غير أنّ المصطلح بهذا المعنى غير مستعمل ولا نراه حاضرا إلاّ عندما يتّصل بالشعوب المنتصرة والمتقدّمة علميّا وتقنيّا واقتصاديّا في الوقت الحالي، إذ لا يفترض المنطق أن يمتدح "الغالب" "المغلوب"[2] أو يصفه بنعوت تُعلي من شأنه.

لذلك فإنّ مصطلح "عالميّ" متحرّك بتحرّك القوى العسكرية والاقتصادية والعلمية عبر التاريخ. ألم تكن الحضارة العربية بهذا المعنى في زمن الانتصارات العسكرية والفتوحات حضارة عالميّة قويّة بكلّ المقاييس(عسكريّا وثقافيّا وعلميّا ونفسيّا)؟

ولقد أدّى تحرّك هذا المصطلح في علاقته بالتّحصيل التقني والعسكري والعلمي والاقتصادي اِلتصاقه –نتيجة لذلك–بعبارات ومصطلحات ذات مدلول ثقافي إبداعي، وهو ما زاد في تعقيد الأمور في ظلّ ما يشهده العالم من تسارع في مظاهر الحداثة وفي

(2) مصطلحات استعملها "ابن خلدون" في مقدّمته في حديثه عن مبادئ العمران البشري.

تغيّر الثوابت عند بعض المجتمعات. وبالتالي أصبح الإبداع عالميّا لمجرّد أنّه يولد في مجال جغرافي "عالميّ" بمقاييس القوّة العسكرية والتقنية والماديّة! وخاصّة إذا كان الإبداع فنّيّا أو موسيقيّا بالتّحديد، حتّى أنّ تلك المقاييس(مقاييس القوة) أصبحت معيارا معتمدا حتّى لدى من يمتلك جزءا منها فقط مثل الشركات العملاقة(كقوّة مادّيّة) التي "لا يشغلها نبل رسالة الموسيقى، فشغلها الشاغل هو فرض الأوضاع والأنواع الموسيقيّة التي تدرّ عليها أرباحًا فلكيّة"[3]فتسعى إلى ترويجها وتوزيعها بما يضمن ذلك تحت عنوان "العالمية".

كل ذلك دفع بنا إلى طرح السؤال التالي:

2-1 هل توجد موسيقى عالمية وأخرى غير عالميّة؟

يجب أن نقتنع أنّ هذا السّؤال لا يمكن طرحه دون التّعرّض للقضيّة التي أدّت إلى طرحه أصلا، وهي قضيّة "الهويّة" و"الغيرية". هما مصطلحان تتفتّق عنهما جلّ مشاكل الأمّة العربية في علاقتها بنفسها وبالآخر في أغلب مجالات المعرفة والفنون، وهي مشاكل تتلخّص في كيفيّة فهم هذه الأمّة لماضيها وحاضرها وكذلك في قدرتها على خلق علاقات ثقافية مع محيطها وجيرانها سواءٌ في أوروبا أو آسيا أو إفريقيا أو أمريكا الجنوبية.

في الحقيقة، كلّ ثقافة تحاول–ونحن في زمن ما بعد الحداثة– فرض حضورها عبر كلّ الوسائط الممكنة، غير أنّ ما يُكبّل الثقافة العربية هو علاقة الإبداع الفني فيها والموسيقي تحديدا بمسألة "الهوية والأصالة". وحتّى لا نعمّم، فإنّ هناك شقًّا يرى أنّ العمل الموسيقي في عالمنا العربي لا يولد ولادة طبيعية بل يخضع قسرا لولادة قيصرية تتحكّم فيه ضوابط يمليها على المبدع ذلك "الماضي الأصيل"، فيظهر المولود في الغالب

(3) الخولي(سمحة)، الموسيقى والعولمة(ترجمة وتقديم كتاب سايمون ماندي)، الطبعة الأولى، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، 2003، ص.7.

مريضا منكسرا –شأنه شأن عديد المحطّات التاريخية في الماضي القريب على الأقلّ–لا علاقة له بالحاضر إلاّ الفترة الزمنية التي أنجز فيها. وهكذا تكوّنت أرصدة موسيقية لا تعبّر عن حاضرها بل تكتفي باستدعاء الماضي قريبا كان أو سحيقا، نتيجة عقليّة نخبويّة أوعامّة لا ترى في التثاقف وفي الآخر بل حتّى في "الحداثة" سوى اعتداء على هُويّتها، فلا تسعى إلى مدّ الجسور مع الثقافات الأخرى"[4]

المشكل هنا، أنّ التواصل الثقافي أصبح منذ سنوات يتّخذ بفضل مظاهر الحداثة التقنية في مستوى الصورة والصوت والتواصل المعلوماتي خطوات عملاقة نحو تقريب شعوب الكون بعضها إلى بعض لدرجة أنّ ذلك قد يساهم في تنميط الثقافات عوضا عن أن ينهل بعضها من بعض. وبالتّالي فإنّ الشّقّ الآخر يدخل هنا على الخطّ ليبدي رأيه قائلا إنّ "المعركة الحقيقية الآن، هي معركة فكرية وحضارية بالأساس، وهي لا تقلّ أهمّيّة عن المعركة الاقتصاديّة أو المعركة المسلّحة–إن لم تكن أساسها–وإن الهزيمة المعاصرة هي في جوهرها هزيمة عقلية كما أنّها هزيمة عسكرية. فالخطر الدّاهم الآن ليس هو فقط ضياع الأرض بل قتل الروح وإماتتها إلى الأبد."[5]

وهذا القول كما بيّنه صاحبه "محمود قطاط" ليس متصلّبا في الاتجاه الذي يرفض التثاقف الموسيقي بين الشعوب والحضارات لكي تستمرّ وتتواصل ببصمة الحاضر، ولكنّه ينبّه إلى مركزية أوروبية مرجعية لكلّ شعوب شمال الكرة الأرضية، نتيجة تطوّر منظومات العدالة والحقوق والمعرفة والحرّية والفنون، جعلت العقل الأوروبي لا يقتنع بحضور هذه المنظومات بالطّريقة التي تمّ التّأسيس إليها خارج الرّقعة الأوروبية أو الفضاءات الجغرافية التي تمثل لها مرجعيّة تاريخية، وهو موقف "ينفي مسبقا قيام أيّ

(4) بشة (سمير)، الهوية والأصالة في الموسيقى العربيّة، تونس، منشورات كارم الشريف، مراجعة وتقديم: أ.د. منير السعيداني، الطبعة الأولى، 2012، ص.62.

(5) قطاط(محمود)، واقع الموسيقى العربية وتحدّيّات العصر، المجلة العربية للثقافة، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، السنة24، العدد48، 2005، ص14.

حوار، لأنّه يفرض على الغير اتباع طريق الحداثة الغربية وإلاّ فلا مستقبل له ولا حوار مُجْدٍ معه"[6]

وبين منغلق على نفسه رافض للآخر خوفا على ثوابته وأصالته(العرب) وبين سالب للآخر ورافض للحوار والتثاقف معه من منطلق القوّة والأفضلية الآنيّة(أوروبا)، بدأ يطفو –حسب تقديرنا–مصطلح "عالمي" في علاقته بمجالات المعرفة والفنون المختلفة، وذلك باعتبار كلّ إنتاج أوربي في الأدب والفنون هو إبداع عالمي و"يجب" على العرب النسج على منواله لتكون إنتاجاتهم "عالميّة"، ولا نقصد هنا الاستنقاص من الأعمال والإبداعات الأوروبية التي أثبتت الدراسات والبحوث والتاريخ نفسه جدارتها بأن تُنعَتَ كذلك.

غير أنّ المشكل قد يكمن في "المغلوب" الذي يتأثّر أيّما تأثير بغالبه، لدرجة أنّ هذا التّأثّر قد يصل أحيانا إلى الذوبان والاغتراب نتيجة اللهث وراء "العالمية" التي زعمتها "أوروبا" بمنطق "الأفضليّة" والقوة الاقتصادية والعسكرية والماديّة. وبالتالي أصبحنا إزاء عالميّة شبه مزيّفة تعود بنا مُجدّدا إلى مربّع "الهويّة والأصالة"، لأنّها لم تنبع من تجربة الذات وتفاعلها مع الماضي والحاضر بل استمدّت حضورها من تقليد أعمى للآخر باستحضار منظوماته الفكرية وإسقاطها على الذات.

ومن هذا المنطلق نعود للمسألة من وجهة نظر فلسفيّة بوقفة نطرح فيها ما يلي:

إذا قال أحدنا "أنا هو أنا" معرّفا بنفسه فإنّ "الأنا الأولى" التي تعّرف "الأنا الثانية" قيلت حتما في زمان غير الذي قيلت فيه "الأنا الثانية": "فالأنا الأولى" هي زمان أوّل يمثّل جملة من التداخلات الحضارية والتاريخية والأنتروبولوجية التي ساهمت في نحتها، أمّا "الأنا الثانية" وهي زمان ثانٍ تمثّل الحاضر أو زمن القول بالذات. وبالتالي أن ينجز المبدع عملا ما ليقول هذا "أنا" فيجب على العمل الإبداعي الذي سيعرّف "الأنا" أن

(6) بشة(سمير)، المرجع نفسه، ص.63.

يكون من منطلق فلسفي فكري حاملا لجملة من التداخلات الحضارية والتاريخية والفكرية الماضية والحاضرة مترجمَة في عمله حتّى تكون قادرة على بسط تعريف يليق "بالأنا" التي يعرّفها.

بناء على ذلك، نتساءل هل توجد حقّا موسيقات "عالميّة" وأخرى "غير عالميّة"؟ أم أنّ هذا المعيار الغربي الأوروبي مجرّد وهمٍ خُلق من أجل تكوين "مبدعين" منصاعين لمبادئ العولمة، محقّرين لذواتهم أو قل لكلّ ما ينبع خارج تلك المنظومة ولا يستعمل أدواتها(إعلاميّا وصورةً وصوتًا وطابعا صوتيّا وآلات وترويجا وذوقا...)؟ ألا تبدو عقليّة الغزو بهذا المعنى "متمركزة في أفكارنا وأعمالنا وسلوكنا، نفتح لها الأبواب ونرتمي في أحضانها ونسخّر لها الإمكانات ونستميت في الذّود عنها"؟ وبالتالي "العيب يكمن فينا وليس في الغير الذي من حقه فرض ثقافته ونشرها واعتبار ذلك واجبا مقدّسا...وهو في هذه المسألة بالذات حريّ بأن يكون قدوة وعبرة"[7]

بدأنا نثبت الآن شيئا فشيئا أن لا وجود لموسيقى بمعايير عالمية(إيقاعا ولحنا وتصوّرا فنّيّا) وإنّما هي "عالميّة" قائمة على القوّة السياسية والإعلامية وعلى فرض نمطيّة ثقافية يُرادُ ترويجها تحت هذا العنوان لطمس التنوّع والثّراء الثقافي العالمي. وفي هذا الاتجاه يُفترض أن تكون أغلب موسيقات العالم "عالميّة" بما تتيحه لها عناصرها الموسيقية الأصليّة، ومنها الموسيقى العربية –طبعًا– التي تجتمع فيها منظومات مقامية وسُلّميّة ثريّة بثراء المكوّنات البشرية للفضاءات الحضرية والسّاحليّة والجبليّة والصحراوية الشرقية والمغاربية. ألا يكفي امتداد النظام المقامي مثلا في جغرافيّات موسيقيّة لا نقدر حتّى على حصرها – والذي تدخل الموسيقى العربية في تمثّلاته– بأن نقول بأنّ مختلف الأنماط الموسيقية المقامية هي حتما عالميّة؟ أم أنّه يجب على هذه الموسيقات أن:

* تُتاح لها فرصة الظهور على شاشات الفضائيات الأوروبية والمهرجانات الدّوليّة الغربية حتّى تكون كذلك(أي عالميّة)؟

(7) قطاط(محمود)، المرجع نفسه، ص26.

*تُوظِّف آليات الموسيقى الغربية الكلاسيكية(التوافقات والهارموني) أو الموسيقات الحديثة كالجاز والروك والـ RNB وغيرها حتّى تكون أهلا لتلك التسمية "الزائفة" ("عالميّة") وتستعمل الآلات الموسيقية الغربية عوضا عن إظهار الطّابع الصّوتي الحيّ للآلات الموسيقية المحلّيّة؟

سنحاول الإجابة عن هذه التساؤلات من خلال التّأمّل والقراءة في إحدى التجارب الموسيقية العربية الحديثة وبالاستئناس والمقارنة مع تجارب موسيقية من ثقافات مختلفة غاية التقييم وأخذ العبرة، وهو ما سنركّز عليه من خلال تجربة الموسيقي والمنشد والملحّن والعازف التونسي "ظافر يوسف".

2- **تجارب موسيقية عربية بين "المحلّيّة" و"العالميّة": "ظافر يوسف" أنموذجا**

2-1 **من هو ظافر يوسف؟** (8)

هو عازف على آلة العود ومنشد وملحّن تونسي منحدر من عائلة بسيطة في منطقة طبلبة. عُرف أجداده بأداء الأذان، لذلك يُعتبر إتقان الأداء الصّوتي تقليدا عائليّا تراثيّا عريقا فيها. تربّى في طفولته المبكرة على قراءة القرآن بحرص من والده، وبدأ يكتشف في الأثناء (منذ سنّ السّادسة) مساحة صوته العريضة، فأصبح يوظّف ذلك ترديد الأغاني التي كان يستمع إليها من خلال المذياع.

(8) تمّت صياغة هذا العنصر بالاستئناس بوثيقة من موقع world music هي عبارة عن سيرة ذاتية لظافر يوسف يمكن الاطلاع عليها من خلال الرّابط الإلكتروني التالي:
https://worldmusic.org/sites/default/files/Biography_91.pdf

ولقد انبهر بصوته مؤذّن الجامع المحلّي بمسقط رأسه آنذاك فشجّعه على تسجيل النّداء للصّلاة، فكانت تلك أوّل تجربة له تصافح فيها صوته مع الناس. ثمّ انضمّ إلى فرقة للإنشاد الديني بجهته ولكن سرعان ما انقطعت هذه المحطّة نظرا لما لاحظه من تسييس متزايد في أنشطة هذه المجموعة. بعد ذلك بدأ ظافر يتعلّم آلة العود بتردّده على "دار الشباب" في طبلبة وهناك تعرّف على آلات موسيقية أخرى مثل الغيتار الإلكتروني، وقد قاده ذلك إلى ممارسة الموسيقى في الأفراح الخاصّة.

وفي فترة لاحقة تمّت دعوته إلى المجموعة الصّوتية في فرقة راديو المنستير". ولفتح أفق جديدة في مسيرته إلتحق بالمعهد الوطني للموسيقى بتونس العاصمة(نهج زرقون) غير أنّه سرعان ما اكتشف أنّه غير راضٍ على طريقة التعلّم الموسيقي هناك، فهاجر إلى "النّمسا" ليخضع لتدريبات موسيقية من نوع جديد علّه ينفتح هناك على أفق جديدة وآفاق للتّألق والإبداع.

بالإضافة إلى ذلك ابتدأ مسيرة في البحث في العلوم الموسيقية ولكنّه انتبه إلى كون طريق "الموسيقى الأكاديميّة" ليس من أولويّاته وقرّر أن لا يعود إليها مجدّدا ويتفرّغ للموسيقى العمليّة.

كان يعشق موسيقى "الجاز" ومتأثّرا بموسيقات أخرى من العالم مثل الموسيقى الهنديّة. ابتدأ مشواره بالعزف في الفضاءات العامّة ومع فرق مختلفة إلى أن أسّس مجموعته الخاصّة "زرياب" مع عازفين من النمسا وكان له أن بعث أوّل ألبوم موسيقي خاصّ سمّاه "مسافر"The traveler سنة 1996 لقي نجاحا جيّدا بما خوّل له القيام بحفلات شهرية بأحد النوادي الثقافية المشهورة في النّمسا.

شيئا فشيئا بدأ في ملاقاة عازفين مختلفين من "إيطاليا" و"فرنسا" و"الفيتنام" ودول أخرى فبدأت تتفتّق قريحته في الإبداع والإنتاج الموسيقي أكثر فأكثر، وزاد عدد ألبوماته كالتالي:

- ألبوم ملاك(Malak)/(1998)

-ألبوم electric sufi(2001)

- ألبوم Digital prophecy(2003)

- ألبوم Divine shadows (2005)

- ألبوم Abu Nawas Rhabsody(2010)

- ألبوم DIWAN OF BEUTY AND ODD(2016)

كما خاض تجربة طريفة في الفترة التي بين 2011 إلى 2014 بالمشاركة في موسيقى الأفلام مع ملحّنين معروفين مثل "جايمس هورنر"JAMES HORNER وغيره.

2-2 ما يُميّز تجربة "ظافر يوسف" في السّياق "العربي"

عُرف "ظافر يوسف" بعد تراكم تجاربه الموسيقيّة وإنتاجاته الخاصّة المختلفة والمتنوّعة، بكونه أكثر عازفي آلة العود في العالم دعوة في المهرجانات الكبرى نظرا لما يتمتّع به من ريادة في دمج إبداعه كأحسن ما يكون ضمن تيارات الموسيقى المعاصرة اليوم بتوظيف التقنيات الحديثة ودعوة عازفين من ثقافات مختلفة والتفاعل معهم والتعاطي مع فرق موسيقية مختلفة باختلاف الرؤية الموسيقية التي يحدّدها في عروضه، وكذلك-وهذا الأهمّ- باستعمال حنجرته السّاحرة التي لا ينفكّ يخصّص لها حيّزا هامّا في أغلب القطع الموسيقية التي يلحّنها نظرا لما يُميّز مساحة صوته العريضة التي تتجاوز أحيانا كثيرة الديوان الثالث من درجة الارتكاز الخاصّة بالعمل الفني.

تُستهلّ جلّ أعمال "ظافر يوسف" الموسيقية بركيزتين أساسيّتين لا يتخلّى عنهما، فإمّا كلاهما باعتماد التتالي في الأدوار أو إحداهما، ونقصد هنا آلة العود والأداء الصّوتي، ويحرص "ظافر" على توظيف الخطاب المقامي بتناول مقامات مشرقية أو السّلالم ذات الأبعاد المنفصلة كالتي نجدها في الفضاء المغاربي-الصّحراوي والإفريقي. إذ أنّ كلّ معزوفاته تنحو في اتجاه إبراز الخطاب المقامي العربي كركيزة لها، وهو يستعمل في ذلك الحركات اللحنية لمقامات مختلفة مثل "النهاوند" و"الكردي" و"الحجاز"

والعجم والبياتي"... ويستأثر بهذا الخطاب المقامي لنفسه كمنشد وكعازف عود عربي، بينما لا يتبقّى لباقي العازفين المصاحبين له من ثقافات أخرى(مثل عازفي الإيقاع والكنترباص والبيانو والغيتار...) سوى المصاحبة بالارتجال والتفاعل الآني مع الجملة الموسيقية المحورية للعمل التي تدور كلّ الموسيقى المصاحبة حولها. وبالتالي ينجح "ظافر يوسف" في هذا المستوى في جعل الخطاب المقامي قادرا على "ابتلاع" المشهد الموسيقي بأكمله صُلب العرض واستقطاب المستمع(خاصّة إذا كان الأمر يتعلّق بعرض في مهرجان موسيقى الجاز) لصالح إبراز عناصر الموسيقى العربية، وهو عكس بعض التجارب الأخرى التي لا تستأنس بالموسيقى العربية إلاّ لتجعلها تذوب في التيّار الموسيقي الذي تعمل عليه ليصبح هذا التيّار أو ذاك هو المسيطر على الخطاب الموسيقي المقامي وليس العكس، أي أنّ "ظافر يوسف" في هذا الاتجاه يكسب الرّهان غالبا في جعل النّظام التونالي–رغم أهمّيته القصوى في إعطاء ثوب هرموني مميّز للعمل– يسير جنبا إلى جنب ومسايرا فقط للفكرة اللحنية المقامية الأساسية:

* مثال قطعة "رياح وظلال" winds and shadows(10 دق و25 ثانية) الرّابط الإلكتروني: https://www.youtube.com/watch?v=u5fVq9keLnA			
مراحل العمل	**الآلات المستعملة**	**الحّيز الزمني للخطاب المقامي والتونالي**	**المقام أو النظام السلمي**
1-عزف جماعي أركسترالي	1-الكمنجات والتشيلوات والبيانو	1- من البداية إلى51 ثانية(تونالي)	سلم مي بيمول صغير
2- ارتجال صوتي	2- الحنجرة + تدخلات للأوركسترا في آخر الارتجال	2- من ث.52 إلى دق3و12ث(مقامي)	النهاوند
3- عزف جماعي أوركسترالي	3- الأوركسترا + الكنترباص	3- دق3و13ث إلى دق 3و53ث(تونالي)	سلم مي بيمول صغير
4- عزف فردي مصاحب بالأوركسترا	4- آلة العود+الأوركسترا	4- دق3و54ث إلى دق6 و47(خطاب مقامي + استعمال السلم ذي الأبعاد المنفصلة)	- مقام النهاوند - سلم الأبعاد المنفصلة
5- عزف ثنائي مصاحب بالأوركسترا	5- آلة الغيتار + آلة العود + الأوركسترا	5- دق6و48ث إلى دق8و31ث(مقامي)	- مقام النهاوند

6- عزف جماعي أوركسترالي	6-الكمنجات والتشيلوات والبيانو + العود	6-دق8و32ث إلى دق10و25ث(تونالي)	-سلم مي بيمول صغير
الحصيلة		الخطاب المقامي: 8دق و57ث	
		الخطاب التونالي:1دق و28ث	

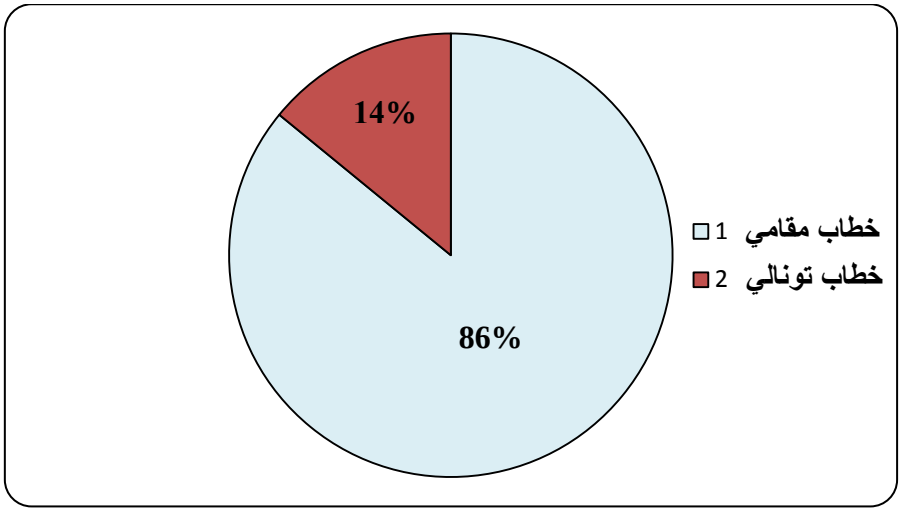

نسبة تداول الخطاب المقامي والتونالي في قطعة WINDS AND SHADOWS

يلاحظ المطّلع هذا الجدول بعد الاستماع طبعا والتّأمل في العمل الموسيقي أنّ الخطابان الموسيقيّان التّونالي والهارموني مصاحبان لكلّ العمل الموسيقي من بدايته إلى نهايته ولكنّ هُويّة العمل الموسيقي في نهاية الأمر هويّة مقاميّة بالأساس تجمع بين العربي وبين التّأثيرات الهنديّة والتّركيّة والإيرانية والموسيقى الصّوفية التي نشأ بين أحضانها "ظافر يوسف" بالإضافة إلى الخطاب المقامي الصحراوي–المغاربي الإفريقي، وهي تأثيرات موجودة في الموسيقى العربية نتيجة عوامل تاريخية وحضارية لا يمكن نكرانها، بيّنها "ظافر يوسف" بطريقته الخاصّة. وليس أدلّ على وجود تلك التّأثيرات في سياق الموسيقى التونسية، مثلا، من وجود نوبة مالوف بأكملها مثلا تحت مسمّى "رصد

العبيدي" في تونس كإشارة لالتصاق العنصر الإفريقي بثقافة الحضر والمدن، أو كذلك نوبة "الأصفهان" كإشارة لوجود تأثيرات فارسية على الموسيقى في تونس.

هي تأثيرات قد نذهب في اتجاه أنّ ظافر يوسف" نجح نسبيّا في استغلالها تعبيريّا ومقاميّا في إيصال جزء منها للمستمع الأوروبي بينما قبع الخطاب الموسيقي الكلاسيكي–المحلّي عاجزا عن إيصالها نظرا لوجود حلقة مفقودة قد تكون تقوقعه على الذات وقد تكون عدم أخذه بأسباب الحداثة ولكن قد تكون كذلك عدم استجابته لرغبات هذا "العالمي" والذوبان الكلي في منظومته الموسيقية ورغبته أن تكون عالميّته منطلقة من أصالته.

3- استنتاجات

أختم هذه الورقة بتساؤل لا أظنّه يغادر صدر القارئ بعد أن عرضت عليه جزءا ضئيلا من "تجربة" ظافر يوسف" وبعد التّأمّل في كلّ تجربة موسيقية ناجحة عرفت اتصالا بأوروبا أو كما يُصطلح عليه في العنوان الكبير للمؤتمر بـ"العالميّ":

هل كان ظافر يوسف لينحت اسمه ويظهر إشعاعه بهذا المستوى لو بقي في تونس؟ نفس الشيء يمكن أن نطرحه لو تعلّق الأمر كذلك بعازف العود التونسي ذائع الصّيت في أوروبا وأمريكا "أنور براهم"، وقس على ذلك مع أغلب العازفين والموسيقيين الملحنين في العالم العربي الذين تحوّلوا للعيش خارج بلدانهم الأصليّة ويتعاقدون حاليّا مع دور لطبع أقراصهم وألبوماتهم، ماذا لو بقى كل هؤلاء في فضائهم العربي المشرقي أو المغاربي، هل كانوا لينحتوا لأنفسهم هذا النّجاح؟

طبعا لستُ هنا لأجيب بالقطع نفيا أو تأكيدا، ولكنّي أقول:

إنّ بلداننا العربية تنقصها حلقات كثيرة حتّى يمكن لها أن تستقطب مبدعيها وتحتفظ عليهم، وهذه الحلقات جلّها يتعلّق بالجانب الفكري وموقع الثّقافة داخل المنظومة السياسية والاجتماعية.

لا يمكن أن ينتعش الإبداع الموسيقي داخل مجتمعات مازالت تتناقش مسألة تحليل وتحريم الموسيقى.

لا يمكن أن يكون الموسيقي "عالميّا" بالمعنى الذي يجعله قادرا على طرح إبداعه في الأسواق العالميّة لا بالمعنى التقني لشروط "العالمية" المجحفة، إلاّ إذا كانت الدّولة تحترم مبدعيها وتسعى لدعمهم وتضع استراتيجية لنشر الثقافة المحليّة لغايتين:

* تسويق صورة الثقافة المحليّة في صورة لائقة لاستقطاب الآخر وجعله يسعى للتبادل الثقافي.
* ضمان نشبة من الأرباح التي تضمن استمرار تلك الاستراتيجية.

المراجع:

* جعيّط(هشام)، أوروبا والإسلام: صدام الثقافة والحداثة، بيروت، دار الطليعة، الطبعة الثانية، ماي 2001، ص.5.
* الخولي(سمحة)، الموسيقى والعولمة(ترجمة وتقديم كتاب سايمون ماندي)، الطبعة الأولى، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، 2003، ص.7.
* بشة(سمير)، الهوية والأصالة في الموسيقى العربيّة، تونس، منشورات كارم الشريف، مراجعة وتقديم: أ.د. منير السعيداني، الطبعة الأولى، 2012، ص.62.
* قطاط(محمود)، واقع الموسيقى العربية وتحدّيات العصر، المجلة العربية للثقافة، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، السنة24، العدد48، 2005، ص14.

مواقع الواب:

https://worldmusic.org/sites/default/files/Biography_91.pdf

http://www.alhaya.ps/pdf/2011/7/5/page26.pdf

المفكرون في الأرض

شعبـــان يوســـــف

كاتب وباحث مصري - القاهرة

مما لا شك فيه، ولا جدال كذلك، أن الانسان بشكل عام، يسعى طوال حياته، منذ ولادته الأولى، حتى ساعة رحيله الأخيرة، كان ومازال يسعى_قدما_ من أجل توفير طعامه بشكل أساسى، وهذه وظيفة أوجدتها الطبيعة الأولى منذ بداية الخليقة، وكان الإنسان يحاول أن يهيئ لنفسه، ثم لعائلته، ثم لقبيلته، كافة الظروف المناسبة لتوفير ذلك الطعام وكافة المتطلبات المادية الأخرى، مثل الملبس ووسائل النقل والحفر وأدوات اتقاء الظروف المتقلبة للطبيعة، أي حماية جسده من برد الشتاء، وحرارة الصيف، وتعلّم الإنسان الأول عبر تجاربه البدائية، أنه كلما أبدع آلة جديدة، وفّر على نفسه مشقات كثيرة، واستطاع أن يدرك الفرق الذي ينتج عن إزالة تلك المشقات باختراع الآلة، فبالتأكيد أن حفر الأرض بالأيدي، يأخذ جهدا ومشقة وكدحا، أكثر مما يحدث له بعد اختراع الفأس البرونزية، والتي تحفر بقدر أكثر سرعة، وأكثر إنجازا وسهولة، ثم تطورت الآلة لكى تصبح محراثا تجره الدواب، إلى أن وصل الانسان في العصر الحديث إلى صناعة آلات أكثر تطورا لاختصار الأوقات الباهظة، وتوفير الجهود المضنية، والتي كانت تستهلك قدرا كبيرا من قوة الإنسان في كافة عصور تطوره.

كانت البشرية تعمل وفق تطورات وجهود مادية شبه محسوبة ومحددة بكل المستجدات والاكتشافات المادية الملموسة، بالتالي نشأت المجتمعات وتكونت، واستطاعت أن تنظّم نفسها في دول وممالك، وظلّت تتطور حتى وصلت إلى ذرى سياسية واجتماعية واقتصادية تحتاج إلى دساتير ونظم وشرائع ولوائح وقوانين، ومن ثم لا بد أن تكون هناك تلك الصفوة التي تضع تلك اللوائح والقوانين، وكذلك كانت هناك فئات، أشكالا وأفكارا متخيلة لكي ترشد

تلك الكتل البشرية نحو المستقبل، ومن هنا نشأت الفلسفات والأشعار والروايات والملامح، وعرفنا ما يسمى بجمهورية أفلاطون، ويوتوبيات أخرى ترسم للعالم القديم والحديث والمستقبلي حدودا ومعالم تكاد تكون مفرطة في الخيال. وبالطبع فالأحلام التي تقتحم الأرواح والعقول، أحلام مشروعة، وقابلة للتنفيذ، ف "لكل منا حياتان، حياة الواقع التي يعيشها الإنسان متأثرا بالوسط الزماني والمكاني وحياة الخيال التي يرغب في أن يعيشها، والفرق بين الحياتين هو فرق بين الموجود الناقص وبين المتخيل الكامل، أو بين ما هو موجود على الرغم منا وبين ما يجب أن يوجد وفق خيالنا وطين رغائبنا"[1].

فالفلاسفة والعلماء والأدباء كلهم يتخيلون ويحلمون ويكتبون ويشطحون، وفى كل واد يهيمون، وهم الأكثر جموحا وطرحا للأفكار الجانحة، والخيالات الجامحة، وتشتد حدة هذه الأفكار والأحلام إذا اشتدت المجتمعات انحرافا وميلا نحو العرج أو الفساد، أو إذا اضطربت المعيشة سياسيا وفكريا واقتصاديا، ففي كثير من مراحل تطور المجتمعات، نجد أن القوى البشرية تضيق بالقوانين المنظمة لحركتها، وتجد تلك القوى البشرية نفسها في صراع مع تلك القوانين والشرائع، فتثور، كمن يضيق عليه ثوبه، فيمزقه، ومن ثم يأتي دور المفكرين والفلاسفة الذين يتخيلون يبدعون ويشطحون وفقا لخبرات روحية عميقة وشاملة، خبرات مادية شبه ملموسة، "والفيلسوف ومن إليه من المفكرين يختلفون عن الكاهن المصري القديم، الذي يمثل أحلام سواد الأمة من حيث أنهم لا يجعلون ميدان حلمهم في العالم الثاني، فإن همومهم الذهنية مقصورة على هذا العالم والناس لا الملائكة في السماء هم موضوع كلامهم وخيالهم، فهم يرون من الخبط والخلط في الهيئة الاجتماعية ومن الظلم والإسراف في معاملات الناس ما يحثهم على اختراع نظام أوفى يضمن لهم أكمل ما يتوهمون من صور العدالة والصحة والعمار"[2].

(1) سلامة موسى: أحلام الفلاسفة، دار الهلال للطبع والنشر، 1926، القاهرة، ص7

(2) المرجع السابق ص 11،و12

وعلى هذه الوتيرة تبدع تلك الفئة التي تسمى بالشعراء والمفكرين والفلاسفة، تلك التصورات والقصص والقوانين واللوائح والشرائع، وكذلك النظم الاجتماعية والقصائد والروايات والمسرحيات، تلك البنايات الخيالية التي تحلم بكون أفضل أو أكثر خيرا ، ويحق لنا أن نتساءل :"ما الشعر؟ وعلى أي ملكة من ملكات النفس يعتمد؟ وما الفلسفة؟، وبأي ملكة من ملكات النفس تعتز؟ أليس الشعر لونا من ألوان التصور، وضربا من ضروب الحسّ والفهم ، أقل ما يمكن أن يوصفا به أنهما يعتمدان على الخيال قبل كل شيء؟ يعتمدان على الخيال، فيدركان الحقائق، ويحكمان على هذه الحقائق، لا كما ينبغي أن يحكما عليها، بل كما يستطيعان أن يحكما عليها"[3].

وهنا لا يبالغ طه حسين فيما ذهب إليه من التصورات والقصائد والنظم الفكرية والفلسفية التي ذهب واتبعها الشعراء والفلاسفة من قبل، وتحمّلوا أشكالا من الصلف والعذاب والتنكيل بهم، جرّاء ما ارتكبوا من حماقات، لأن الإنشاءات الفكرية غالبا ما تأتي عكس المستقرات التي أرساها القادة السياسيون والفاتحون والمستبدون، فأي تفكير جديد، أو حتى إشارة لتفكير جديد، ينذر بانقلاب في النظم الاجتماعية، والفكرية، والسياسية، والتاريخ مليء ومكدس بمن تعرّضوا لمثل هذه القصص من التنكيل والعذاب، منهم من ظلّ قابضا على اكتشافه وقناعاته وأفكاره، وذهب إلى حتفه راضيا ومقتنعا وربما كان صاغرا، مثل سقراط الذي تناول السم دون أي تردد، ومنهم من تراجع واستنكر اكتشافه بقسوة تحت التهديد الذي تعرّض له، مثل العالم "جليليو"، الذي اعترف خوفا أمام قضاته في المحكمة، بأن الأرض ليست كروية، وما ذلك القول إلا خدعة كبيرة، ومن ثم أنقذ حياته من العدم، ولكنه عندما خرج من المحكمة، وقف متأملا ما ومن حوله، ودقّ الأرض بعنف وهو يصرخ غير مصدق لما حدث وقال:"ولكنها تدور"!، ومن هنا عمل ما جعله يفلت من حكم القضاة الزائلين، وأنقذ حياته من بطشهم، حتى لو كان قد خالف ضميره، وبعيدا عنهم راح يصرخ بكروية الأرض لكي يرضى ضميره المطعون بما قاله، وبما ارتكبه قضاته.

(3) طه حسين، قادة الفكر، دار المعارف بشارع الفجالة مصر، 1929، ص31

ولا تفوت هذه الواقعة على فنان ومثقف كبير يدرك قيمة الحدث، فيحوله إلى دراما مسرحية عظيمة، الفنان هو الألمانى برتولد بريشت، والمسرحية هي "حياة جاليليو"، وفيها يدير حوارا لأوسع وأعمق كارثة بين العلم والدين والقضاء، فنحن وبريخت والتاريخ أمام رجل علّم العالم بأفكاره الثورية الجدية في عالم الميكانيكا والفلك، فأحدث نتائج خطيرة في علوم الاجتماع والفلسفة والسياسة أيضا، وتشعبت نظريته، إذ كان يلتقط التلسكوب البدائي، والذي كان يباع في أسواق هولندا، فيعمل على تطويره، ويقتحم به متاهات الكون، ويكتشف أسرار المشترى، ولم يعجب هذا رجال الدين والسياسة والعلم والقضاء، وتعرّض لأشكال من الضغط والإرهاب، وهذا جعله يتنازل عن أفكاره وينكرها، فتتراجع الدنيا وتهتز القيم، وتختنق كل الأنوار العلمية المتوهجة على سطح أوروبا المظلم"[4].

تعتبر حكاية سقراط وجاليليو من القصص والحكايات التي توزعّت على كافة المفكرين والشعراء والفلاسفة والروائيين الذين مرّت بهم البشرية، إذ أن لكل شاعر أو مفكر أو فيلسوف، حياتين، الأولى هي التي يبدع فيها الفنان أو المفكر كافة تصوراته الشعرية أو الفكرية أو الروائية، وعندما تصطدم تلك التصورات بالواقع، يختار الطريق التي تناسب قناعاته أو قدرته على المواجهة، ولدينا الشاعر العظيم إزرا باوند، وهو شاعر استطاع أن يتبوأ منصة عالية في قول الشعر وإنشاده وتأسيس مدرسة له، وعندما كان يعيش في إيطاليا أيام الفاشيستى موسولينى، راح ينتصر له ويشيد بإنجازاته ومذهبه وانتصاراته الأولى، "ويشير في أحاديثه إلى الرئيس الأمريكي ب(تلك القسوة)، وإذا تحدث عن الكابيتول_وزارة الدفاع_ قال (دورة المياه)، كما كان من عادته أن يشتم علماء النفس ذوي الأسماء اليهودية"[5]، ووقف في إذاعة الفاشيست لكي ينشر أفكار موسولينى، وعندما سقط موسولينى، وسقطت معه دولته وأفكاره، وديست تلك التوجهات الموسولينية الفاشية بأحذية المنتصرين، ادعّى

(4) برتولد بريخت، حياة جاليليو، مسرحية، ترجمة بكر الشرقاوي، دار الفارابي، بيروت، الطبعة الثالثة عام 1981، ص 8

(5) مجموعة من الكتّاب، عن جنون إزرا باوند وآخرين، ترجمة أحمد عمر شاهين، دار سندباد للنشر والتوزيع، القاهرة، 2001، ص24

باوند الجنون، وهذا نوع من التنصل التام لكل ما كان من ينتصر له من أفكار، لأن الحقيقة الطبية، والتي اتفق عليها أطباء كبار وكثيرون، ولكن بشكل شفوي، هي أن "باوند" لم يكن مجنونا، ولم يكن تائها، ولكنه كان خائفا من بطش القادة المنتصرين، وكذلك الشعب الذي أدانه بقوة، ويقول فولر توري: "..وتقارير علماء النفس مملوءة بملاحظات متفرقة عن محاولاته لتزييف الأعراض التي تنتابه، ويبدو أن محاولاته لم تنجح في استغفال الأطباء، فقد لاحظ أحدهم أن ضعفه وقتي.. يزول ويعود بالطريقة نفسها"[6] ولم يكن موقف إزرا باوند غريبا ولا مدهشا عن رهط كبير من المفكرين والفلاسفة والشعراء في التاريخ، وليس المتنبي بعيدا عن ذاكرتنا العربية، وكذلك عبد الرحمن ابن خلدون الذي تفاوض مع تيمور لنك، وكتب شعراء وروائيون حوله وعنه كتابات تفسر مواقفه تفسيرات مختلفة، منها رواية "رجل في القاهرة" للكاتب المصري أحمد رشدي صالح، والتي نشرت عام 1957 في القاهرة، وهي أول رواية تعالج موقف ابن خلدون من السلطة، ثم جاءت مسرحية السوري سعدالله ونوس "منمنمات تاريخية" عام 1994، ثم جاءت رواية "العلّامة" للمغربي سالم بن حميش، والبناءات الفنية الثلاثة عالجت علاقة ابن خلدون بالسلطة بطريقة مختلفة، وكان المغربي سالم بن حميش، أكثرهم تعاطفا معه، وتبنيا لما ذهب إليه، وكان رشدي صالح متأرجحا بين الإدانة والتعاطف، ولكن سعدالله ونوس لم يكن متعاطفا على وجه الإطلاق، بل اعتبر ابن خلدون خائنا بشكل كامل، ولم يتعاطف معه، حتى مع وفاة ابنه، ورأى أنه كان خادعا، وورط بلاده في الخديعة والهزيمة، على خلفيات شخصية كان يمكن له أن يتفادها، ويقفز عليها.

هنا لا بد أن ندرك المأزق الذي يقع فيه المفكر والشاعر والفيلسوف بين ما يصبو إليه، ويبدعه قبل أن يصطدم بالصخور السياسية والاجتماعية الواقعية، ولا نقصد تلك الصخور الكامنة في السلطة وعروش الحكم فقط، بل تلك الصخور التي تتوزع بين العروش والشعوب التي لم تكن _أحيانا_مؤهلة لاستيعاب ما يطرحه المفكر والشاعر والفيلسوف، فعلى سبيل

(6) المرجع السابق، ص 25

المثال: "سقراط كان قليل الميل إلى الديمقراطية، كما كان شديد البغض للاستبداد، عدوّا للأرستقراطية، وقد أغضب هذه الطبقة كما أغضب الشعب : أغضبها حين أبى على الطغاة الثلاثين ما أرادوه عليه من المعونة، وحين عرّض نفسه بذلك للخطر، ومن هنا لم ينته القرن الخامس حتى كان سقراط قد ألّب على نفسه الديمقراطية المنتصرة والأرستقراطية المنهزمة"(7).

هذان الموقفان النقيضان، لسقراط ولجاليليو، يؤديان إلى إدراكنا بأن الكتّاب والمفكرين والشعراء والفلاسفة لهم حياتان، الأولى هي التي يبدعون فيها وينشئون كتاباتهم وتصوراتهم وقصائدهم ومسرحياتهم بكل حريّة، أو ببعضها، وهذه حياة تكاد تكون بعيدة نسبيا عن تلك التوقعات التي تحدث بعد إعلان تلك القصائد والروايات والأفكار، وهي حياة أشبه ما تكون سماوية، وتغازل الخيال المحض، وكأنه حياة مغايرة، أما الحياة الأخرى، فهي التي يعيشها ويحياها ويتنفسها هذا الشاعر، وذلك المفكر، أي الحياة في الأرض، الحياة الواقعية، وهي التي تتجادل بقوة مع الحياة المتخيلة، والسماوية، والحياتان كثيرا ما تصطدمان، وربما يعمل الشاعر أو المفكر دوما على أن يستظهر حياته السماوية والمتخيلة، كما أنه يعمل على إخفاء حياته الأرضية والواقعية التي تظهر بعضا من سلوكه اليومي، وهناك من لا يخشى ذلك، وهناك من يحاول أن يتنكر لماضيه الذي وقعت فيه أحداث لا تتناسب مع الحاضر، سنجد مسارات وأسباب ومآزق شتى، تواجه المفكرين والشعراء والروائيين والفنانين، ورغم ذلك فالفنان والشاعر والروائي والفيلسوف، كل منهم يمارس حياته الإنسانية بالشكل الذي يتناسب مع ميوله وطبائعه وثقافته، فجان بول سارتر المفكر الوجودي، والروائي والمسرحي، كانت حياته العاطفية مع سيمون دي بوفوار، تسير بشكل طبيعي، رغم غرابة ما يحدث فيها، فهو يرد على أحد المحررين بعدما سأله قائلا :"لقد كرّست سيمون دي بوفوار صفحات عديدة عنك في مذكراتها، ولكنك لزمت الصمت من جانبك، وهذا يثير الدهشة، وكان ردّ سارتر مطولا، ومنه :"..منذ ثلاثين عاما.. لم ننم ذات ليلة، كما تقول، ونحن مختلفان، صحيح أننا

(7) طه حسين، مرجع السابق ص68و69

اختلفنا ذات مساء، ولكن الخلاف كان غبيا وسخيفا، فقد تغاضبنا، ولعلك لا تدرك السبب، وكانت القضية فلسفية، أو على الأصح بسبب قضايا لم تنجح في طريقة عرضها وإثارتها"[8].

وفى حوار مع سيمون دي بوفوار في العدد ذاته، وقد صدر هذا العدد بمناسبة الزيارة التاريخية التي كانت في شهر مارس من العام نفسه، وأوضحت بوفوار عديدا من المشكلات الغامضة التي كانت تشغل الناس، مثل كيف يعيش المفكر أو الأديب أو الشاعر حياته العادية، وأبانت بأنه لا يعيش طوال وقته شاعرا أو فيلسوفا، ولكنه يفكّر كمواطن تقليدي أحيانا، وفى مسألة الحب مثلا عند النساء قالت: "..النساء أقدر على التعاطف العميق، وهذا التعاطف هو أساس الحب، ولعل ذلك لأنني أحس بالمرأة من إحساسى بالرجال، ولهذا فشخصياتي النسائية أكثر ثراء من شخصياتي الرجال"[9].

وبالطبع فإنجازات جان بول سارتر، يعلمها القاصي والداني، ويدركها الشرقي والغربي، وهو الفيلسوف الذي عمل على تطوير الفكر الوجودي في الغرب، ثم شاعت أفكاره في العالم، وقاتل من أجل الحرية، وانتقد فكرة حرية المجموع في مواجهة حريّة الفرد، ورغم ذلك، ومن أجل ذلك، حارب جيوش النازي عندما اجتاحت كل أوروبا، وبالتالي كانت فرنسا هدفا رئيسيا له، باعتبارها واحة الحرية في العالم، وكتب مجموعة كبيرة من الروايات والمسرحيات، وكان أشهرها "دروب الحرية، وسجناء الطونا، والذباب، والغثيان، موتى بلا قبور"، كما كتب كتابه الرئيسي عن الفكر الوجودي، وكتب دراسات نقدية وفلسفية عن فلوبير وبودلير، وعن الفنان جياكومتى، وأصدر كتابه "الكلمات"، وانتصر لحقوق الثورة الجزائرية في مواجهة حكومة بلاده عندما رآها تستعمر الغير دون أي وجه حق، وكتب مقدمة رصينة وعظيمة للمفكر والمقاتل "فرانز فانون" لكتابه "معذبو الأرض، وكتب كتابا ضد حكومة بلاده للانتصار للشعب الجزائري، وفى حق لتقرير مصيره، وكان كتابه "عارنا في الجزائر"، بمثابة

(8) مجلة الهلال، فبراير 1967، القاهرة، ص 37
(9) المصدر السابق، ص 166

صرخة حق مدويّة في وجه الاستعمار الفرنسي خاصة، وفى وجه الاستعمار عموما، وقرر فيه :"ها نحن نصل إلى النقطة التي يهدم عندها النظام نفسه بنفسه: إن المستعمرات تكلّفنا أكثر مما نغلّ"[10].

لم يكن سارتر منفردا بتلك الحيوية، ولكن شاركته سيمون دي بوفوار، كذلك الفيلسوف الإنجليزي برتراند رسل، ومن قبلهم الكاتب والفيلسوف والمسرحي الأيرلندي برنارد شو، الذي انتصر للمصريين عام 1906، عندما كتب عن حادثة دنشواى، وهاجم الإنجليز بقوة شديدة، وكانت كتابته عن حادثة دنشواى، البوابة الواسعة التي عرف منها العالم كله بفضيحة الإنجليز، وتورطهم في قتل أبرياء مصريين لم يرتكبوا أي خطيئة.

هؤلاء الكتاب والفلاسفة وأصحاب الإبداعات الكبيرة، لم يقفوا مع أنظمة بلادهم، عندما رأوها تستعمر وتستعبد بلادا أخرى، تحت دعاوى التبشير أو الحماية، أو التنوير، وهناك من هللوا للاستعمار الفرنسي، أو الاستعمار الإنجليزي، على اعتبار أن ذلك الاستعمار سيحمل معه التنوير والحضارة لبلادنا، وربما يكون ذلك فيه بعض الصحة، ولكن شعوب المستعمرات أعطوا دروسا قاسية للمستعمرين، فدائما الاستعمار يأتي حاملا آلات النهب ومحو القومية بضراوة لكافة المستعمرات التي أقام فيها، وفى هذا الشأن يقول هنري لورانس في دراسته عن الحملة الفرنسية : "..إن نابليون بونابرت ترك مصر عائدا إلى فرنسا سرّا، لأنه لم يحقق حلمه الشرقي، فمصر الحقيقية ليست هي التي حلم بها هذا الفاتح"[11] ولدينا الجزائر نموذجا، والتي مكث فيها مائة وثلاثين عاما، والاستعمار الإنجليزي الذي مكث في مصر أكثر من سبعين عاما، وكما وقف سارتر في وجه نظام بلاده في الخمسينات، هناك ألفرد بلنت الإنجليزي، صديق الشيخ محمد عبده، دافع عن عرابي عند القبض عليه ونفيه خارج البلاد، وقاد حملة واسعة وقوية للدفاع عنه، وجعل المحامي "برادلي" يدافع عنه دفاعا مجيدا،

(10) جان بول سارتر، عارنا في الجزائر، ترجمة عايدة سهيل ادريس، دار الآداب، بيروت، الطبعة الثانية، 1958، ص 306

(11) د ليلى عنان، الحملة الفرنسية تنوير أم تزوير؟، دار الهلال، القاهرة، مارس 1998، ص100

ثم كتب كتابه العظيم "التاريخ السرى للاحتلال الإنجليزي لمصر"، وكشف فيه عن المؤامرات التي تم تدبيرها لكي تصبح مصر مستعمرة إنجليزية.

وإذا كان هذا شأن المفكرين والفلاسفة والمبدعين الغربيين، فحظيت بلادنا بشعراء وكتّاب ومفكرين حظوا بحيوات ثرية ومزدحمة، لدرجة أن تلك الحيوات كانت تصل إلى حدّ الاختلاف والتناقض، فالبدايات دائما ما تكون ساخنة وثورية أو متمردة، وفي لحظة تاريخية ما، ينكسر القوس الحاد، أو ينثني، وعندنا عباس العقاد، ود طه حسين، والشيخ على عبد الرازق، وتوفيق الحكيم، وخالد محمد خالد، ود مصطفى محمود، وصلاح عيسى إلخ.

وربما يكون توفيق الحكيم كان له النصيب الأعظم في إثارة المعارك والقضايا الحادة، ولا أعتقد أن الحكيم كان يثير هذه المعارك من أجل الشهرة، أو الاستعراض، فهو لم يكن محتاجا إلى ذلك، بل رافقته تلك الشهرة المحلية والعالمية منذ بداياته الأولى، وذهابه إلى فرنسا، وترجمة إبداعاته المسرحية أولا بأول إلى اللغة الفرنسية مباشرة، وكتب كتابيه المهمين "عصفور من الشرق"، و"زهرة العمر" كسيرة أدبية وذاتية بين الشرق والغرب، وحظى الكتابان بشهرة عالمية، وجلبا له أموالا طائلة، ورغم هذه الأموال، إلا أنه كان مشهورا بالبخل، أو هل هو بالفعل كان عدوّا للمرأة، أعتقد أن هذه إشاعات كانت تستوجبها أشكال الطرافة.

ولكن توفيق الحكيم الذي تأثر به الرئيس جمال عبد الناصر، وصرّح بذلك عندما قرأ روايته "عودة الروح"، وعندما جاءت حملة التطهير بعد ثورة يوليو 1952، وتضمنت الكشوف اسم توفيق الحكيم، والذي كان يترأس دار الكتب آنذاك، وكان التقرير يقول بأن الحكيم ليس كفؤا لقيادة هذا الصرح العظيم، اعترض جمال عبد الناصر على هذا الاستبعاد، واستثناه من التطهير، كذلك عندما هاجمه كثير من النقاد عام 1958، انزعج جمال عبد الناصر، وقرر منح الحكيم قلادة النيل.

وبالطبع كان الحكيم حكيما، ومنحازا لجمال عبد الناصر، وانتصر له في كل خطواته، وكتب في كل المناسبات مقالات تأييد، وهذا كان شيئا طبيعيا بالنسبة للحكيم، لأن النظام الناصري لم يكن في حرب معه، فكان الحكيم وثورة يوليو يتبادلان المحبة والغزل طوال

الوقت، وعلى مدى الثمانية عشر سنة التي حكم فيها عبد الناصر البلاد، ولكن الحكيم فاجأنا جميعا، وفاجأ الحياة السياسية كلها في يونيو عام 1974، أي بعد رحيل ناصر بما يقرب من أربعة أعوام، بكتابه الشهير "عودة الوعي"، وشنّ هجوما ضاريا على عبد الناصر وثورة يوليو والنظام الناصري كله، وزعم في مقدمة الكتاب :"لم يكن في عزمي ولا نيتي الإذن بنشر هذه الصفحات يوم كتبتها، كان دافعي إلى كتابتها في ذلك اليوم هو انقضاء عشرين عاما على ثورة يوليو، وتأملي هذه الفترة من تاريخ بلادي ، والجو من حولي مكفهر بالأحداث الأليمة، والصدور منقبضة بكابوس الهزيمة.."[12].

وبالطبع لا نستطيع أن نصدّق هذا الدافع الذي ساقه توفيق الحكيم، لأن الذي يريد أن يتأمل الثورة، لا ينتظر عشرين عاما، ولو تأملنا نحن تلك الفترة التي أعقبت حرب وانتصار 1973، جاهر كتاب ومفكرون كثيرون بفتح ملف ثورة يوليو 1952، وكتب أدباء ومفكرون كثيرون ذلك الملف بقسوة، وكان نجيب محفوظ قد كتب روايته "الكرنك"، والتي تحولت إلى فيلم فيما بعد أخرجه الفنان علي بدرخان، ودسّ في بداية الفيلم مشهد فرحة الجماهير بثورة التصحيح في 15 مايو 1971، وهذا المشهد لم يكن مرصودا في الرواية، ومازال وضعه في مقدمة الفيلم لغزا لم يفسّره المخرج حتى الآن، إلا أن تفسيرنا يمكن أن يكون جاء على سبيل الممالأة، وربما تكون الرقابة طلبته، كما كتب فتحي غانم روايته "حكاية تو"، وهي عن القائد الشيوعي شهدي عطية الشافعي الذي قتل في المعتقل من جراء التعذيب، ونشرت الرواية مسلسلة في مجلة روز اليوسف، كما صاحب هذه الروايات مجموعة من المذكرات للشيوعيين الذين كانوا معتقلين في أواخر الخمسينيات من القرن الماضي، ومنها "شيوعيون وناصريون" لفتحي عبد الفتاح، و"الأقدام العارية" لطاهر عبد الحكيم، وغيرها من كتابات متنوعة، أي أن الأمر كان حملة منظمة باقتدار على الهجوم على ثورة يوليو وجمال عبد الناصر، وكان كتاب الحكيم جانبا من تلك الحملة المدبرة في زعمنا.

(12) توفيق الحكيم، عودة الوعي، دار الشروق، القاهرة، 1974، ص 5

وكانت كلمات توفيق الحكيم صادمة بالفعل، واختصر الحكيم فترة جمال عبد الناصر في أنه كان يحكم وحده :"..ومن يدرس بعناية الأحداث السياسية والعسكرية والاجتماعية التي وقعت في مصر على مدى حكم عبد الناصر يجد أن المحرك الخفي الحقيقي لها، كان هو الانفعال ورد الفعل وليس التفكير الرصين الهادئ الرزين المبنى على بعد النظر"[13].

لم يمكث الكتاب طويلا حتى أثار جدلا واسعا، وكتب لطفى الخولي رئيس تحرير مجلة الطليعة، والكاتب المسرحي والمحلل السياسي، رسالة وجهها للحكيم، ونشرتها المجلة آنذاك، وسرد فيها كثيرا من أفكاره حول الحكيم، وفي نهاية الرسالة كتب: "إذن لماذا لا نتحاور_يا سيدى_ حوارا جادا منظما ومسئولا، بهدف الوصول إلى تشخيص موضوعي للتجربة والواقع بهدف فرز الإيجابيات عن السلبيات واستشراف طريق المستقبل: معطياته ، احتمالاته، مخاطره، ضماناته"[14].

بعد هذه الرسالة التي وجهها لطفي الخولي باسم اليسار، وذلك لإجراء حوار مطول معه، وردّ الحكيم على الرسالة فورا، ووافق على إجراء ذلك الحوار، وبالفعل بدأت المحاورات مع الحكيم، واستمرت تلك الحوارات تنشر على مدى تسعة أشهر في المجلة، وشاركت فيها كوكبة من المفكرين اليساريين منهم أحمد عباس صالح وأبوسيف يوسف ولطيفة الزيات ومراد وهبة ومحمد سيد أحمد وخالد محيي الدين، وغيرهم، وكان حوارًا مثمرا للغاية.

وإذا كانت مجلة الطليعة استجابت بشكل هادئ للحملة المدبرة للهجوم على عبد الناصر وثورة يوليو، جاءت كتابات أخرى حادة وجارحة بشكل شديد اللهجة، وأشهرها كتاب "الوعي المفقود" للكاتب والمفكر محمد عودة، والذي قدمه بعبارة نقول: "قال الموسيقار الشاب للمايسترو الكبير: (بالنسبة لتوسكانينى الفنان فإنني أحني رأسي، وبالنسبة لتوسكانينينى الإنسان..)، وهنا خلع حذاءه وانهال عليه"[15]، ولم يقتصر الأمر على هذه العبارة الحادة

(13) المرجع السابق، ص39

(14) ملف عبد الناصر، بين اليسار المصري وتوفيق الحكيم، دار القضايا، بيروت، 1975، ص16

(15) محمد عودة، الوعي المفقود، القاهرة للثقافة العربية، 1975، ص4

والجارحة فقط، ولكن الكتاب كله جاء على هذه الوتيرة، وهناك كتب أخرى صدرت لحسنين كروم ، ومحمود مراد، وغيرهم، هاجمت الحكيم بضراوة.

أما المعركة الأخرى التي فجّرها توفيق الحكيم، فكانت عندما نشر مقالا في جريدة الأهرام بتاريخ 3 مارس 1978، عنوانه "الحياد"، واستهله بعبارات كانت حادة أيضا ، إذ قال :"لن تعرف مصر لها راحة، ولن يتم لها استقرار ، ولن يشبع فيها جائع إلا عن طريق واحد: يكفل لها بذل مالها لإطعام الجائعين والمحتاجين، وتكريس جهدها للتقدم بالمتخلفين، وتوجيه عنايتها إلى الارتقاء بالروح والعقل في مناخ الحرية والأمن والطمأنينة ....ما هو الطريق إذن إلى واحة الراحة والاستقرار وطعام المعدة والروح والعقل؟.. إن هذه الواحة المورقة المزهرة اسمها (الحياد)"[16].

بعد نشر هذا المقال، كتب د وحيد رأفت مقالا حادا للرد عليه عنوانه "الحياد المرفوض"، وتدخل د حسين فوزي منتصرا للحكيم ومهاجما د وحيد رأفت بمقال عنوانه "أفزعني رأي الدكتور وحيد رأفت"، بعدها اتسعت رقعة المعركة وعمقها، وكتب كثيرون منهم د يوسف إدريس ود لويس عوض، ود محمد إسماعيل ، وأحمد بهاء الدين، وغيرهم، بين منتصر للفكرة، ورافض لها، وأصدر الناقد والمفكر الأدبي رجاء النقاش كتابا حادا كذلك عنوانه "الانعزاليون في مصر"، وهاجم فيه توفيق الحكيم ولويس عوض ود حسين فوزي.

وبالطبع كانت المعارك في تلك الفترة ساخنة جدا، فبعد كتاب توفيق الحكيم، نشر المفكر دكتور فؤاد زكريا ثلاثة مقالات بداية من 14 إبريل 1975، وهاجم فيها جمال عبد الناصر أيضا، كما حمل على اليسار، واعتبر أن كل ما كان يرتكبه جمال عبد الناصر ونظامه من أخطاء_هكذا_ شاركه اليسار بكل قوته، واعتبر أن صدور مجلة "الطليعة" في يناير 1965، مجرد رشوة لشراء رضاه، كانت المقالات حادة في التحامل على عبد الناصر،

(16) عروبة مصر، حوار السبعينات، إشراف د سعد الدين ابراهيم، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام،
1978، ص 109

وكذلك على اليسار، مما دفع كثيرا من الكتّاب إلى الرد، حتى لو كانوا غير منتمين إلى اليسار، مثل نجيب محفوظ الذي كتب مقالا قصيرا عنوانه "أنفى عن الماركسيين تماما شبهة الرشوة"، واستهل مقاله العاقل بمبدأ عام، إذ قال : "أحب أن أسجّل منذ البداية أن المعاصرين يعتبرون أسوأ المؤرخين، لأن اندماجهم في التجربة يحول بينهم وبين الحكم الموضوعي السليم، يصحّ لهم أن يعطوا شهادة، وهذه الشهادة تنفع مستقبلا كوثيقة للمؤرخ، لذلك أنا لا أستطيع أن أعطي حكما تاريخيا بالمعنى الحقيقي لفترة عشتها وما زلت أعيشها .. ولكنني سأدلي بشهادتي"[17]، وبعد استطرادات كثيرة لنجيب محفوظ قال :"بالنسبة لاتهام د فؤاد زكريا لليسار الماركسي بأنه خضع لرشوة عبد الناصر، فدافع عن التجربة، فإنني أنفي عن الماركسيين شبهة الرشوة تماما"[18].

وبالطبع فقضية "المفكرون في الأرض"، يطول شرحها وسردها ومناقشتها، واستدعاء الشواهد على تعقدها، وعلى الوقوف على نقاط واضحة، لأن الأمر تقريبا يحتاج إلى مجلدات يمكن تصنيفها إلى ملفات سياسية واجتماعية وثقافية وأدبية، وما ورد سابقا، ما هو إلا مجرد مقدمة لموضوع شائك ومعقد ويحتاج إلى إحاطة أكثر عمقا وشمولا، وأتمنى بهذه الكتابة التي أعتبرها مقدمة، أكون أوفيت بعضا من هذا الأمل المنشود.

(17) عبد الناصر واليسار المصري، فؤاد زكريا والرد عليه، مؤسسة روز اليوسف، 1977، ص 65
(18) المرجع السابق ص70

ملف خاص

- مساءلة الحداثة.. بين مزاج الشك الفرنسي ووعى النقد الألماني — صلاح سالم
- مدي جدية تهديد الاعلام الإلكتروني للأعلام التقليدي دوليا وعربيا — أمينة خيري
-

مساءلة الحداثة
بين مزاج الشك الفرنسي ووعي النقد الألماني

صـــلاح سالـــــم

كاتب ومفكر بجريدة الأهرام - القاهرة

بلغت الحداثة ذروتها الفائقة بين منتصف القرن التاسع عشر ومنتصف العشرين، وهى النقطة التي انطلقت منها- بعد الحرب الثانية- مسيرة نقدها بهدف تلافي تناقضاتها، وحصار نزعة التمركز التي تتأسس عليها، إذ انطوت في داخلها على أنساق هيمنة وتسلط باسم مقولات كبرى من قبيل العقل، النظام الاجتماعي، الروح القومية.. الخ، تغذت بدورها على عوامل كالأنانية الفردية، والتفاوت الطبقي الحاد، وغياب العدالة في التعامل الدولي، حيث تسود جل مظاهر الظلم: احتلال، استعمار، وصاية اقتصادية، تبادل غير متكافئ، على نحو يقلل من إمكانية بناء سلام دائم حسب العظيم كانط، أو يغيب معه حس المسئولية وجوهر العدالة، حسب الأمريكي جون رولز. غير أن تيار نقد الحداثة الفائقة هذه قد تدفق في اتجاهين :

الاتجاه الأول: جسد نزوعا تفكيكيا نال من عقلانية التنوير، تمثل في تيار ما بعد الحداثة الذي عبر عنه بامتياز المزاج العقلي الفرنسي، منذ أعلن الفيلسوف الفرنسي جان فرانسوا ليوتار بيانه / كتابه الشهير "الظرف ما بعد الحداثي: تقرير عن المعرفة" 1979م، حيث واصلت الفلسفة الفرنسية منذ ذاك التأكيد على ما ذهب إليه الرجل، اتساقا مع مزاجها الشكي العميق منذ ديكارت على الأقل، مرورا بتيار الوجودية الملحدة منتصف القرن العشرين، خصوصا لدى سارتر، وصولا إلى جاك دريدا، الذي صوب جل أدوات النزعة التفكيكية على رأس الحداثة. إنه المزاج الذي يواجه لحظات عدم اليقين بالقطيعة الكاملة مع البنية القائمة، بدلا من محاولة نقدها في إطار الاستمرارية معها.

تشكك فلسفة ما بعد الحداثة في وجود حقائق صلبة منفصلة عن الذات العارفة، ومن ثم تبدي حذرا شديدا إزاء الأنساق الفكرية الشاملة، وليس فقط المغلقة، باعتبارها سرديات للهيمنة. كما تسعى إلى التقليل من دور التاريخ باعتباره السردية الكبرى عن مفهوم الحقيقة، ولكونه دليلا على فكرة التقدم, التي تكاد تمثل دين الحداثة. وأخيرا لا آخرا نزوعها إلى التقليل من مركزية الثقافة العالمة / السائدة / الكونية، لصالح الثقافات الفرعية / الإقليمية وما تجسده من هويات خاصة. وعلى هذا تتبدى ما بعد الحداثة كردة موضوعية وتاريخية عن المنطق العقلاني الصارم، والثقافة الكونية للحداثة، حيث باتت الذاتية محورية في إدراك (الحقيقة)، التي صارت محض تأويلات ذهنية لواقع محيط بالإنسان، فلم تعد هناك نظرية معرفية شاملة أو فكرة كلية عن حقيقة بذاتها بل ثمة حقائق متعددة تصدر عن الميول الشخصية والاستعدادات الذاتية. وإذا كانت روح الحداثة قد تأسست على أن صورة العالم الخارجية (الحقيقة) هي التي تنعكس في الإنسان لتشكل مذاهبه الفكرية وميوله الفلسفية، ولو من خلال العقل الذي يترجم العالم الواقعي إلى سلسلة من الحدوث التجريبية يمكن تأملها عبر العقل النظري بمبادئه الكلية وقواعده النظرية، كما تصور كانط في مفهومه عن المثالية التجريبية / النزعة النقدية، فقد ادعت ما بعد الحداثة أن صورة العالم ليست إلا انعكاسا لهذه المذاهب والميول الإنسانية، فالمتاح إذن حقائق متعددة، وليس صورا مختلفة لحقيقة واحدة. ومن ثم لا مفر من تفكيك الأنساق الفكرية الكبرى المستقرة في فلسفة الحداثة باعتبارها وليدة محيط ثقافي وتاريخي معين وليس العقل البشرى في كليته أو العالم الطبيعي في شموله. بل إن هذا التفكيك نفسه يجب ألا يستند إلى مبدأ مطلق، وإلا كان ثمة تناقض بين غياب المبدأ المطلق في عملية التركيب، وحضوره في عملية التفكيك .

وهكذا بات جوهر ما بعد الحداثة، كما وصفها جان فرانسوا ليوتار، هو إنكار المعتقدات الموروثة والتشكيك في القصص العظيمة، والثورة على السرديات الكبرى، التي طالما ملأت العقل، وشغلت الوعي الإنساني حتى أُعتبرت وكأنها من مسلماته التي لا يمكن التفكير سوى انطلاقا منها. وهنا يعطينا ليوتار مثلين متناقضين في الاتجاه ولكنهما

متفقان في الدلالة. المثال الأول عن الدين / الإيمان، الذي تمحور حول القصة الأعظم في تاريخ الفكر البشرى، أي قصة (الإله)، الخالق للكون، العليم بأحوال البشر، القادر على رعايتهم من ناحية، والتحكم بأقدارهم من ناحية أخرى. ومن هذه الزاوية تبدو ما بعد الحداثة قرينا لكل النزعات الشكية واللا أدرية إزاء الإله، إن لم تكن قرينة الدعوة إلى موت الإله، والتي كانت الحداثة نفسها قد ادعته، خصوصا على لسان نيتشة وفرويد ودوركهايم، في ظل الحداثة الفائقة / المتطرفة، التي كانت تتبأت بنهاية الدين في الثلث الأخير للقرن التاسع عشر.

وأما المثال الثاني، فعن الإلحاد نفسه، والذي يعتبره ليوتار سردية كبيرة معارضة للأولى، احتلت مساحات متزايدة في الزمن الحديث، وأطلقت آراء عامة كلية مناقضة لقصة الألوهية بنوع من التعميم يحتاج هو الآخر إلى التفكيك، بالقدر الذي تحتاجه قصة الإله. ومن هذه الزاوية يمكن النظر إلى ما بعد الحداثة وكأنها ردة عن النزعة المادية في الحداثة، أو الميول الإلحادية في التنوير .

لم تصرح ما بعد الحداثة برفض الألوهية أو الإلحاد، بل سعت فقط إلى التشكيك في الأسس الجوهرية التي تجعل من كليهما، الإلحاد والإيمان، سردية كبرى وإطار ناظم يحتشد داخله الجميع، أو يُقهرون على النظر إلى العالم من خلاله، على نحو ينزع عنهما المبالغة والتعميم والإطلاق. وهنا يكشف جاك دريدا، التفكيكي الشهير، الذي أكمل عمل ليوتار، عن شكوكه العميقة إزاء الاستقطاب الحاد بين الثنائيات الجامدة في فكر الحداثة، والتي يرى فيها تبسيطًا مخلاً. فالملحدون، مثلا، اختزلوا الدين في صيغ وعبارات تبسيطية تناسب أيديولوجيتهم الرافضة له، كما فعل ماركس عندما وصف الدين بأنه أفيون الشعوب المقهورة، الذي يكرس استغلالهم ويؤدي إلى اغترابهم. أو فرويد الذي رآه مصدرًا للرعب النابع من عقدة أوديب، أو إميل دوركهايم الذي رآه انعكاسا لعقدة قتل الأب البدائية، وهكذا. أما المؤمنون، خصوصا الأصوليون المتزمتون، فانغلقوا هم أيضا على رؤية تبسيطية تنفي غير المؤمن، وتجعل منه كائنا شريرا بالضرورة، يقف من

المتدينين الموقف نفسه الذي وقفه الشيطان من الإنسان في قصة الخلق التي يؤمنون بها حرفيا .

تجاوزا لهذا الاستقطاب، يتحدث الفيلسوف الأمريكي جون دو كابوتو، ونظيره الإيطالي جيانى دي فاتيمو، عن ضرورة ما يسميانه بـ "الفكر الخافت" كطريق إلى التعايش بين المختلفين. والفكر الخافت، كما يفهمانه، هو طريقة في التفكير تقوم على سلب ونفي المفاهيم، أكثر مما تقوم على التحديد الإيجابي لها. إنه الفكر نفسه الذي دشنه فلاسفة التفكيك الفرنسيين، وبحسبه أو باسمه يجري حصار الادعاءات الكبرى للتنوير حول العقل والإنسان والتاريخ والحق والواجب.. الخ. كما يتحول العالم إلى فسيفساء من المعاني لا مركز لها، فيكاد ينتفي مفهوم الحقيقة من الأساس. فعلى صعيد نظرية المعرفة يصبح من الصعب بناء منظور واضح أو نموذج إرشادي مستقر نسبيا، أو مجتمع علمي متماسك يُتصور له قدر من الدوام والتجانس. وعلى صعيد نظرية الأخلاق تنتفي مطلقية القيم الكبرى كالحق والخير والجمال، ولا تبقى الفضيلة ذات معنى إنساني عام، ولا القيم ذات مغزى كوني شامل، بل تصير وليدة سياقات محلية وخبرات جزئية، ويصبح المعيار الأساسي لها ما تتواضع عليه أي جماعة بشرية ولو قل عددها. وهنا يكاد يصبح كل إنسان مشرعا أخلاقيا لنفسه، فالفضيلة هي ما يراها كذلك، والرذيلة أيضا. وعلى هذا تفضي ما بعد الحداثة، جوهريا، إلى تعميق التوجهات النسبية للحداثة. أما الفكر الخافت فلا يعدو أن يكون وصفة تعمى على مشكلتي: الحقيقة والفهم، بدلا من أن تحلها، تقود إلى اغتراب الروح الإنساني، فيما المطلوب وعي جديد يحفظ للحقيقة ممكنات حضورها كاملة، ويتجاوز في الوقت نفسه وثوقيتها الساذجة التي تعوق تعددية طرائق فهمها.

أما الاتجاه الثاني فيمثل نزوعا تجديديا للحداثة نفسها، ينزع عنها تصلبها الفائق، ويحيلها إلى "حداثة خافتة"، وهو ما يتجسد في المزاج العقلي الألماني، خصوصا في تياره النقدي، الذي أبدى ترددا كبيرا في القطع مع الحداثة، أو الاندراج في صيرورة

التفكيك القائلة بتجاوزها. ورغم إيمانه بحاجتها إلى التجديد، فقد ارتأى هذا التيار، وفاء لموروثه النقدي، أن يكون نقدها تواصليا، فهي لديه كينونة لا تزال قادرة على العمل.

والواقع أننا نميل إلى هذا الاتجاه رغم عدم إنكارنا لما وقع من تغاير في البنية الأساسية للحداثة على صعيدين أساسيين: أولهما نمط الإنتاج، أي ركنها الأول، والذي كان مركنتيليا تجاريا لنحو القرنين في بداية الرأسمالية، ثم صناعيا لقرنين آخرين شهدا نضجها، قبل أن يترك مكانه لنمط إنتاج جديد قوامه المعرفة الرمزية والتكنولوجيا الفائقة. وثانيهما خطاب الشرعية، أي ركنها الثالث، باتجاه خطابات من قبيل النظام العالمي الجديد، والكوكبية، والعولمة، والمجتمع الكوني، وغيرها من مقولات تشرع لنظام الهيمنة القائم. ففي مواجهة تغاير هذين الركنين لم ينل التغيير من ذلك الركن الأكثر أساسية "المركزي" في بنية الحداثة، أي البنى السياسية والنظم الاقتصادية والقانونية، فلا نظم مجتمعية مختلفة كليا ولا نظم حكم جديدة جذريا، ولا حتى مذاهب سياسية مغايرة فعليا، تم إنتاجها قادرة على الوقوف بصلابة في مواجهة بنيات ونظم ومذاهب الحداثة. ولأن الفارق يبقى كبيرا بين عملية تاريخية يمكن وصفها بالسلب، تكتفي بتفكيك بعض أسس ما هو قائم، وبين عملية تاريخية تتسم بالإيجاب، قادرة على تأسيس وضع تاريخي جديد، تظل فلسفة ما بعد الحداثة قاصرة جوهريا عن تشكيل كينونة تاريخية جديدة، وتستمر فقط في نطاق "الما بعد"، أي كصيرورة متصاعدة تنسب إلى "الحداثة" نفسها ككينونة. وإذا كان ممكنا قبول مقولة "ما بعد التحديث" كمفهوم واقعي يشي بمرحلة تلي تجربة التحديث، يمكن قياس مؤشراتها موضوعيا وربطها بعصر ما بعد الصناعة، فمن الصعب التسليم بمقولة "ما بعد الحداثة" كمرحلة تاريخية تتجاوز الحداثة لدافعين أساسيين :

الدافع الأول هو النزعة النسبية التي تنطوي عليها الحداثة، كثمرة طبيعية للارتباط بين الحداثة والعلم الطبيعي بمنهجه التجريبي، الذي يمنحها قدرة دائمة على تجاوز نفسها، كما يشي تاريخها الممتد في عصور: النهضة، والإصلاح الديني، والتنوير، والثورة الصناعية، والثورات الديمقراطية، وهكذا نصبح أمام مسارات للحداثة لم تتبلور في زمن واحد، بل في أزمنة متباينة وعبر تحولات تدريجية امتلكت منطقها الخاص وتدرجها

الطبيعي. ولهذا يرفض الفيلسوف الألماني المعاصر يورجن هابرماس، وريث النزعة النقدية ورييب مدرسة فرانكفورت، تصور أدورنو الذي يحدد بدء الحداثة حوالي 1850م، حيث نظر إليها بعيني شارل بودلير والفن الطليعي، وهو تصور قاصر لا يحيط بتاريخيتها كتجربة كبرى جسدت رؤية كلية للوجود، وضعت نفسها في علاقة تضاد مع العصور القديمة، لتدرك ذاتها كحركة عبور إلى الحديث، حيث استمر صراع الحداثيين مع القدماء من أتباع الذوق الكلاسيكي، ولم يتحرر عالمنا من السحر الذي مارسه العالم القديم على روح الحداثيين إلا مع حلول مُثُل التنوير الفرنسي، والتطور الحاسم في مدارات العلم والتكنولوجيا على النحو الذي رسخ مفهوم التقدم الإنساني.

ومن ثم يعتبر هابرماس أن توجه ما بعد الحداثة، ليس إلا نوعا من الاستيلاء قام به المحافظون الأحدث على خبرة الحداثة الجمالية الأساسية؛ أي تلك الذاتية غير المتمركزة، المتحررة من كل محدوديات المعرفة، والعمل الهادف، ومن كل أوامر العمل والمنفعة. وبمساعدة موقف حداثي يعلِّل هؤلاء عداءهم المرير للحداثة، ويناقضون العقل الأداتي بطريقة مانوية، بواسطة مبدأ لم يعد منفتحا إلا على إيقاظ المشاعر والتصورات لدى مشاهدة العمل الفني، بصرف النظر عما إذا كان هذا المبدأ هو إرادة القوة أو السيادة أو الوجود أو قوة الشعر الديونيسية. ولعل هذا هو ما دفع (فريدريك جيمسون) في كتابه "ما بعد الحداثة أو المنطق الحضاري للرأسمالية المتأخرة" إلى هجائها، باعتبارها "ليست إلا منتجا ثانويا أو فترة انتقالية داخل تاريخ الرأسمالية، بدلا من كونها تحليلا فلسفيا أو نقديا لهذا التاريخ، وأنها لذلك عاجزة عن الاستمرار كمهمة تاريخية، أو حتى عن التنظير لنفسها، كونها ليست إلا متاهة أو مركزا تجاريا للتسوق".

ورغم الأزمات العديدة التي تعترض مسار الحداثة، لا يرى هنري لوفيفر في تلك الأزمات مبررا للقول بنهايتها، بل يمنح تلك الأزمات معنى إيجابيا في سياق تاريخها نفسه؛ إذ يرى في توالي الأزمات دليل خصوبة، فبقدر ما توجد الحداثة في حال تعارض مع ما هو قديم بقدر ما تختزن في عملياتها احتمالات الأزمة. فتحريك القديم يشكل خلخلة للموجود والمألوف. ومن ثم يتحدث عن ثلاث أزمات يرى أن الحداثة خرجت منها

منتصرة. الأولى في أواخر القرن الثامن عشر مع الثورة الفرنسية التي جسدت المُثل الحديثة في مجال السياسة. والثانية ظهرت في أواخر القرن التاسع عشر ومطلع العشرين، حيث بداية انهيار مُثُل التقدم والعقلانية والليبرالية أمام تصاعد حركة الجماهير و"الأهواء الجماعية" اللاعقلانية مثل النازية والفاشية والاشتراكية.. الخ. مع بروز دور القوى المكبوتة والتعبيرات المتنوعة التي عملت حركة الحداثة على تهميشها، مثل رموز اللاوعي التي لا تستجيب لمقاييس العقلانية. أما الثالثة فتفجرت في أواخر الستينات من القرن العشرين، وتتميز بسقوط كثير من الأيديولوجيات الجماهيرية، وبانتصار الخاص على العام، وبالنقد الجذري للنزعة الإنسانية، وهي الأزمة الممتدة حتى الآن أو المعركة التي تخوضها الحداثة بشراسة دفاعا عن كينونتها.

أما الدافع الثاني فهو الطبيعة الجدلية للحداثة، فهي ليست مجرد انعكاسات تلقائية ومباشرة لنظرية أو فلسفة بذاتها، بل استجابات مختلفة تتعدد بتنوع فضاءاتها: الفلسفية، والسياسية، والاجتماعية، والفنية والتكنولوجية، وجميعها أنساق لم تتطور في مسارات متوازية بالضرورة، بل إنها كثيرا ما تقاطعت وتداخلت معا. فمثلا نجد أن الإصلاح الديني الذي تلا عصر النهضة كان من الدموية والعنف ما يبرر اعتباره عصرا همجيا، تكاد تتفوق همجيته على كل العصور التي سبقت الحقبة الكلاسيكية وما شهدتها من مجتمعات متمدينة وإمبراطوريات مستقرة في أحضان الأديان. ولكن هذا العصر الدموي هو نفسه الذي أفضى في النهاية إلى معاهدة وستفاليا (1648م)، التي شقت الطريق أمام مفهوم الدولة القومية، ومن ثم الحداثة السياسية، على طريق الديمقراطية الليبرالية. كما أن لحظة الذروة في مسار الثورة الصناعية لم تكن هي لحظة الذروة على صعيد الحرية الفردية، بل لحظة اغتراب إنساني كبير أفضى إلى هجاء النزعة الرومانسية لها بين نهاية القرن الثامن عشر ومنتصف التاسع عشر، والذي اتخذ في البداية شكلا أدبيا وفلسفيا ينشد استعادة عوامل التفرد الإنساني من قبضة العقلانية التنويرية خصوصا مع جان جاك روسو في الثقافة الفرنسية، أو الانفلات من القبضة الخانقة للثورة الصناعية، خصوصا من قبل الشعراء والأدباء الإنجليز، كبايرون وألفريد تنيسون في قصيدته

(للذكرى) 1850م، وتوماس إليوت في (الأرض الخراب)، وأخيرا تشارلز ديكنز في (أوقات عصيبة) 1854م، لتصور المدينة الصناعية الجديدة باعتبارها الجحيم الأرضي، المحكوم بعقل براجماتي مدمر للأخلاق الإنسانية وللنزعة الفردية. بل إن لحظة الذروة في مسار الحداثة السياسية مطلع القرن العشرين، خصوصا ذلك التطور الديمقراطي الذي أفضى إلى منح النساء حق التصويت في بريطانيا والولايات المتحدة، قد أعقبها انفجارات هائلة تجسدت في الحربين العالميتين، يمكن وصفها بالردة، خصوصا مع صعود النازية وما رافقها من مقولات رجعية تدعو إلى تطهير العرق الآري مما علق به من أدران الأعراق الأخرى. وفلسفيا يمكن اعتبار النزعات الوجودية حول منتصف القرن العشرين، خصوصا الملحدة، بمثابة ارتجاعات شكية، قياسا إلى مثل التنوير العليا كما تجسدت في النزعتين: النقدية الكانطية، والمثالية الهيجلية، وربما أيضا في البرجماتية الإنجليزية الهادئة، ونظيرتها الأمريكية الطاغية .

وهكذا تبدو الحداثة، بتاريخيتها وجدليتها، تجربة واسعة وثرية، غير محدودة بسقف تاريخي نهائي، بل موسومة بالقدرة على تجاوز ذاتها، فإذا ما تحقق ذلك لم يكن تجاوزا خارجيا لها ككينونة، بل داخليا فقط لأحد مراحلها على نحو قد يؤذن بدخولها في صيرورة جديدة. ومن ثم فكل تطور لها يمكن أن يُنسب إلى مفهومها، فالحداثة ليست فقط القدرة على تجاوز الفكر التقليدي الذي كان قائما في الجغرافيا الغربية قبل خمسة قرون مثلا، بل القدرة على التجاوز الدائم لكل فكر قائم، ما يعني أن ما كان حديثا بالأمس يمكن أن يصير غير ذلك اليوم، وما هو حديث اليوم قد لا يبقى كذلك في الغد، باسم الحداثة ذاتها، تعويلا على الملكتين الأساسيتين الكامنتين فيها: النسبية والجدلية.

لا ينفي ذلك الحاجة إلى تجديد الحداثة، ولكنها حاجة تظل مشروطة، حسب هابرماس، بإطلاق مسيرة للفهم والتفهم تعيد صوغها على نحو ديمقراطي عبر حوار تتشارك فيه جل الثقافات الحية والفاعلة. ومن ثم يصبح ممكنا للثقافات القائمة على الدين أن تدلى بدلوها، وأن يتم الاعتراف بالدين كمكون أساسي في الثقافة الإنسانية، يفتح له باب الدخول إلى الحضارة المعاصرة، فلا يضطر لاقتحامها من نافذة التمرد

الأصولي. ومن جانبنا نقول، بوضوح، إن فلسفة الحداثة قد نهضت على قاعدة مكونات ثلاث أساسية: العقل والإرادة والطبيعة. العقل كفعالية معرفية قادرة على الفهم الموضوعي للعالم والتوظيف العملي للطبيعة بدلا من هالة القداسة التي أحاطت بها في الفكر التقليدي، الميثولوجي أو الديني. والإرادة باعتبارها انعكاسا للذات الإنسانية الحرة، القادرة على الاختيار، وعلى الخلاص الذاتي بعيدا عن سيطرة الكهنوت الديني؛ أي على طلب الحرية، وتحمل مسئوليتها. والطبيعة باعتبارها مجالا لفاعلية العقل والإرادة الإنسانيين، أو لممارسة المعرفة والحرية معا، حيث يجري تقييم مدى صوابية المسيرة البشرية على طريق التقدم والترقي بالقدرة على فك شفراتها وحسن توظيفها في خدمة الإنسان .

وفي هذا السياق نظرت الحداثة إلى وجود الله والثقة في حضوره باعتباره انتقاصا من ثقتها بالمكونات الثلاثة التي اعتبرتها مؤسسة لها، فأرادت التأكيد عليها، ومن ثم وضعته في موضع الميتافيزيقا التي لابد من التمرد عليها بذريعة مفهوم الحتمية العلمية. ولأن العلم الحديث كان بالضرورة نقيضا للميتافيزيقا، فقد تبدت الحداثة وكأنها في أفضل الأحوال محايدة إزاء الله، أما تياراتها المتطرفة فكانت بالقطع معادية له. ففي سياق التنوير المادي والعلمانية الوجودية بلغ رفض الألوهية حدا متطرفا لدى نقاد الدين الكبار من ماركس وفيورباخ مرورا بفرويد ودوركهايم، وصولا إلى الادعاء بموت الله لدى نيتشه. أما في سياق التنوير الروحي والعلمانية السياسية، فكان الشاغل الأساسي هو القدرة على تعقل الكون وكشف أسرار الطبيعة، بالاستقلال عن الله. وهكذا فإن أقصى ما قدمته الحداثة للدين، يتمثل في عدم التعصب ضده، وأقصى ما قدمته لـ (الله) هو عدم إنكار وجوده صراحة، وقد كان الهدف من هذا الموقف معرفيا بالأساس، وهو الخلاص من كل أثر للميتافيزيقا في العلم، فإن لم تكن هناك قدرة على نفى تلك الميتافيزيقا، فمن الممكن إزاحتها ولو إلى أعلى، فتتعالى على العقل من دون أن تصطدم به، ويتم الخلاص منها (عمليا)، لتنساب مسيرة العلم، ولم يكن الهدف بالقطع إيمانيا، يسعى إلى استحضار الله إلى عالمنا، والشعور العميق بعنايته لنا.

وهكذا بدا أن اعتراف الحداثة بالموقف الإلحادي أكثر أصالة من اعترافها بالموقف الإيماني؛ لأن العقل صار قادرا على العمل بالاستقلال عن الله، فيما الله صار رهينة للعقل، وهو الأمر الذي فتح الباب على توترات نفسية عميقة، إذ يكاد يحيل التكنولوجيا والمادة والسوق إلى آلهة جديدة تبث البشر أحلام خلاص استهلاكية وتفرض عليهم ميتافيزيقا دنيوية، وتدمجهم في طقوس تعبدية شبه مقدسة، ما أدخل الحداثة في أزمة معلنة لا يمكن إنكارها، كما لا يمكن لوصفة ما بعد الحداثة أن تتصدى لها، لأن المطلوب وصفة أخرى قادرة على تجاوز الوثوقية الساذجة التي ينظر بها إلى الحقيقة باعتبارها مادية / وضعية / براجماتية صرفة، أو على النقيض مثالية / ذاتية / روحية صرف.

وفى اعتقادنا أن الجذر الأساسي لهذه الوصفة، القادر على تحقيق التصالح والانسجام بين هذه المكونات الثلاثة، يتمثل في مفهوم "الألوهية" نفسه، الذي أهملته الحداثة، شرط أن نفهم الألوهية كمصدر سام للروحانية أو كمبدأ أخلاقي فعال في صوغ رؤية الوجود، يتجاوز مجرد اعتناق دين اسمي ما (يهودية، مسيحية، إسلام، هندوسية، بوذية.. الخ)، إلى كونه أساسا قويا لشعور عام بالتراحم الإنساني، مارست الحداثة في مواجهته، للأسف، إما نوعا من الإنكار الصريح أو من الرفض المبطن.

مزية هذا الجذر تكمن في قوة حضوره التاريخي داخل الضمير البشري، ومن ثم قدرته على تهذيب الحدود المتطرفة التي يمكن أن تذهب إليها المكونات الثلاث المؤسسة للحداثة، على النحو الذي يثير أزماتها ويفرض مهمة البحث عن أطر وذهنية وبنيات فكرية تتجاوزها أو تمثل الما بعد بالنسبة إليها. بل إنني أزعم أنه قادر على استخراج أفضل الصيغ من تلك المكونات الثلاث عبر تخصيبها بما يضيف إليها من عناصر قد تبدو للنظر المتعجل إنها مضادة لمفهوم الحداثة ومكوناته الثلاث.

فعلى صعيد الإرادة مثلا، قد يرى الفهم المادي المتصلب للحداثة أن الحضور الإلهي يمثل قيدا على الحضور الإنساني بالضرورة، ككائن حر وفعال يعيش على الأرض ولا ينتظر الملكوت السماوي، يملك السيطرة الكاملة على مصيره. ولكن هذا الفهم

يبقى أحاديا في الحقيقة، إذ يقصر نفسه على طريق واحد لتوكيد الإنسان يتمثل في الأسطورة البروميثية، المؤسسة للخيال الميثولوجي اليوناني، والقارة بدورها في الخيال الثقافي الغربي والتي تكاد تكون المصدر الأساسي لإلهام التيار الإلحاد الغربي، الذي طالما استدعى العبقرية اليونانية في مواجهة العبودية المسيحية، منذ عصر النهضة الذي لم يكن في جوهره غير عملية إحياء واسعة للأدب اليوناني على حساب التراث المسيحي، وصولا إلى نيتشه الذي أعلن بوضوح أن التراث اليهودي . المسيحي ليس تراثا للعبودية، بعد أن كان هيجل نفسه قد صرح بإعجابه بأرسطو أكثر من المسيح.

كذا ولدت النزعة الإنسانية في الفكر الغربي ونمت على جسد الإله، ولم تر إمكانية لصوغ نزعة إنسانية لا تمر بطريق الإلحاد، ولا تستدعي تغييب الحضور الإلهي، بل تستند إلى ذلك الحضور. وظني أن ذلك الفهم قد انطلق من وعي فردي لم يخبر التجربة الروحية أو يعايشها من داخلها، كما من شعور تاريخي عام انتفض محقا ضد الكهانة الدينية ومحاكم التفتيش الكاثوليكية؛ وبفعل نزعة التمركز حول الذات الكامنة في تجربة الحداثة الأوروبية كان من السهل تعميم التجربة المسيحية باعتبارها التجربة الدينية عموما، فلم يتمكن هذا الشعور التاريخي من تصور إيمان روحي حي، قادر على تحرير الإنسان وجوديا، نظنه قائما وممكنا في الزهد البروتستانتي والتصوف الإسلامي النقي، حيث الانشغال الإيجابي بالعالم من تورط في ماديته الصرفة، الأمر الذي قد يفتح الباب على بناء نزعة إنسانية إيمانية، عجز الملحدون عن تقديرها حق قدرها، تربط عالمنا الدنيوي / العادي، بالحضور الإلهي، القادر على أن يهبنا قبسا من الشعور بالرعاية والعناية في مواجهة الضغوط التي نعانيها وما يبثه ذلك الشعور من طمأنينة نفسية، ورغبة في التسامي على نوازع الشر الظلم، وإن كان هذا العجز لدى الملحد هو ما أسهم فيه عموم المتدينين بنصيب كبير، على مر التاريخ، لسوء تمثلهم هذا الحضور، عندما حاولوا امتلاكه، والحديث باسمه، فجعلوه مدخلا للاستبداد والقهر، بديلا عن كونه رعاية للعالم وتحريرا للإنسان.

في هذا السياق وحده يتعين على العقل العربي التفكير في كيفية مقاربة الحداثة باعتبارها نتاجا لخبرة إنسانية مشتركة عوضا عن التفكير في صدها باعتبارها تجربة غربية خاصة وعدوانية. ولعلنا نكتشف عمق مشروعية تلك المقاربة الإنسانية إذا ما قمنا بتحرير المفاهيم المركزية للحداثة كالعقلنة والأنسنة والعلمنة من القوالب النهائية التي التصقت بها، كشفا عن تاريخيتها كحامل لقيم جوهرية، تصطبغ بأسماء ما في حقبة تاريخية بذاتها، وأسماء أخرى في حقبة تالية، رغم استمرارية مضمونها كقيم كونية لازمة، وسنن مجتمعية مصاحبة لأي نهضة بشرية، من قبيل تأكيد فعالية العقل الإنساني أو حرية الإرادة الإنسانية أو الانشغال الإيجابي بالعالم، إذ لا يمكن تصور نهضة حضارية لدى جماعة بشرية تجمد عقلها، أو اعتقلت إرادتها، أو فقدت اهتمامها بالواقع الدنيوي، وانشغلت فقط بملكوت أخروي أو عالم مفارق. غير أن تلك الفجوة بين الظاهر والباطن، بين السياقات المنتجة للمفاهيم والأخرى الحاضنة لها، قد حولت الجدل التاريخي بين الفكر العربي وهذه المفاهيم إلى صراعات عبثية أحيانا (الإسلام والحداثة) وعدمية أحيانا أخرى (الإسلام والعلمانية)، ومن ثم استمرت مجتمعاتنا المعاصرة، بفعل اندراجها واقعيا في سياق حضارة كونية، تواقة إلى الغرف من هوامشها التكنولوجية من دون مقاربة لمتونها الجوهرية، وقد آن الأوان لتجاوز شعورنا بالغربة عن الحداثة. بل إنه بقدر من التأويل الخلاق والتنظير المتقن يمكن للحضارة العربية رفد الحداثة بقيم إيجابية، روحية وأخلاقية، تحتاج إليها للحد من غطرستها وتعاليها، الأمر الذي يجعل من الإسلام مكونا أصيلا في تيار نقدها، ومصدر إلهام يسهم في تصويب مسيرتها.

مواجهة محتدمة بين صناع الأخبار التقليديين والمتحكمين في خيوط العنكبوت الافتراضيين

أمينـــة خـــيري

كاتبة صحفية في جريدة الحياة الدولية

قامت ثورات بفعل "فايسبوك"، وتأججت أحداث بوازع من تغريدات، وبقيت حوادث في بؤرة الاهتمام بفضل هاشتاقات. شاشات فضية تعثرت، وفقدت مصداقيتها، ولم تنهض قليلاً إلا عندما أطلت على نوافذ عنكبوتية، فصار مصدر الخبر تغريدة، ومنبع الغضب تدوينة، والأصل في المشاهدة "تريند" قرر أن يكون اليوم على رأس قائمة الاهتمام، ثم تبخر في هواء الغد تاركًا القيل والقال من نصيب الواقع .

الواقع لم يعد يشير إلى تهديد قادم لوسائل الإعلام التقليدية مصدره شبكة عنكبوتية غير واضحة المعالم أو الملامح، بل يؤكد أن التهديد جاء قبل قليل، وأعلن عن أثره الكبير، ثم فرض نفسه، واتخذ مكانه متصدرًا المشهد، وترك بقية الأطراف تحاول جاهدة أن تجد لنفسها دورًا وترسم لوجهها ملامح بناء على توسطه الصورة .

الصورة في قاعة المحاضرات في كلية الإعلام في الجامعة العريقة متغيرة الملامح والمعالم. حتى قبل عقدين من الزمان كان الطلاب يجلسون أمام أستاذ الإذاعة والتلفزيون أو محاضر الكتابة الصحافية أو مدرب فنون التحرير، يكتبون بالقلم على الأوراق ما يقال، ويخططون بالألوان المقاطع المهمة في الكتب والملازم. وفي نهاية العام، يصب الجميع ما حفظ من نظريات وما تدرب عليه من مهارات في الكتابة لمجلة الجامعة، وهلم جرا إلى أن يحين موعد التخرج للبحث عن فرصة في جريدة هنا أو مجلة هناك أو أمام ميكرفون في ستوديو هنا أو هناك .

لكن القاعة نفسها هذه الأيام واقعة في حيص بيص. صحيح أن الأستاذ ما زال موجودًا، والطلاب مازالوا على مقاعدهم، والكتب مازالت توزع عليهم، لكن الجميع يعلم في قرارة نفسه أن ما يدرسونه صار في واد، وما هم مقبلون عليه في واد آخر تمامًا.

في "وادي السيليكون" على الجانب الآخر من الأطلسي، يعلم الجميع ويعرف المراقبون لصناعة الأخبار أن مجريات الأمور في هذا الوادي لم تعد مجرد صناعة برمجيات وتطبيقات وقواعد بيانات، لكنها فرضت نفسها على ما نحصل عليه، ونتداوله ونصنعه من أخبار.

تشير الأخبار الواردة من جامعة أوريجون الأميركية، وتحديدًا عبر دراسة عنوانها "حال مواقع التواصل الاجتماعي في الشرق الأوسط في 2018" إلى أن "فايسبوك" عربيًا بمستخدميه الذين بلغ عددهم نحو 168 مليون مستخدم عربي (بعد ما كان عددهم لا يتجاوز 56 مليون مستخدم في عام 2013)يتربع على عرش مواقع التواصل الاجتماعي بين العرب. ونحو 50 في المئة من هذا العدد – وأعمارهم تتراوح بين 18 و24 عامًا بحكم التقسيمة الديموغرافية– يقولون أن "فايسبوك" هو مصدرهم الرئيسي، وفي أغلب الأحوال الوحيد، لمعرفة الأخبار. وهذه النسبة شهدت زيادة بنحو 15 في المئة مقارنة بالعام 2017 .

هذا التصاعد المستمر لمواقع التواصل الاجتماعي، لا سيما "فايسبوك"، باعتبارها مصدر الأخبار الرئيسي أو الوحيد، على حساب مصادر الأخبار التقليدية الأخرى من صحف ومجلات وقنوات إذاعية وتلفزيونية. وبحسب تقرير الحقوق الرقمية الصادر في عام 2019، فإن مواقع التواصل الاجتماعي متاحة في مصر بنسبة 57 في المئة للمواطنين البالغة أعمارهم 13 عامًا أو أكثر، وهي النسبة التي ترتفع إلى 99 في المئة في الإمارات العربية المتحدة. اختلاف النسب عربيًا مرجعه الأساسي اقتصادي، لكن حتى ال57 في المئة تظل نسبة مرتفعة وتعني الكثير .

الكثير مما يجري عربيًا على صعيد تداول الأخبار بأنواعها – الحقيقي والمفبرك ونصف الحقيقي– والإقبال منقطع النظير على مواقع التواصل الاجتماعي والإعلام الرقمي على حساب التقليدي مهما عاني من نقص في المصداقية أو لهث وراء ال"ترافيك" وتحقيق نسب مشاهدة ومشاركة عالية على حساب قيمة الخبر المعلوماتية ونصيبه من الموضوعية والمصداقية .

هذه المصداقية لم تهزها عربيًا معلومات غربية مؤكدة من داخل شركة "فايسبوك" نفسها قبل سنوات تؤكد وجود 83،09 مليون حساب وهمي بين ال955 مليون مستخدم في عام 2012، أي أن 8،7 في المئة من صفحات "فايسبوك" كانت لمستخدمين وهميين. أولئك يتراوحون بين أسماء وهمية تكتب وتنشط لترويج توجهات ما، أو تستخدمها للنصب والاحتيال، أو تستمتع بالتحرك على "فايسبوك" تحت ستار وهمي .

"الوهم" الوارد طرحه عبر صفحات الإنترنت كبير. وبحسب دراسة أجرتها جامعة ستانفورد الأميركية قبل أشهر، فإن قدرة الطلاب على التحقق من مصداقية مصادر المعلومات "مفزعة". وسبب الفزع هو أن الغالبية المطلقة من الطلاب الأميركيين الذين شملتهم الدراسة على مدار عام كامل تعاملت مع مصادر المعلومات باعتبارها حقيقة لا ريب فيها. ووصفت الدراسة المستقبل الذي سيعهد إلى الجيل الجديد بأنه "مستقبل ملم بمعلومات ناقصة كما وصفت هذه النتيجة ب"الكارثية" و"الصادمة" و"التهديد الحقيقي للديموقراطية."

وإذا كانت الديموقراطية الأميركية في خطر بسبب عدم قدرة الأجيال الأميركية الشابة على التفرقة بين الأخبار الحقيقية والمغلوطة على مواقع التواصل الاجتماعي، فما بالك بمستقبل هذا الجزء من العالم في ظل هيمنة ضخمة وآخذة في الاتساع للاعتماد على الإعلام الرقمي، عبر مواقع خبرية ومنصات تواصل اجتماعي، باعتباره المصدر الوحيد للأخبار؟!

"الأخبار" المكتوبة والمتداولة والتي تجري مشاركتها عبر "فايسبوك" أدخلت دولة مثل مصر في حالة من الغليان السجالي والحراك العنكبوتي يصعب قياس مقدار الحق من الباطل، أو معرفة حجم الفبركة فيها. وما تشهده مصر ليس حالة استثنائية، لكن يمكن اعتباره حالة منتشرة عربيًا إلى حد كبير، حيث انكماش ثقافة عدم التيقن من الأخبار التي يجري تداولها وإعادة تدويرها من أثير العنكبوت إلى أرض الواقع .

الواقع عربيًا بات حافلاً بأخبار وردود فعل عنكبوتية ومواقف عنترية وآراء استراتيجية وخبرات إعلامية مصدرها خيوط العنبكوت. والظاهرة العجيبة والغريبة هي أن جانبًا غير قليل من محتوى الإعلام التقليدي والذي ما زال يوجه جانبًا من الرأي العام مصدره خيوط العنكبوت هذه.

أقسام مخصصة على المواقع الإخبارية وأخرى مطبوعة في الصحف الورقية، تُسخّر نفسها لمتابعة أحدث التغريدات وأجدد التدوينات، بعضها لمشاهير وبعضها لأشخاص معروفين وجانب منها لمواطنين مغمورين. فقرة ثابتة في عدد كبير من البرامج اليومية على الشاشات يسمونها تغطية لمحتوى أثير العنكبوت. في البداية كانت صرعة، حيث استعراض خفيف وتلخيص سريع لأبرز تدوينات "فايسبوك" وأهم تغريدات تويتر، : هذا دوّن كذا على «فايسبوك» وتلك غرّدت كذا على «تويتر» والمتابعون قالوا كذا والمعجبون أيدوا كذا والمعارضون ثاروا هكذا. لكن طين عرض محتوى وسائل التواصل الاجتماعي على أثير الإعلام التقليدي زاد بلة بصعود نجم المحتوى العنكبوتي واعتباره مادة موثوق فيها جديرة بالبحث على أثير الإعلام التقليدي.

وكانت النتيجة أن ما يثار على أثير مواقع التواصل الاجتماعي من أخبار غير موثقة، ومعلومات غير مؤكدة، وآراء عن موضوعات وقضايا تتراوح بين حظك اليوم والقوى العسكرية والتحركات الاستراتيجية وأكلتك المفضلة صادرة عن أشخاص غير مؤهلين للإدلاء بدلوهم شعبيًا .

وشعبيًا وتقنيًا، جرت العادة أن يمضي الغرب قدمًا، ثم يتبعه العالم النامي وبينه الشرق الأوسط في الطريق ذاته. وجانب غير قليل من محتوى وسائل الإعلام التقليدي وغير التقليدي على الكوكب منبعه تغريدات الرئيس الأميركي دونالد ترامب. وعلى رغم أن سلفه باراك أوباما كان مغردًا هو الآخر، إلا أن تغريدات الرئيس الحالي تمد وسائل الإعلام، بما فيها الأكبر والأشهر والأقدم بالمادة الإعلامية التي نتفق أو نختلف معها، من حيث المهنية والمصداقية والموضوعية..

ما يدور في عقل وقلب رئيس أقوى دولة في العالم يمكن متابعته على حسابه على "تويتر"، ويمكن متابعة رد فعل معارضيه أيضًا على "تويتر". كما يمكن تتبع آثاره وانعكاساته الدولية والإقليمية على "تويتر". و"تويتر" شأنه شأن "فايسبوك" و"إنستاغرام" و"سناب تشات" وغيرها. إنها مواقع تواصل اجتماعي، تحولت إلى مصادر أخبار ومعلومات .

هناك من بين القنوات من استثمر أموالاً طائلة، وبذل جهودًا مضنية من أجل الخروج بفضائيات إخبارية تنقل الحدث فور وقوعه وربما بينما يقع. لكن في الوقت نفسه، ظهرت قنوات أخرى اعتمدت بقدر كبير ومبالغ فيه على الشبكة العنكبوتية في زمن ما قبل انتشارها شعبيًا .

المعلومات التي كان يقدح المعد زناد فكره، ويبذل الجهد والوقت وأحيانًا المال في سبيل الوصول إلى خيط بدايتها، والمسافات التي كان يقطعها في داخل المدينة أو خارجها أو عبر البحار في سبيل التأكد من صحتها، باتت لا تزيد على بضع سنتيمترات. فمعدو البرامج يعيشون أزهى عصور "تداول المعلومات"، وأغنى عقود توافر الخلفيات التاريخية، وأسهل طرق الخروج بأفكار تبدو نيرة، وأخبار تبدو طازجة، وطرق تناول تبدو متفردة .

فيكفي للمعد أن يستعين بأداة بحث عنكبوتية ويكتب كلمتين أو ثلاث، ليخرج بمئات إن لم يكن آلاف الأفكار والمحتوى. وإذا كانت الشبكة العنكبوتية أصبحت في مطلع

الألفية جنة فريق الإعداد في البرامج الفضائية، لكنها في الوقت نفسه حولت الساحة الفضائية إلى لعبة المشي على الحبال في السيرك. وطالما اللاعب قادر على المشي جيئة وذهابًا على الحبل أمام الجمهور دون أن يقع، فهو يحصل على تصفيقهم وتهليلهم، حتى وإن أوشك على الاهتزاز أو السقوط أثناء لعبته الخطرة. أما إذا سقط بالفعل، فقد عرض نفسه وعمله لخطورة بالغة .

ولأن انتشار الإنترنت ونفاد الهواتف المحمولة المتصلة بالشبكة، وإقبال الجمهور على مواقع التواصل الاجتماعي قبل عقدين لم يكن بالقدر نفسه الموجود حاليًا، فقد ظلت الغالبية ملتصقة بالشاشات الفضائية على مدى سنوات معتبرة إياها المصدر الأغنى والمحتوى الأوفر للأخبار، ومن ثم تشكيل الرأي العام. لكن السنوات التالية شهدت توسعًا وتوغلاً ووصولاً لشبكة الإنترنت غير مسبوق. مدن كبرى، ونجوع صغرى، أثرياء وفقراء، كبار وصغار، نساء ورجال، باتت مليارات البشر مالكة لمصادر "الأخبار" الحقيقي منها والمفبرك .

من جهة أخرى، فإن غالبية المنصات الخبرية التقليدية الدولية المرئية والمسموعة والعنكبوتية والتي تقدم خدمات بث باللغة العربية تخصص مساحة يومية لتغطية أخبار الحراك العنكبوتي العربي. هذه الفقرة الثابتة تعرض التدوينات والهاشتاجات الأكثر تداولاً في دول عربية بعينها باعتبارها عاكسة للمواضيع والقضايا التي تشغل بال الشارع العربي. وأحيانًا يتم انتقاء «هاشتاجات» بعينها تتواءم وتوجهات الموقع أو القناة الأجنبية الموجهة بالعربية!

اليوم نمتلك المعلومات والأخبار (أو المعلومات المغلوطة والأخبار المفبركة) بكبسة تطبيق. كبسة صغيرة على تطبيق هنا أو هناك على شاشة الكمبيوتر أو الهاتف تنقلك إلى عالم الأخبار والمعلومات. تشير مجلة "فوربس" إلى أن مواقع التواصل الاجتماعي أصبحت أهم مصدر للأخبار الرقمية، حيث أكثر من 2،4 مليار مستخدم للإنترنت، نحو 65 في المئة منه" يستقبلون أخبارًا عاجلة عبر "فايسبوك" و"تويتر" و"يوتيوب" و"سناب تشات"، وليس عبر الإعلام التقليدي، بما فيه المواقع الخبرية الإلكترونية.

الأخبار ومصادرها سواء بالعربية أو أي من اللغات الأخرى في عالمنا العربي لم تعد كما كانت قبل عقدين. ضلوع القنوات الفضائية على الخط، وتصدرها المشهد كناقل فوري للحدث وقت وقوعه قبل عقدين، وأثر الصورة الآني على المشاهد، أهّل المتلقي لعصر التخمة الخبرية والإغراق التحليلي. وبعد ما كان المتلقي لا يملك سوى قناة تلفزيونية تمنحه صورة واحدة لا ثاني لها، وصحيفة أو اثنتين تطبعان الخبر نفسه بالزاوية ذاتها، تفجر عصر السموات المفتوحة بما هو أكثر من مجرد صور مختلفة. ولو كانت الصحافة الإخبارية التلفزيونية تجيب بحق على الأسئلة الخمسة الكلاسيكية: من؟ ماذا؟ من؟ أين؟ متى؟ لماذا؟ فقط لا غير دون إضافة أية توابل أو مكسبات طعم أو إضافات رائحة لخرجت "الجزيرة" و"العربية" وأخبار مصر" و"فرانس 24" و"بي بي سي" و"روسيا اليوم" وغيرها نسخة واحدة بوجوه مختلفة .

الفضائيات الإخبارية أجابت على الأسئلة الخمسة بالفعل، لكن كلاً بطريقته وحسب أجندته. وجاء القدر الأكبر من الاختلاف في التغطيات، ومن ثم في الرسالة الإعلامية المقدمة في الإجابة عن السؤال الأخير "لماذا؟". فلماذا يحتج مواطنون قد يكون بسبب انتمائهم إلى تنظيمات تدعو إلى الفوضى وإثارة البلبلة وإشاعة الفوضى في قناة ما، لكن الأسباب تتحول إلى رفض للظلم وكره للطغيان وغضب جراء الفساد في القناة المجاورة. وقد يظهر يتحول إلى مخطط استعماري ومؤامرة خارجية في قناة ثالثة وهكذا .

وحين كان يتعذر المشاهد في الغوص فيما وراء الإجابة على الأسئلة الخمسة في كل قناة يرسو عندها، كان يلجأ إلى فك اللوغاريتمات عبر البحث في أجندة هذه القناة أو علاقة تلك بالنظام السياسي في دولة ما. فالعناوين المختارة لتغطية الأحداث أو الأوصاف المستخدمة تقدم مفتاحًا للاتجاه العام للقناة. وفي بدايات هبوب الرياح "الربيعية" العاتية في 2011، ظهرت هذه التوجهات واضحة. فإذا كان عنوان تغطية مسيرة مليونية غاضبة "تظاهرة"، أو تحول قتل المدنيين على أيدي الأمن إلى "مصادمات"، فاعلم أن علاقات طيبة تربط القناة بالدولة. أما إذا تحولت حكومة دولة ما

إلى "نظام قمعي" أو تحور رئيس الدولة إلى "رأس النظام"، فاعلم أن بين النظام الذي تتبعه القناة والدولة المعنية ضغائن ومخططات ما أنزل الله بها من سلطان .

ومع تكشير سلطان الأخبار في العقد الثاني من الألفية الثالثة عن أنيابه وكشفه أوجهًا أخرى لم تكن في الحسبان، صار الإعلام التقليدي بصحفه وقنواته ومواقعه الإلكترونية الخبرية في مواجهة صادمة بمواقع ومنصات التواصل الاجتماعي بصفتها صانعة، وناقلة، ومروجة ل"الأخبار" والتحليلات والرؤى وجميعها قادرة على تشكيل وصناعة وتوجيه الرأي العام، أو تفتيته وتشتيته .

حين يدهشك سائق الأجرة باطلاعه على خبايا النظام السياسي وتفاصيل المخطط الاقتصادي وأسرار الوزراء ومسؤولي الدولة، فاعلم أن مصادر الأخبار لم تعد تلك التي يدرسونها في الجامعات ويؤلفونها في الكتب. وحين تستيقظ من النوم لتجد "هاشتاج" "أوقفوا الإعدامات" هو رقم واحد على "تويتر" ردًا على تنفيذ حكم الإعدام في قتلة وإرهابيين، رغم أن الشارع راض على الأحكام والقضاء عادل في الإجراءات، فاعلم أن نبض الشارع الافتراضي كثيرًا ما يقف على طرف النقيض من نبض الشارع الحقيقي .

والحقيقة هي أن صراعًا محمومًا دائرة رحاه حاليًا يدور بين أقطاب الإعلام التقليدي الذين يحاولون بشتى الطرق الحفاظ على هيمنتهم الخبرية والذود عن مملكتهم الإعلامية من جهة، وبين طرف آخر غير محدد الهوية، ضبابي المعالم، مجهول المصدر، مشوش الملامح، متغير على مدار الثانية. وهذا الأخير فيه الصالح والطالح، والحقيقي والمفبرك ونصف المفبرك. وهو يحسب له أنه مكن ملايين البشر على الكوكب من مصادر المعرفة، لكنه مكنهم كذلك من صناعة المعرفة، ومنها الأخبار. وإذا كان هناك ملايين قادرة أو متمكنة أو ملمة بقواعد العمل الخبري والإعلامي، فهناك ملايين أخرى غير قادرة أو متمكنة أو ملمة بالقواعد، ناهيك عن فريق ثالث يفتك بالساحة الخبرية دون هوادة، ويعيث فسادًا على الشبكة العنكبوتية دون ضابط، وينثر ما يحب ويحجب ما لا يحب، والأهم من هذا وذاك أن الكوكب صار لديه صانع أخبار ومشكل رأي عام وموجه سياسات وناقد إجراءات ومشعلل للمشاعر ومهدئ للخواطر ومهيمن على سكان الكوكب

بدقة زر، لكن هذا المهيمن هلامي التكوين مبهم التركيب غير قابل للمحاسبة أو المراجعة أو حتى المخاطبة. لماذا؟ لأن هذا الصانع الخبري المهيمن افتراضي في الأساس .

الأساس الذي يمكن لكل المهتمين بعوالم صناعة الأخبار والرأي العام أن ينطلقوا منه هو أن الطريق إلى تشكيل الرأي العام في الألفية الثالثة لا يمر إلا عبر مواقع التواصل الاجتماعي ذهابًا وإيابًا. وسواء كان هذا علامة طيبة أو نذير كوارث تظل حقيقة واقعة. وسواء استيقظت دول العالم المتقدم على مغبة الأخبار الوهمية والمعلومات المفبركة، أو نامت على إيقاع تغريدات لرؤساء وتدوينات لشعوب يظل أمرًا حادثًا. وسواء وجدت دول العالم النامي نفسها في غياهب أخبار مواقع التواصل الاجتماعي التي تهدد مصائرها وتهيمن على شعوبها، وما يمكن أن تفعله بسياسات أنظمتها ومصالح دولها، يظل الوضع الراهن قائمًا إلى أن يجري حسم المواجهة ويتفوق أحدهما على الآخر ويتمكن من كسر الحلقة وإعلان هيمنته.

فإما تهيمن الشبكة العنكبوتية على مصادر الأخبار التقليدية بسياسة البقاء للتطبيقات والدوام لصناعة الأخبار غير معلومة المصدر. وإما أن ينجح الإعلام التقليدي في إعلان استعادته لأراضيه مع تحجيم منافسيه عبر توعية المتلقي وتنشئة أجيال قادرة على التفرقة بين الحقيقة والفبركة. وإما أن يستمر الصراع أبديًا مفككا دولا ومشتتًا شعوبا ومتلاعبًا بأقدار لحين قدوم لاعب جديد إلى ساحة الأخبار والمعلومات لتتحول المواجهة إلى ثلاثية وتصبح المنافسة جماعية.

دراســـــــــات

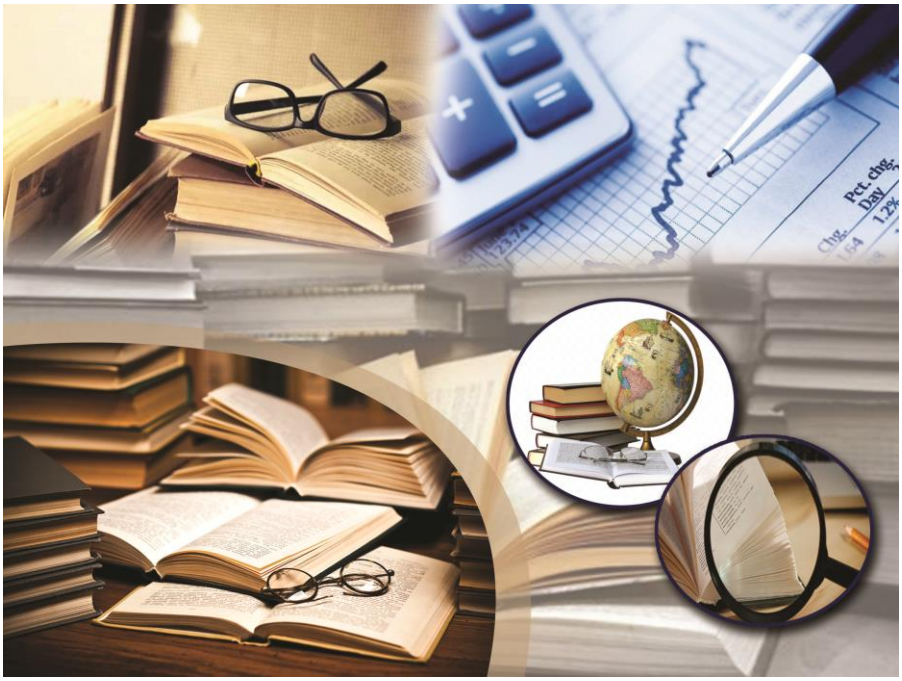

- تركيا واستهداف الجغرافية السياسية للمشرق العربي الحالة السورية نموذجاً — د. مصطفـــــي عبـــدالعزيز
- ظاهرة ازدراء الأديان والرسل ودور جامعة الدول العربية في التصدي لها — ســـــــامية بيـــــرس
- مستقبل الترتيبات الأمنية العربية في البحر الأحمر — شريف شعبـــــان مبـــروك

تركيا واستهداف الجغرافية السياسية للمشرق العربي الحالة السورية نموذجاً

مصطفى عبد العزيز مرسي

سفير مصر الأسبق في سوريا، وكاتب مصري - القاهرة

بعد حرب عبثية استمرت قرابة ثمان سنوات كشفت حجم المؤامرة وراء استهداف تشريد شعب وتفتيت دولة. وفي الوقت الذي وصلت الأزمة السورية إلى لحظة فاصلة، واقتراب التسوية السياسية تحاول دول الجوار (إيران– تركيا – إسرائيل) تطوير وتوسيع نطاق مصالحها ونفوذها على حساب سورية الدولة ومصير شعبها، فإيران تتبع سياسة تدخلية (تصدير الثورة)، والاستثمار في ماضٍ فارسي إمبراطوري. وممارسة حق التغيير في منطقة جوارها العربية، التي تمثل سوريا فيها العمق الاستراتيجي.. وإسرائيل تواصل بدورها ضغوطها على سورية لتجريدها من حلفائها، ولتحقيق سياسة الوفاق معها بالإرغام لعلها تسلم – في النهاية – بأمر الاحتلال الإسرائيلي لهضبة الجولان.

وتركيا تسعى بدورها لتمرير مشروعها العثماني الجديد مرتكزة على حركات الإسلام السياسي في المنطقة العربية – على أمل أن تصبح القوة الإقليمية الكبرى والمهيمنة فيها. وكأننا على هذا النحو، أمام مشهد لثلاث ورثة "مدعين" يتصارعون حول تركة أو غنيمة واحدة (سورية الإقليم).

أولاً: كيف أسهمت تركيا في تحويل سلمية الانتفاضة إلى عسكرتها؟

اتسمت العلاقات بين البلدين – كما هو معروف– طوال عهد حافظ الأسد بالتوتر إن لم يكن بالعداء، بسبب علاقة تركيا الوثيقة بإسرائيل، وقضايا المياه والسدود، وعلاقة سورية بحزب العمال الكردستاني (التركي) واحتضانها لزعيمه أوجلان وبعض أنصاره.

وكادت العلاقات بين البلدين أن تصل إلى حافة الحرب بينهما، إلا أنه تم تدارك الوضع، بتدخل مصري وانتقلت العلاقة إلى مرحلة من التهدئة بتوقيع "اتفاق أضنه" عام 1998 الذي أنهى علاقة سورية بهذا الحزب وفتح صفحة جديدة للعلاقات بين البلدين[1].

وبتولي بشار الأسد رئاسة الدولة السورية عام (2000) انتقلت العلاقات بين البلدين إلى مرحلة جديدة توجت بزيارته لأنقرة (عام 2004)، ورد أحمد نجدت سيزر رئيس التركي (وقتئذ) هذه الزيارة عام 2005 وتم خلال ذلك توقيع عدة اتفاقات تعاون في مختلف المجالات، عبرت معها العلاقات الثنائية إلى مرحلة أكثر تطورًا، نتيجة اعتماد رؤية أحمد داود أوغلو المتعلقة "العمق الاستراتيجي" وسياسته "تصفير النزاعات"، والتي حظيت فيها منطقة الشرق الأوسط (بلاد الشام) والعراق بأهميته خاصة، واتجاه السياسة الإقليمية التركية إلى تبني مفهوم يقوم على تعدد وتنوع المحاور فيها بهدف جعل تركيا (دولة مركزية) ووضع نهاية لما يسميه "اغتراب" دول الجوار، على نحو لا تكون عائقًا أمام إعادة تموضع تركيا في الشرق الأوسط، وبالتخلي عن العقلية التي رأت أن السياسة الخارجية التركية يجب أن تنطلق من الاعتبارات الداخلية (الأمنية) التي رأت في دول الجوار مصادر للتهديد لا الفرص[2].

ثم دخلت العلاقات بين البلدين إلى مرحلة أكثر تطورًا بإنشاء مجلس التعاون الاستراتيجي عام 2009، وأجريت في نفس العام مناورات عسكرية مشتركة بين البلدين.

---

(1) تم تدارك هذا الوضع نتيجة تدخل مصر في عهد الرئيس (السابق) حسنى مبارك، وتخلي سوري عن احتضان أوجلان وخروجه منها إلى أن تم القبض عليه في كينيا وترحيله إلى تركيا ومازال مسجونًا حتى الآن.

(2) أحمد داوود أوغلو ، العمق الاستراتيجي: توقع تركيا ودورها في الساحة الدولية، ترجمة محمد صابر ثلجي، د. طارق عبد الجليل، ط 2 (الدوحة مركز الجزيرة للدراسات، بيروت : الدار العربية للعلوم – ناشرون ، 2011، ود. إبراهيم البيومي غانم، "أحمد داوود أوغلو وتحولات السياسة التركية تجاه مصر والعالم العربي، ورقة قدمت إلى المؤتمر الثالث: مصر وتركيا وتحقيق الاستقرار في الشرق الأوسط، مركز بحوث دراسات الشرق الأوسط والدراسات المستقبلية، جامعة عين شمس، 17 مايو 2010.

وفي الواقع أننا أمام دولة يحاول ساستها انتزاعها من إملاءات جغرافيتها، ومن ضغوط أسرها التاريخي، الذي ربطها بدول المنطقة العربية لعدة قرون، وقد أدت حقبة كمال أتاتورك وما بعدها إلى فك ارتباطها مع العرب وقضاياهم وسعيها بالمقابل للارتباط بالاتحاد الأوروبي الذي مثل الخيار الاستراتيجي الرئيسي للدولة التركية والذي قوبل برفض واضح من هذا الاتحاد، فبدأت تركز اهتمامها على المنطقة العربية بصفة عامة وسوريا بصفة خاصة، التي تشترك معها بحدود برية تقدر بـ 822 ك، وتحتل فيها سوريا موقع البوابة المفتوحة على جنوب تركيا، ويمثل هذا الموقع أهمية كبيرة في المجال الاقتصادي والتجاري، والمعبر الطبيعي الرئيسي لتركيا للدول المجاورة لسورية ولدول الخليج العربية.

ثم جاءت مرحلة ثورات الربيع العربي، فغيرت تركيا من سياستها الإقليمية وبدأت تخطط لمزيد من التدخل في شئون المنطقة العربية، والتي انتقل خلالها مرحليًا الإسلام السياسي من منطقة الهوامش إلى المركز، وبدأت تركيا تقوم بدور "الأب الروحي" للحركات الإسلامية في المنطقة، وباحتضانها التيار الإسلامي المعارض في سورية، على أمل أن تصبح أنقرة صاحبة النفوذ والكلمة الفصل مستقبلاً فيها حال تمكن هؤلاء من الوصول إلى السلطة، كما فعل رفاقهم – وقتئذ – في مصر وتونس وليبيا، وهو ما كان يتسق مع الاستراتيجية الأمريكية في منطقة الشرق الأوسط – وقتئذ– التي كانت ترى تركيا كنموذج لـ"الإسلام المعتدل" واستخدام هذه الرؤية في إقامة شرق أوسط جديد يتم فيه إضعاف البعد العربي وبعناوين الديموقراطية وحقوق الإنسان.

يضاف إلى ذلك أن تركيا رأت أن انفراد إيران بالنفوذ في العراق بعد إسقاط نظام صدام حسين، بالإضافة لوجود نفوذ إيراني كبير في سوريا، سوف يطوق تركيا بهلال نفوذ إيراني يمتد من حدود أرمينيا إلى ساحل المتوسط. لذلك عندما اندلعت الانتفاضة السورية (2011) لاحت لتركيا فرصة ذهبية لتصحيح موازين القوى لمصلحتها، وبدأت تخطط لإسقاط النظام السوري المؤيد لإيران.

وخلال الأشهر الأولى للانتفاضة السورية، بادرت تركيا إلى استغلال حالة الارتباك التي يمر بها النظام السوري للدفع به في اتجاه تشكيل حكومة سورية تضم ممثلين عن تنظيم "الإخوان المسلمين"، بما يضمن لتركيا نفوذًا واسعًا داخلها، لكن هذه المحاولة فشلت برفض سوريا القاطع والصريح لها، الأمر الذي دفع أنقرة إلى إشهار عدائها للنظام السوري، عبر احتضانها للمعارضة السياسية والعسكرية السورية[3].

وفي مقابلة تلفزيونية بتاريخ 2011/5/2 حذر فيها أردوغان الرئيس السوري من عواقب الاستمرار في قتل المدنيين، كما حصل عام 1982 في حماة، وأنه إذا تصاعدت الأمور، فإن تركيا ستكون مضطرة إلى القيام بما يجب القيام به، ومضيفًا في تصريح آخر بتاريخ 2011/8/7 أن ما يحدث في سورية ليس مسألة خارجية، بل مسألة داخلية بالنسبة لتركيا[4]. واستنكر الرد السوري هذا التحول في مواقف تركيا، وبدأ الحديث عن انضمام تركيا إلى المحور الأمريكي، واستحضرت الخلفية "الإخوانية" لأردوغان وعدد من أعضاء حزب العدالة والتنمية[5]، وانتهى الأمر بالقطيعة الكاملة بين البلدين بعد إعلان أردوغان يوم 2011/9/22 ضرورة تنحي بشار الأسد لحل الأزمة السورية.

وفي الواقع "بأنه بعد ستة أشهر فقط من بداية الانتفاضة الشعبية السورية السلمية، عملت تركيا على أن يكون لجماعة الإخوان المسلمين الدور الأكبر في الائتلاف السوري المعارض وفي تشكيل تنظيم عسكري إخواني لمواجهة النظام السوري على أمل إسقاطه سريعاً"[6].

---

(3) د. عزمي بشاره، سورية : درب الآلام نحو الحرية، محاولة في التاريخ الراهن، (أذار / مارس 2011 – أذار – مارس 2013) المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات – الدوحة – الطبعة الأولى – أغسطس 2013.

(4) المرجع السابق ص 501.

(5) علي حسين باكير، الأبعاد الاستراتيجية للسياسة الإيرانية والتركية حيال سورية في خلفيات الثورة السورية، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الدوحة 2013، ص 646

(6) د. حسن أبو طالب، "الدور الإقليمي التركي والأزمة السورية: الفشل المركب وضياع الهيبة"، في رؤى مصرية، مركز الأهرام للدراسات الاجتماعية والتاريخية، القاهرة، العدد 19 أغسطس 2016 ص 41.

وتزايد احتضان تركيا لمؤتمرات المعارضة السورية على أراضيها والتدخل بشكل واضح في الشأن السوري الداخلي، من ذلك مثلا أنه بعد إعلان المقدم حسن هرموش، أحد ضباط الفرقة الحادية عشر انضمامه إلى ما أسماه "لواء الضباط الأحرار"، بدأت عملية اقتلاع أهل منطقة جسر الشعور في 2011/6/4، وتهجير أغلبهم إلى منطقة الحدود التركية – السورية، وتم استيعابهم في المخيمات التي نصبتها الحكومة التركية في وقت مبكر (أوائل إبريل 2011). وبنشوء مخيم النازحين السوريين في جسر الشغور، بدأ فصل فرعي جديد في لعبة كبرى، مثلت فيها هذه المخيمات، ما أسماه أحد الكتاب السوريين "جوكر أردوغان"، وباتت تركيا تملك ورقة إضافية بوصفها من أكبر اللاعبين في الشأن السوري، ومن أقواهم تأثيرًا وتدخلها ميدانيًا في الأراضي السورية[7]. وتجدر الإشارة هنا إلى أنه في 2017/6/5 كانت المظاهرات تعم جسر الثغور، ورافقتها تظاهرة صغيرة على الحدود السورية– التركية مؤلفة من 100 متظاهر تستصرخ رئيس الوزراء أردوغان بهتافات "أردوغان، أردوغان" على طريقة "وا معتصماه واه معتصماه."

وفي تقدير كاتب آخر، "أن السلوك التركي بدا كما لو أنه يفتعل قضية إنسانية لم تكن موجودة بعد، في ذلك التاريخ المبكر بغية توظيفها سياسيًا من أجل الضغط على النظام السوري، والتي وصلت في النهاية إلى تكرار مطالبة أردوغان بشار الأسد بالتنحي عن منصبه في سبتمبر 2011[8].

واتسع نطاق دعم تركيا للانتفاضة السورية لاعتقاد رئيس الوزراء التركي وقتئذ رجب طيب أردوغان، أن نظام بشار الأسد يشرف على السقوط لأن الأزمة السورية سرعان ما تشهد فصلها الأخير. وفي زيارته لمحافظة أروفه جنوب تركيا وبصحبته رئيس الائتلاف لقوى الثورة والمعارضة أحمد معاذ الخطيب لأحد أكبر المخيمات التركية للاجئين

(7) محمد جمال باروت، العقد الأخير في تاريخ سورية: جدلية الجمود والإصلاح، المركز العربي للأبحاث دراسة السياسات، الدوحة – قطر، الطبعة الأولى مارس 2012، ص 271–274.

(8) عزمي بشارة، مرجع سبقت الإشارة إليه ص 499

السوريين، صرح أردوغان "أنه تلقى إشارات قوية تؤكد قرب سقوط نظام الأسد[9]. وضمن هذا التوقع قامت تركيا بزيادة دعمها لفصائل الجيش السوري الحر وأصبحت أهم مركز لتجمع فصائل المعارضة السورية ونتيجة لدعم تركيا المتواصل لها امتلكت قدرة التأثير على توجهاتها[10].

كما استغلت تركيا ورقة السلاح والإغاثة منذ بداية 2012، والتي شهدت الثورة السورية فيها تحولاً مفصليًا في مسارها، حيث أصبحت العسكرة هي الظاهرة الرئيسية لهذه الثورة، وتحولت تركيا إلى أهم مدخل لتوريد السلاح إلى سورية، مقارنة بدول حدودية أخرى، لدرجة أصبحت معها ديمومة هذه الثورة من دون الحدود التركية، التي أصبحت مفتوحة لتدفق السلاح إلى داخل سورية، أمرًا يصعب تحقيقه[11].

ثانياً: علاقة تركيا/ أردوغان بالتنظيمات المتطرفة والإرهابية

بعد سقوط حكم الإخوان في مصر، أصبحت تركيا أشد تصلبا تجاه خيار إسقاط النظام في سوريا، واستخدمت من أجل ذلك كل الوسائل والأدوات، وفتحت أبوابها لكل القوى الجهادية والتكفيرية بكل مسمياتها وأنواعها، وفي مقدمتها تنظيم داعش (الدولة الإسلامية) وجبهة النصرة وكلاهما كان ضمن تنظيم القاعدة. وكان أردوغان يتطلع لإعادة كتابة التاريخ التركي، ومن ضمنه استعادة اللغة العثمانية، وتداعبه فكرة عودة "السلطان" والهيمنة الإقليمية. وضمن هذا الإطار كان حديث أردوغان عن حقه في التدخل في شئون سوريا على أساس أنها كانت سابقًا جزءًا من الولايات العثمانية، ولم يتردد في الاستعانة بالتنظيمات الإرهابية لتحقيق أهدافه التوسعية في المنطقة العربية، فالغاية تبرر الوسيلة، وهي السعي لإلحاق الهزيمة بالنظام السوري.

(9) محمد علي فرحات، "أردوغان والإسلام السياسي العربي"، صحيفة الحياة اللندنية، بتاريخ 2016/3/10
(10) عزمي بشارة، مرجع سبقت الإشارة إليه ص 508.
(11) المرجع السابق ص 511.

وبدأت تركيا في عملية جذب لمختلف التنظيمات الإرهابية إلى أراضيها، ومن ثم ترسلهم إلى سوريا والعراق. ونشرت شبكة "سكاي نيوز" البريطانية وثائق تثبت أن الحكومة التركية قامت بختم جوازات سفر المقاتلين الراغبين في عبور الحدود التركية للانضمام لداعش في سوريا، كما حصلت على جوازات سفر بعض المتطرفين عليها ختم الخروج من الحدود التركية.

كما كشفت المعارضة التركية عن أن حكومة العدالة والتنمية فتحت الحدود على مصراعيها لتدفق الإرهابيين إلى سوريا وسلحتهم بلا حدود، وأن شركات الدواء الخاصة والمقربة من حكومة حزب العدالة والتنمية، هي من سلمت غاز السارين للإرهابيين في سوريا لاستخدامه ضد المدنيين لاتهام حكومة دمشق بحادثة خان شيخون الكيميائية الإجرامية لتأليب المجتمع الدولي ضدها.

وبدأت تركيا تغير من سياستها وتوجهاتها الخارجية بعد فشل الانضمام للاتحاد الأوروبي، فتوجهت للعالم العربي والإسلامي، واستغلت ماضيها الحافل بسرديات الغزو والاحتلال لدول المنطقة العربية في القرون الوسطى، وتوجهت الآلة الإعلامية التركية نحو الشباب العربي بالتركيز على "حنينه" لهذا الماضي، و"وهم الخلافة" و"المجد العثماني"[(12)]. وساعدت تركيا على تغذية وتعزيز قوة "داعش" عبر تهاونها في التعامل مع هذا التنظيم، وعدم اتخاذ خطوات جدية لمواجهته ومنع انتشاره في المنطقة. فالمقاتلون المنتمون إليه من جميع أنحاء العالم كان يسافرون أولاً إلى تركيا، ثم منها للعراق وسورية لتشكيل العمود الفقري، والقوة الضاربة للتنظيم. ففي عام 2013 وحده مثلا، عبر 30 ألف متطرف عبر الأراضي التركية، ولم تقم بتشديد الرقابة على حدودها إلا بحلول أغسطس 2015، فضلاً عن أن جرحى هذا التنظيم كانوا يتلقون العلاج في مستشفيات شرق تركيا، كما كانت تفعل إسرائيل، بالإضافة إلى تورط شخصيات تركية

(12) محمد نجم، مسارات وارتدادات أزمات تركيا الاقتصادية"، مجلة شئون تركية، مركز الأهرام للدراسات السياسية والاستراتيجية، القاهرة، العدد العاشر، خريف 2018، ص 61.

في شراء النفط السوري والعراقي التي كانت داعش تسيطر على مصادره، وتقوم ببيعه عبر عدة نقاط على الحدود التركية مما ساهم في توفير الدعم المالي لخزانة التنظيم، وذلك وفقًا لتقرير الأمم المتحدة المؤرخ نوفمبر 2014. كما تشير بعض التحقيقات إلى أن تركيا كانت ضمن أهم مراكز تصنيع العبوات الناسفة التي يستخدمها أعضاء التنظيم[13].

ومما يثير الشك والريبة في المواقف التركية من "داعش" ما لوحظ في الاجتماع الذي عقد في جدة 2014/9/11 وشارك فيه عشر دول في التحالف الدولي ضد داعش، وحضره ممثل لتركيا، وفي الوقت الذي أكدت فيها هذه الدول التزامها بالوقوف ضد هذا التنظيم، فإن الجانب التركي رفض – آنذاك – توقيع البيان الختامي لهذا الاجتماع بحجة وجود رهائن أتراك في أيدي داعش. وفي المؤتمر الدولي حول السلام والأمن في العراق الذي عقد في 2014/9/15 ، ظلت أنقرة على تحفظها من الانضمام للتحالف الدولي، وركزت على موضوع آخر وهو ضرورة إسقاط بشار الأسد، واستمرت أنقرة في سياسة الغموض تجاه "داعش" كما رفضت السلطات التركية مثلا، ولعدة أشهر السماح بمرور الأسلحة والإمدادات لمدينة كوباني، "عين العرب" السورية، التي تحاصرها قوات "داعش"، وكانت هذه المدينة محطة أساسية في المقاومة ضد هذا التنظيم الذي تم طرده في يناير 2015، وأدى الوقت الضائع إلى إعطاء "داعش" فرصة زمنية للتمدد والتوسع الجغرافي. لكن توسيع دور الأكراد في محاربة التنظيم عمق مخاوف تركيا، وأثار الموقف التركي على هذا النحو اتهام أنقرة بالتواطؤ المتعمد مع "داعش."

---

(13) Colin P, Clarke. Turkey's Double ISIS Standard, Foreign policy.12 April. 2018.
جلون بي كلارك، "المعيار المزدوج.. التعامل التركي مع تنظيم "داعش" ترجمة آمنة فايد، مجلة شئون تركية، مركز الأهرام للدراسات السياسية والاستراتيجية القاهرة، العدد العاشر، ص 30 ، وفقا لتحليل الأكاديمية العسكرية الأمريكية "ويست بوينت West Point" لأكثر من 4.600من تسجيلات لأفراد داعش، والتي تمت كتابتها بين أوائل 2013 وأواخر عام 2014، أن 93% من المقاتلين الأجانب المسجلين قد دخلوا إلى سوريا عن طريق ست مدن حدودية مختلفة، وهي: يايلاداغي، وأتميا، وأعزاز، الري، وجرابلس، وتل أبيض. بالنسبة لكثير من المقاتلين الأجانب كانت أسطنبول هي النقطة الأولى للدخول.

وجاء شاهد من أهلها على التورط التركي في دعم التنظيمات الإرهابية، فقد قدمت صحيفة "جمهورييت" التركية أدلة على تورط أنقرة في إرسال السلاح للمناطق السورية[14].

وقد قامت الأطراف الإقليمية، وفي مقدمتها تركيا، بأدوار لا يستهان بها في مد أمد الأزمة السورية. وسعت تركيا إلى ترويج صورة لنفسها بحسبانه نموذجًا إسلاميًا معتدلاً، يمكن أن تقتدي به الدول العربية، خاصة فيما يتعلق بالجمع بين نموذج اقتصادي ناجح، وحكومة إسلامية جاءت للحكم من خلال انتخابات ديمقراطية، وهو ما عبر عنه وزير الخارجية التركي السابق في مايو 2011، حيث أكد أن العرب يحاولون استلهام النموذج التركي، فهو ربيع عربي وربيع تركي في الوقت ذاته على حد قوله.

وتتحمل تركيا تحت رئاسة أردوغان، على هذا النحو، المسئولية التاريخية عن تضخم أعمال "داعش" كما تشارك دولة قطر في هذه المسئولية بتمويلها عمليات "داعش" في سوريا وليبيا[15].

ولهذا تزايدت الاتهامات الدولية لتركيا بدعم الإرهاب داخل سوريا، وشنت أغلب وسائل الإعلام الغربية حملات على المواقف التركية وبصفة خاصة على رئيس الاستخبارات التركية خاقان فيدان، الذراع اليمنى لأردوغان، واتهمته بدعم تدفق المتطرفين "الجهاديين التكفيريين إلى سوريا"، كما سمح للجيش السوري الحر" بتنظيم نفسه على الأراضي التركية وإجراء التدريبات فيها، كل هذه التصرفات والتحركات التركية وغيرها تكشف عن مخطط تركي يسعى لاستعادة الهيمنة على سوريا ودول الجوار[16].

---

(14) جمهورييت تنشر أدلة على تورط أنقرة في إرسال السلاح لسوريا، موقع إيلاف، 29مايو2015.
http://middle-est-online.com/?id=200945

(15) مكرم محمد أحمد، "ماذا تبقى من داعش"، الأهرام، القاهرة ، 2019/2/12.

(16) في هذا الشأن انظر: طلال عتريس، "الرهانات الإقليمية لتركيا وإيران بعد الربيع العربي"، مجلة شئون عربية القاهرة، العدد 161 – ربيع 2015 ص 47-48. و "أحمد دياب، "الأدوات المحلية للقوى الإقليمية غير العربية وفعالية دورها في المنطقة"، مجلة شئون عربية القاهرة، العدد 161 – ربيع 2015 ص 74-75.

ثالثًا: المأزق الكردي في تركيا وانعكاساته في المنطقة:

طوال عدة عقود ظلت المسألة الكردية تلقى بظلالها على مسار السياسة الإقليمية لتركيا، بل وعلى علاقاتها الدولية، كاشتراط الاتحاد الأوروبي ضمن أمور أخرى تحسين معاملة الأكراد لبدء النظر في تطوير العلاقات بينهما. وأصبحت المسألة الكردية ظاهرة سياسية وأمنية مناطقية في جنوب شرقي تركيا. ولها امتداداتها في دول المنطقة.

وتاريخيًا فقد الأكراد وحدتهم الجغرافية وصاروا مشتتين على أربع دول هي تركيا التي تضم الجزء الأكبر من المساحة الجغرافية لكردستان التاريخية 194000 كم2 والعدد الأكبر من الأكراد الذي يقدر عددهم بـ 15 مليون أو ما بين 20–30% من إجمالي السكان إضافة لإيران (125000كم) والعراق (72000 كم) وسوريا (18000 كم). وعندما انهارت السلطنة العثمانية في بداية العشرينات من القرن الماضي، برزت المسألة الكردية إلى الوجود، وظلت من القضايا الأساسية التي رافقت فترة تأسيس الجمهورية التركية حتى يومنا هذا. فرغم أن الميثاق الوطني التركي الذي كان الثوار الأتراك قد أصدروه، أكد على احترام حقوق الأقليات إلا أنه بمجرد أن استتب لهم الأمر، قلبوا ظهر المجن لكل من الأكراد والأرمن، وبدأوا سياسة تهدف إلى صهر الأقليات في الجسم التركي الكبير، فجاء الدستور التركي خاليًا من أي ذكر لحقوق أو امتيازات للأقليات غير التركية، ومن هذا المنطلق أطلق على الأكراد تسمية جديدة حيث عرفوا بـ "الأتراك الجبليين الذين نسوا لغتهم التركية"، واستهلت تركيا العلمانية بقيادة مصطفى كمال أتاتورك مرحلتها السياسية بتهميش حقوق الأقليات، واستمرت سياسة كبح جماح الأكراد بالقوة، ولكنها لم تنجح في القضاء على التطلعات القومية لأكراد تركيا[17] الذين سبق أن قاموا بسبع عشرة ثورة بين عامي 1925–1938 .

و بشير عبد الفتاح، "السياسة التركية في محيط إقليمي متغير"، شئون عربية القاهرة ، العدد 107 ربيع 2014 ص 85.

(17) د. مصطفى اللباد، "العامل الكردي في السياسة التركية" ، مجلة السياسة الدولية، القاهرة، العدد 169 يوليو 2007، ص 190 وما بعدها، والمرجع 97. وتجدر الإشارة إلى أن معاهدة يفر التي عقدت عام 1820في

وفي غضون ذلك دمرت القرى الكردية، وقتل الآلاف وشردوا واتجهت هذه الأزمة لتنحو منحى سياسيًا وأمنيًا خطيرًا في مستهل عقد الثمانينات، بعد ظهور حزب العمال الكردستاني، لشعور الأكراد بانتقاص الدولة التركية لحقوقهم الثقافية، مقارنة بما يتمتع به المواطنون الآخرون، وأدى ذلك إلى حد مطالبة بعض الشرائح الكردية بإقامة دولة كردية على الأراضي التركية وأصبحت القضية الكردية مع مرور الزمن، تأخذ أبعادًا أكبر يصعب إدارتها فضلاً عن انعكاساتها السلبية على علاقات تركيا الإقليمية[18].

ولم يكن حال أكراد إيران أفضل من حال أكراد تركيا وفي العراق تطورت المسألة الكردية إلى نشوء نواة لكيان فيدرالي كردي بصورة رسمية منصوص عليها في الدستور العراقي، وهو ما دفع أردوغان إلى التصريح في 2007/1/9 "إن تقسيم العراق أمر خطير جدًا وغير مقبول ، وهي مسألة لها عندنا أولوية حتى على العلاقة مع الاتحاد الأوروبي"[19].

وفي سورية حمّلت تركيا أكراد سورية مسئولية الحفاظ على أمن حدودها مع تركيا، وطالبتهم بمطاردة مقاتلي حزب العمال الكردستاني، وبدأت الاستعداد لشن عمليات عسكرية شاملة داخل الأراضي السورية. وتنظر تركيا إلى وحدات حماية الشعب (السورية) كامتداد لحزب العمال الكردستاني المحظور والذي يخوض تمردًا مسلحًا في تركيا منذ أكثر من أربعة عقود. وفي تقدير البعض أن تركيا تحاول تصدير أزماتها

نهاية الحرب العالمية الأولى، كانت تعطي الأكراد حق إنشاء دولة في كردستان، إلا أن ذلك تم إلغاؤه في معاهدة لوزان عام 1923.

(18) اعترف العراق بوجود قومية كردية من خلال قانون الحكم الذاتي لمنطقة كردستان، الذي صدر في عهد صدام حسين، في 11 مارس 1974، بالقرار رقم 247 بتعديل الدستور المؤقت. انظر "قانون الحكم الذاتي لمنطقة كردستان"، منشورات وزارة الإعلام العراقية، السلسلة الوثائقية ،العدد (33) بغداد 1974 ص 7.

(19) د. محمد نور الدين، :"السياسة الخارجية التركية.. أسس ومرتكزات" في (تركيا بين تحديات الداخل ورهانات الخارج)، الدار العربية للعلوم – ناشرون، مركز الجزيرة للدراسات ، الدوحة / بيروت 2010، ص 136 وما بعدها.

الداخلية إلى المنطقة، من خلال مشروع توسعي يسعى لـ "تتريك" المناطق السورية التي يسيطر عليها الجيش التركي مرحليًا وتغيير ديموغرافيتها[20].

ويلاحظ أنه في مرحلة المطالبة بالاستقلال في الحالة السورية، رفض الوطنيون السوريون الحديث عن وجود مشكلة كردية في سوريا معتمدين على حقيقة أن الغالبية من الأكراد المتواجدين في سوريا هم بالأصل نازحون من تركيا في فترات متفاوتة، وهذا الوضع ربما جعل الحركة الوطنية السورية لا تفكر بجدية في هذه المسألة أو احتمال تطورها، كما أن العدد الصغير نسبيًا من الأكراد في سوريا (يقدروا حاليًا بمليون ونصف المليون)، كان هو الآخر عاملاً مساعدًا ساهم في بلورة الموقف السوري، فالمنطقة السورية كانت ومازالت تضم العديد من الأقليات الإثنية والمذهبية. والأكراد السوريون أغلبهم سنة وقلة منهم شيعة أو علويون. ورغم أن ما يفرق بين الأكراد والأغلبية العربية هو عامل اللغة، إلا أن "الكردية" ليست لغة واحدة ولكنها مجموعة متفرقة من اللهجات، وأغلب الأكراد يتحدثون العربية بطلاقة.

واندمج أكراد سورية بدرجات عالية، وإن كان بدرجات متفاوتة، في الكيان الاجتماعي السوري نتيجة المشترك الديني والمصالح الاجتماعية والاقتصادية. وتبدو ذروة ذلك في النصف الأول من القرن العشرين، فنجد أن من بين ثماني شخصيات سياسية وعسكرية تولت رئاسة الجمهورية، أربعة منهم أكراد[21].

---

(20) صرحت إلهام أحمد رئيس مجلس سوريا الديمقراطية في مقابلة مع صحيفة الشرق الأوسط 2009/1/22."أن حزب العمال الكردستاني تنظيم كردي تأسس في تركيا ضمن ظروف منع الحقوق المشروعة للشعب الكردي، إذن المسألة هي أزمة تركية داخلية بامتياز تنتظر حلاً عادلاً، والسؤال يتطلب معرفة أسباب ظهور هذا الحزب ومعالجة القضايا التي يطالب بها. فإذا قامت الدولة التركية بحل القضية الكردية لديها، هذا يعني أن مشكلتها مع حزب العمال الكردستاني أيضًا تنتهي، بالتالي لن تبقى مشكلة تركية مع أكراد سوريا لأن جوهر القضية بالنسبة إلى الحزب الحاكم في تركيا هم الأكراد أنفسهم."

(21) لمزيد من التفاصيل في هذا الشأن انظر: آزاد أحمد علي، دور أكراد سورية في المتغيرات السياسية والانتفاضة الراهنة"، في (خلفيات الثورة: دراسات سورية) المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت 2013، ص 335 وما بعدها.

وعلى الرغم من المعاناة الكردية جراء السياسات المتعسفة من السلطات السورية المتعاقبة، لاسيما خلال حكم البعث، حافظت التوجهات السياسية للأكراد على طابع نضالها السلمي الديمقراطي، وظلت تؤكد على عدم الرهان على العامل الخارجي، وإن كانت السلطة البعثية الحاكمة كان يراودها الشكوك في هذا الشأن.

وتهدف المخططات التركية إلى حرمان وحدات حماية الشعب (السورية) من السيطرة على (الممر الحدودي الشمالي في سوريا)، عن طريق دعم التنظيمات المتطرفة والاستعانة بها لمحاولة عزل هذه الوحدات. ومنطق أردوغان هنا بسيط، هو أن تسعى تركيا لفرض سيطرتها على الشمال السوري، عن طريق وكلائها من السنة، بما في ذلك المتطرفين. فبوابة أردوغان إلى سوريا تعتمد على إثارة العداء العربي الكردي في هذه المنطقة بتحريض العرب السوريين ضد أكراد حزب الاتحاد الديمقراطي[22].

ومازالت تركيا تسعى إلى إقامة "منطقة آمنة" على حدودها مع سورية، واكتسب هذا التوجه زخمًا كبيرًا بعد إعلان واشنطن عن عزمها الانسحاب من سورية، مما أدى إلى نوع من صراع الأدوار بين القوى المتدخلة في الشأن السوري، وأعلن أردوغان عن عزم بلاده إقامة منطقة آمنة في شمال سورية بعمق 32 كيلو مترًا في الأراضي السورية. كما صرح أردوغان في 2017/2/13 "أن هدفنا (إقامة) منطقة مساحتها أربعة أو خمسة آلاف كلم مربع خالية من الإرهاب بزعم حماية النازحين السوريين في تلك المنطقة وأن تطلق فيه حرية الحركة للجيش التركي[23].

وتجدر الإشارة هنا إلى تجربة إقامة المنطقة الآمنة في العراق في شمال وجنوب العراق والذي أصدر مجلس الأمن قراره رقم 688 في 1991/4/5 الذي ألزم السلطات العراقية في أعقاب حرب الخليج الثانية، بعدم عرقلة جهود الإغاثة الدولية في مناطق

(22) محمد محمود السيد، أردوغان في سوريا على إنقاص العداء العربي- الكردي، مجلة شئون تركية مركز الأهرام للدراسات السياسية، والاستراتيجية القاهرة، العدد العاشر، ص 10.

(23) صحيفة الشرق الأوسط بتاريخ 2019/1/19، ص 6

الأكراد، بإقامة منطقة آمنة لهم تقع شمال خطة العرض 36 شمالاً ومنطقة آمنة أخرى في الجنوب تحت دعوى حماية الشيعة، حيث تم فرض منطقة محظورة على الطيران العراقي جنوب خط العرض 32 شمالاً. وبذلك اختزل العراق – عمليًا – إلى كيان ضيق يقع ما بين الخطين 32 ، و36 وأدت محصلته في النهاية إلى تقليص سلطة ونفوذ صدام حسين على الأراضي العراقية وفقدانه السيطرة وترغب أنقرة في استنساخ (منطقة آمنة) قريب من النموذج الذي طبق في العراق. وقد أثار اقتراح تركيا بشأن المنطقة الآمنة ردود فعل رافضة على مستويات متعددة. فرئيس مجلس سورية الديمقراطية إلهام أحمد صرحت "أن هذه المنطقة بحاجة إلى منطقة آمنة برعاية دولية وتحت إشراف قوات أممية، كما رفضت فرض هذه المنطقة إذا كانت تحت النفوذ التركي والفصائل الموالية لها. لأنها لن تكون آمنة على العكس ستتحول إلى مساحة تسودها الفوضى العارمة، كما هو الحال في المناطق الخاضعة لسيطرة "درع الفرات" ومدينة عفرين[24]. وحذر القائد العام لوحدات حماية الشعب الكردية سيبان حمو من أن تركيا إذا نجحت في ذلك فإن "شهيتها الاستعمارية" قد تنفتح باتجاه المزيد من أراضي الدول العربية.

وأضاف "تركيا تهدف إلى ضم وتتريك ما يقرب من 60 ميلاً من العمق السوري من محافظات حلب والرقة وإدلب وغيرها. وصولاً للحدود العراقية. هي بالأساس تعتبر هذه المناطق جزءًا من الأراضي التركية وحدودها القومية فيما يعرف بالميثاق الملي عام 1920. إنهم يرون أن الوقت الراهن قد يكون الفرصة الملائمة لتحقيق هذا الهدف[25].

كما تضمن البيان التأسيسي الأول لمؤتمر القبائل والعشائر السورية الذي عقد 2019/1/25 "...أن سورية وطن لجميع أبنائها، إنها ستبقى بحدودها الطبيعية، ولن تسمح بتغيير أو رسم خرائط إصلاح أو تبديل أو مشروعات "مناطق آمنة" وغيرها من

(24) المرجع السابق.
(25) صحيفة الأهرام، القاهرة، عدد 2019/1/19، ص6.

مسميات. كما ترفض وجود أي قوى أجنبية على الأراضي السورية سواء كانت تركية أو أمريكية والموالين لها"[26].

وانتقدت الحكومة السورية يوم 2019/1/25 ما أعلنته أنقرة من مبررات لتدخلها العسكري في سورية ومشيرة إلى اتفاق أضنة الموقع بين البلدين عام 1998. ومتهمة أنقرة بخرقه منذ اندلاع الأزمة السورية عام 2011. وبالمقابل تستند أنقرة إلى أن هذا الاتفاق يمنحها حق التدخل في الأراضي السورية ضد حزب العمال الكردستاني وحلفائه في حالة عدم تحرك الحكومة السورية ضدهم. وقالت مصادر الخارجية السورية إن سورية مازالت ملتزمة بهذا الاتفاق، الاتفاقات المتعلقة بمكافحة الإرهاب بأشكال كافية من قبل الدولتين.

وفي لقاء بين بوتين وأردوغان قدم الرئيس الروسي عرضًا بديلاً، وهو تفعيل "اتفاق أضنه"، وانتشار قوات الحكومة السورية على الحدود ضمن السيادة السورية بينما ترفض أنقرة تواجد هذه القوات، كما لو كان الحديث عن أرض تركية وليست سورية. وعرضت روسيا مشاركة قوات الشرطة العسكرية الروسية في الإشراف على هذه المنطقة، وقد ساهم الخلاف بين أنقرة وواشنطن حول مضمون (المنطقة الآمنة في زيادة الافتراق الاستراتيجي بينهما. وبعد اجتماع وزيري الدفاع التركي والأمريكي مؤخرًا في واشنطن (2016/2/23) كشف البيان الصادر عن مباحثاتهما عن النقاط التالية:

1. ستبقي واشنطن بضع مئات من جنودها في شمال شرق سوريا كجزء من قوة دولية لإقامة " منطقة آمنة" فيها.
2. الهدف من هذه القوة تحقيق الاستقرار في المنطقة الآمنة وستشكل بالدرجة الأولى من حلفاء الناتو.
3. ستسير قوات أمريكية دوريات منها للمراقبة.

(26) صحيفة الشرق الأوسط بتاريخ 2019/1/27.

لكن تركيا تريد الانفراد بالسيطرة على المنطقة الآمنة. وهناك خشية من أن الخلاف بين أنقرة وواشنطن حول تفاصيل ومواصفات "المنطقة الآمنة" أن يُدخل مسار القضية السورية في نفق مظلم وطويل نتيجة تباين وجهات نظر الأطراف المعنية بها، في وقت تشهد الساحة السياسية تخلخل في العلاقات التركية الأمريكية لأسباب متعددة، في مقدمتها اعتقاد أنقرة بوجود دور أمريكي في محاولة الانقلاب الفاشلة، فضلا عن اتجاهها لشراء أسلحة روسية وغير ذلك من نقاط الخلاف.

وفي تقدير البعض "أن مشروعية ذرائع تركيا للتدخل في شمال سورية، مشكوك فيها، لأنها تنطلق أساسًا من خلل تاريخي في التعامل مع الأكراد بصفتهم مواطنين من الدرجة الثانية، ممنوع عليهم التعبير عن قوميتهم أو الحديث بلغتهم، على الرغم من التصحيح الشكلي والجزئي عام 1991 عندما سمحت باستخدام اللغة الكردية في شكل محدود، لكن التوجس من الأكراد بقي قائمًا والطوق الأمني مفعلاً والحصار السياسي مشددًا"[27].

لقد كان التخوف التركي من تأسيس دولة كردية على امتداد حدودها ملمحًا جوهريًا للسياسة التركية ضد الأكراد العراقيين في التسعينات. والآن امتد ليشمل أكراد سوريا. وتخشى أنقرة من أن استقلال أكراد سوريا – أو الحديث عن مصطلح الفيدرالية في سورية – وقبلها الحكم الذاتي لأكراد العراق – سيعزز مطالب أكراد تركيا بالحكم الذاتي[28].

ملاحظات ختامية

1. يتوقف ممارسة دولة ما لدور إقليمي نشط وفاعل في محيطها الجغرافي على مدى توافر مقومات القيام بهذا الدور، وقدرتها على تحمل تكاليفه، ومدى قبوله

(27) صحيفة الحياة ، لندن، 2017/10/5.

(28) محمد جمعه، "الصراع الكردي – التركي: طموح أردوغان وأثر انتشار الصراع في سورية" ، مجلة رؤى مصرية، مركز الأهرام للدراسات الاجتماعية والتاريخية ، القاهرة، العدد 19– أغسطس 2016، ص 33.

من الأطراف الإقليمية المعنية. ونحن في الواقع أمام مشهد لفشل استخدام فائض القوة لتركيا، وإضاعتها لمكاسب "العمق الاستراتيجي" ونظرية "تصفير المشاكل"، ففي تقدير البعض "أصبح لأنقرة – على هذا النحو – عدو في دمشق، ومشكلات في العراق، وتنافس مع طرف عربي يسعى لتوفير الأمن والأمان للسنة في المنطقة (مصر والسعودية)، ومنافس آخر يسعى إلى تقديم نفسه كقوة إسلامية مؤثرة في الشرق الأوسط (إيران) ونصف حليف ونصف عدو في الوقت نفسه (إسرائيل) وإجمالاً مستوى علاقات متدنية مع قوة إقليمية عربية (مصر) وعلاقة متوترة ومتقلبة مع حليف دولي (أمريكا)[29].

2. وبعد اتباع تركيا لسياسة "تصفير المشاكل" والعمل على بقاء تركيا على مسافة واحدة مع كل الأطراف والسعي لحل مشاكلها مع الأطراف العربية بالتفاوض والوسائل السلمية، أصبحت مشتبكة بل ومنغمسة في مشاكل المنطقة بها وخلفها وباتت أسيرة لتطلعات وطموحات زعمائها، التي تسعى لعودة سياسة الهيمنة الإقليمية التركية، مستفيدة ومستغلة لحركات الإسلام السياسي. فتركيا أردوغان تستعمل الإسلام السياسي لتعزيز السيطرة التركية على المنطقة العربية وليس بالضرورة لنشر الإسلام أو تعزيز حظوظه، أو بمعنى آخر فإنها تعمل على تسييس الدين[30]. وطموح أردوغان الذي يظن نفسه باعث السلطنة العثمانية من مرقدها، يوظف تدخله في الشأن السوري لتعزيز شعبيته داخليا، بعد أن تراجعت ودون إدراك لصعوبة إعادة التاريخ ولو بصيغ مستجدة .

3. مكن الغياب العربي الإرادي واللاإرادي طوال المرحلة السابقة، والحالة الضبابية لثورات الربيع العربي، و المواقف والأجندات العربية المتضاربة تجاه سورية، بل

(29) أحمد كاتب، "القيد الأمريكي: احتمالات بروز قيادة إقليمية في الشرق الأوسط" ، ملحق تحولات استراتيجية والعائد الإقليمي: أدوار القوى المحورية في مرحلة السيطرة الدولية" ملحق مجلة السياسة الدولية عدد أكتوبر 2014، ص 198.

(30) لبيب قمحاوي، "إمبراطورية أردوغان قيد التشكيل"، صحيفة الشروق، القاهرة، 2016/7/30.

ومشاركة بعضها – للأسف الشديد– مع الأطراف الإقليمية في مخططاتها التدميرية فيها مما أدى إلى زيادة أطماع الأطراف الإقليمية. ولم يتوافر حتى الآن حد أدنى من القواسم المشتركة العربية لعمل عربي مشترك وفاعل في سورية يوقف تفتيت بلد عربي وتشريد شعبه، وهو ما سيدفع العالم العربي ثمنه غاليًا. وقد شجع الغياب العربي قوى إقليمية على محاولة ملء هذا الفراغ وفي مقدمها تركيا، وحفزها على التغول في المنطقة العربية بصفة عامة وسورية بصفة خاصة.

4. إن الصراع الكردي – التركي المتصل أساسًا بمعضلة الهوية التركية ومكوناتها، والذي أدى لجعل منطقة شرق تركيا منطقة حرب ذهب ضحيتها مئات القتلى والجرحى من الأكراد بذريعة محاربة الإرهاب، وهي مشكلة تركية داخلية بالأساس، وقضية لم تبدأ بسوريا، ولا تنتهي عند سورية، ولا هي بين الأكراد والعرب وحدهم، ومحاولة أردوغان تصدير المشاكل الكردية إلى خارج الحدود التركية لن يجدي، وسوف تظل أبرز مشاكل تركيا، مالم تجد حلولاً محلية تلبي مصالح مختلف الأطراف، ومن خلال الإقرار بالحقوق المشروعة للأقليات. والتماس الحل الجذري للمسألة الكردية التركية، لن يتم بمزيد من تجاوز هذه الحقوق واستخدام الوسائل القمعية، وإنما بمزيد من الانفتاح واحترام حقوق الإنسان، وبالعودة للرؤى المتفتحة بالابتعاد عن العامل الأمني لحل هذه المشكلة.

ظاهرة ازدراء الأديان والرسل
ودور جامعة الدول العربية في التصدي لها

وزير مفوض/ ســـامية بيـــبرس

مدير إدارة حوار الحضارات بالأمانة العامة

نبذة تاريخية

يقصد بازدراء الأديان عدم احترام الأديان ومهاجمتها والإساءة إليها والتحقير من شأنها ومن شأن الرموز الدينية ذات الصلة سواءً بالقول أو بالفعل أو بنشر ما يقلل من شأن هذه الأديان أو تلك الرموز الدينية. وتجدر الإشارة إلى أن هذه الظاهرة لم تقتصر على دين بذاته بل شملت الديانتين المسيحية والإسلام على حد سواء[1].

وترتبط ظاهرة الإساءة إلى الأديان إلى حد كبير بنشوء النظام الدولي بعد نهاية الحروب الدينية المتوجة بعقد معاهدة ويست فاليا عام 1648 وبنشوء الدولة الأمة في أوروبا منذ ذلك التاريخ. فإذا كانت تلك المعاهدة قد وضعت حدا للحروب الدينية وأرست أسس النظام الدولي المبني على ضرورة احترام الاختلاف الديني، فإن بعض مظاهر عدم التسامح الديني ظلت قائمة هناك بسبب عدم احترام ديانات الأقليات داخل الدول والتي تدين بدين غير دين أغلبية السكان فيها. الأمر الذي نتج عنه تدخل الدول الكاثوليكية في الدول البروتستانتية لحماية الأقليات الكاثوليكية فيها أو العكس تدخل الدول البروتستانتية في الدول الكاثوليكية لحماية الأقلية البروتستانتية فيها[2].

(1) د.عادل عامر، مفهوم جريمة ازدراء الأديان، الصدى نت،2016/5/30 www.elsada.net

(2) المضامين الإعلامية الغربية حول الإسلام في ضوء القانون الدولي، الاجتماع الرابع عشر للمجلس الاستشاري المكلف بتنفيذ الاستراتيجية الثقافية في العالم الإسلامي، باكو – أذربيجان، 18 –19 مايو 2015

وقد تعرضت الديانة المسيحية للنقد والهجوم وقد طالت هذه الانتقادات الكنيسة وتعاليم ونصوص الكتاب المقدس وحتي تعاليم السيد المسيح (عليه السلام) ذاته، ويرجع الإساءة إلى الديانة المسيحية إلى عام 1559 والتي امتدت حتى عام 1966 حيث تم نشر العديد من الكتب المسيئة إلى المسيحية وإلى شخص السيد المسيح (عليه السلام)، الأمر الذي دفع الكنيسة الكاثوليكية في روما إلى إصدار قائمة تتضمن الكتب المحظورة والمسيئة إلى المسيحية (Index of Prohibited Books)، وذلك بهدف حماية القيم والتعاليم المسيحية الكاثوليكية[3]. وخلال الفترة الأخيرة تم أيضا إنتاج العديد من الأفلام السينمائية المسيئة لشخص السيد المسيح (عليه السلام) مثل فيلم "الإغواء الأخير للمسيح" خلال عام 1988 وفيلم "كود دافنشي" في عام 2006[4].

وجدير بالذكر أن ظاهرة الإساءة والتحامل على الإسلام والمسلمين والتي اخترقت وسائل الإعلام الغربية ليست وليدة اليوم ، بل إنها متجذرة في علاقة الإسلام والمسلمين بالغرب. فمنذ القرون الوسطى والتحامل على الإسلام والمسلمين قائم ، إلا أن هذا التحامل تزايد بعد تدهور الحضارة العربية الإسلامية وتنامي الحضارة الغربية ، وبالخصوص منذ عصر النهضة في أوروبا ، حيث كانت هذه الفترة بارزة في تعميق هذه الإساءة ووضع أسسها[5].ومن جانبهم سعى المستشرقون أيضا إلى رسم صورة سلبية للإسلام والمسلمين والتي ما زالت راسخة في الذهن الشعبي الغربي حتى اللحظة الراهنة، حيث تم تصوير الإسلام على أنه المنافس للمسيحية وادعوا تميز الحضارة الغربية على نظيرتها الإسلامية. ومازالت هذه الصورة السلبية والمشوهة عن الإسلام والحضارة العربية الإسلامية سائدة حتى اليوم في الكتب المدرسية الغربية والمناهج التعليمية التي تدرس في

---

(3) Heidi Schlumpf, Does the Church still ban books ? ,U.S.Catholic ,www.uscatholic.org

(4) Movies that mock ,twist and slander Scripture,God&Christianty 2013/2016 www.imdb.com/list/ls036840095

(5) المضامين الإعلامية الغربية حول الإسلام في ضوء القانون الدولي، مرجع سابق.

المدارس والجامعات في أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية. هذا بالإضافة إلى الدور الذي لعبه وما زال يلعبه الإعلام الغربي في ترسيخ الصورة النمطية والسلبية عن الإسلام(6).

أبرز مؤشرات تنامي ظاهرة ازدراء الأديان والرسل في الآونة الأخيرة

فيما يتعلق بازدراء المسيحية

- خلال عامي 2012 و2013 تم عرض بعض الإعلانات المسيئة لأعياد الميلاد المجيدة والمعتقدات المسيحية في وسط ميدان تايمز بمدينة نيو يورك بالولايات المتحدة الأمريكية. وقد أعلنت منظمة "الأمريكيين الملحدين" (American Atheists) مسئوليتها عن نشر هذه الإعلانات وشن حملات تسيء إلى المسيح (عليه السلام) والديانة المسيحية على وجه العموم(7).

فيما يتعلق بازدراء الإسلام

- وفي أعقاب أحداث الحادي عشر من سبتمبر عام 2001 التي وقعت في نيويورك وواشنطن، تصاعد الهجوم على الإسلام والمسلمين على نحو مقلق حيث ربط الغرب الإسلام بالإرهاب والعنف والعدوان وعدم الاعتراف بالآخر، كما تصاعدت أيضا مواقف الازدراء والتحامل على الحضارة العربية الإسلامية على نحو مقلق حيث شملت أيضا الأمريكيين من ذوي الأصول العربية والإسلامية حتى ولو كانوا كاملي المواطنة(8).

---

(6) ورقة عمل مقدمة من الأمانة العامة لجامعة الدول العربية إلى مؤتمر حوار الحضارات 23،24 أكتوبر 2002 كلية الاقتصاد والعلوم السياسية جامعة القاهرة.

(7) Billy Hallowell , Atheists Post Anti-Christmas Billboard in Times Square,Featuring Jesus Being Crucified:Dump the Myth , the blaze www.theblaze.com

(8) ورقة عمل مقدمة من الأمانة العامة لجامعة الدول العربية إلى مؤتمر حوار الحضارات، مرجع سابق.

- وفي ظل صعود دور اليمين المتطرف في أوروبا والذي يتسم بالعداء للأجانب ورفض الأقليات والتعددية الثقافية والدعوة إلى الحد من الهجرة، تنامت معدلات التعصب وعدم التسامح الديني والتحريض العنصري ضد الإسلام والمسلمين[9]. ولعل من أبرز أحزاب اليمين المتطرف الذي لعب دورًا بارزا في إيقاد نار الفتنة ضد الإسلام والمسلمين "الحزب الشعبي الدنماركي". وفي هذا الإطار كانت الصحيفة الدنماركية "يولاندس بوستن" قد قامت في سبتمبر2005 بنشر بعض الصور والرسوم الكاريكاتورية المسيئة للرسول محمد (ﷺ).

- وفي يناير عام 2006 قامت الصحيفة النرويجية "ماجازينيت" وكذلك بعض الصحف الفرنسية والألمانية والإيطالية والإسبانية بإعادة نشر تلك الصور المسيئة للإسلام[10].

- وخلال عام 2008 نشرت 17 صحيفة دنماركية من بينها الصحف الثلاث الكبرى باسم حرية الرأي والتعبير رسوما كاريكاتورية مسيئة للنبي محمد(ﷺ)، ومن ضمن هذه الصحف صحيفة "برلينفسكي تيدندي" المحافظة الواسعة الانتشار والتي كانت أول من نشر هذه الرسوم المثيرة للجدل والتي تظهر فيها الرسول يضع عمامة على شكل قنبلة مشتعلة الفتيل[11].

- وفي عام 2011 أقدم أحد القساوسة الأمريكيين ويدعي "تيري جونز" على حرق نسخة من القرآن الكريم داخل إحدى الكنائس بولاية فلوريدا الأمريكية . وقد توالى إنتاج الأفلام السينمائية المسيئة إلى الإسلام وإلى شخص الرسول الكريم، نذكر منها على سبيل المثال: فيلم "الخضوع" للمخرج الهولندي "تيوفان جوخ" وفيلم "فتنة" وفيلم "براءة المسلمين"[12].

---

(9) محمد حجاب، صعود اليمين المتطرف يهدد المهاجرين في أوروبا ، جريدة الأهرام بتاريخ 2018/6/11.

(10) www.telegraph.co.uk The Telegraph, 4/5/2015

(11) جريدة الرأي بتاريخ 2008/2/14 www.alraimelia.com

(12) Lizette Alvarez ,The New York Times ,April 2,2011, www.nytimes.com

- وفي إطار الإجراءات المتواصلة من جانب إسرائيل لاستباحة قدسية المسجد الأقصى بما في ذلك منع المصلين المسلمين من الوصول إليه ومحاولاتها المستمرة والممنهجة لطمس الهوية الإسلامية والمسيحية للقدس ، اعتدى ضابط إسرائيلي خلال شهر مارس عام 2013 على عدد من السيدات اللاتي كن يحفظن القرآن في باحات المسجد الأقصى بالقدس ، كما قام الضابط بركل القرآن الكريم بقدمه وأسقطه على الأرض. ناهيك عما يتم رصده بشكل دائم ومستمر من انتهاكات هائلة ومتعددة لسلطات الاحتلال الإسرائيلي بحق المقدسات الإسلامية والمسيحية ومنها شعارات ضد الرسول محمد عليه الصلاة والسلام والسيد المسيح عليه السلام[13].

- وفي سابقة تعد الأولى من نوعها اتخذت السلطات في أنجولا في نوفمبر عام 2013 قرارا بحظر الإسلام في البلاد وأقدمت على هدم المساجد ومنع المسلمين من ممارسة الشعائر الدينية، لكي تصبح أول دولة في العالم تتخذ مثل هذا الموقف المتشدد ضد المسلمين .وفي هذا الإطار وصف رئيس الدولة "خوسيه دوس سانتوس" حملة بلاده على الإسلام بأنها "نهاية التأثير والنفوذ الإسلامي في بلدنا"[14].

- وخلال عام 2015 قامت الصحيفة الفرنسية "شارلي إيبدو" بنشر الرسوم الكاريكاتورية المسيئة للرسول محمد (ﷺ)، حيث اتخذت الصحيفة من مهاجمة الإسلام بصفة خاصة الإساءة إلى الرسول (ﷺ) نهجا ثابتًا في إصدارتها، الأمر الذي دل دلالة واضحة على التحدي المتعمد لمشاعر المسلمين و الاستهتار بها[15].

- ولعل آخر تلك المؤشرات ما أعلنه البرلماني الهولندي اليميني المتطرف "خيرت ويلدرز" خلال عام 2018 والمعروف بمواقفه المعادية للإسلام بشأن تنظيم مسابقة

(13) جريدة اليوم السابع بتاريخ 2013/3/3 www.youm7.com
(14) جريدة الدستور بتاريخ 2013/11/29 www.dostor.org
(15) The Washington Post ,17/7/2015 www.washingtonpost.com

الرسوم الكاريكاتيرية المسيئة للنبي محمد(عليه الصلاة والسلام) والتي كان يعتزم تنظيمها في مبنى البرلمان الهولندي. وفي ضوء ما أثاره تنظيم المسابقة هذه من ردود أفعال سلبية في العديد من دول العالم الإسلامي، الأمر الذي اضطر معه البرلماني الهولندي إلى إلغاء المسابقة[16].

التداعيات السلبية المترتبة على ظاهرة ازدراء الأديان والرسل

أسفرت هذه الظاهرة السلبية عن العديد من التداعيات والنتائج السلبية على مختلف الأصعدة الأمنية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية.

على الصعيد الأمني:

أدت هذه الظاهرة إلى اندلاع العديد من الاحتجاجات والمظاهرات في مختلف البلدان الإسلامية والأوروبية، حيث تمت مهاجمة بعض السفارات الأوروبية وبصفة خاصة الدنماركية في العديد من الدول الإسلامية والأوروبية على حد سواء، هذا إلى جانب المحاولات التي جرت لاقتحام مسلحين لمقر الاتحاد الأوروبي في غزة وذلك كرد فعل مباشر لنشر الصور المسيئة للرسول محمد (ﷺ). كما نتج عن هذه الأحداث وقوع ضحايا وخسائر مادية وأعمال تخريب وتدمير، فعلى سبيل المثال تعرض مقر صحيفة "شارلي إيبدو" الفرنسية لهجوم أسفر عن مقتل 12 شخصا[17].

ناهيك عن أعمال العنف التي اندلعت مثل اغتيال المخرج الهولندي "تيوفان جوخ" على يد أحد المتطرفين كرد فعل على إنتاج فيلمه السينمائي بعنوان "الخضوع".

على الصعيدين السياسي والاقتصادي:

(16) جريدة اليوم السابع بتاريخ 2018/8/29 www.youm7.com

(17) The Washington Post ,17/7/2015 www.washingtonpost.com

- أسفرت هذه الظاهرة عن العديد من الأزمات السياسية والدبلوماسية بين الحكومات الأوروبية ونظيراتها في بعض الدول العربية والإسلامية. فمن جانبها استدعت المملكة العربية السعودية سفيرها من كوبنهاجن، في الوقت التي أغلقت فيه ليبيا سفارتها هناك احتجاجا على ما نشرته الصحافة الدنماركية من رسوم كاريكاتورية مسيئة للرسول محمد (ﷺ). ومن جانبها وجهت وزارة الخارجية الدنماركية تحذيرا إلى رعاياها من السفر إلى السعودية ، كما دعت رعاياها إلى توخي الحذر في دول أخرى مثل مصر وإيران ولبنان والجزائر وباكستان والأراضي الفلسطينية[18].

- قامت أيضا العديد من البلدان العربية والإسلامية بإطلاق حملة لمقاطعة المنتجات والبضائع الدنماركية ، الأمر الذي دفع العديد من الشركات الدنماركية إلى الالتفاف على قرار المقاطعة من خلال وضع عبارة "صنع في الاتحاد الأوروبي" على منتجاتها[19].

- وقد بلغ الأمر ذروته باتخاذ الولايات المتحدة الأمريكية مؤخرا قرارًا بمنع الهجرة إليها من سبع دول عربية وإسلامية وهي (إيران، ليبيا، سوريا، اليمن، الصومال، السودان، تشاد)، وذلك تحت ذريعة محاربة ما يسمى "بالإرهاب الإسلامي" وما يمثله من تهديدات للأمن القومي الأمريكي[20].

على الصعيدين الاجتماعي والثقافي

- كما أسفرت هذه الظاهرة عن نتائج سلبية ذات صلة بالنسيج الاجتماعي للمجتمعات الأوروبية وبصفة خاصة بالنسبة للأقليات المسلمة المقيمة هناك، حيث أدت إلى وقوع مواجهات مباشرة بين المواطنين الأوروبيين والأقليات المسلمة وتعرض هذه الأقليات لأعمال عنف.

---

(18) جريدة الاتحاد بتاريخ 2006/1/31 ، www.alitthad.ae

(19) مجلة "لها" أون لاين ، www.lahaonline.com

(20) Michael D.Shear, The New York Times 24/9/2014 www.nytimes.com

- هذا بالإضافة إلى ما أفضت إليه هذه الظاهرة من حيث ترسيخ الصورة النمطية السلبية عن الإسلام ووصفه بأنه دين تطرف وتعصب وإرهاب، وصم الثقافة العربية الإسلامية بالأصولية ورفض الحداثة والتجديد، بما في ذلك مواصلة التقليل من شأن الحضارة العربية الإسلامية وإنكار دورها وإسهاماتها العلمية والمعرفية في إثراء الحضارة الإنسانية.

المواقف المتباينة إزاء ظاهرة ازدراء الأديان والرسل:

موقف الدول الإسلامية:

تبنت دولة باكستان توجه الدول الإسلامية داخل مجلس حقوق الإنسان التابع لمنظمة الأمم المتحدة، حيث أوضحت إصرار البلدان الغربية على النظر بشكل سلبي إلى كل من الإسلام والمسلمين . كما أعربت باكستان عن استنكارها للمحاولات التي تجري للربط بين الإساءة للأديان من ناحية وقضية حرية الرأي والتعبير من ناحية أخرى، وطالبت في هذا الشأن باتخاذ إجراءات دولية حاسمة بهدف محاربة التمييز ضد الأديان، بما في ذلك العمل على وضع آليات قانونية ملزمة للتصدي للإساءة إلى الأديان والرسل ومكافحة مظاهر عدم التسامح الديني التي تؤدي إلى انتهاك حقوق الإنسان.

موقف الدول الغربية الأعضاء في الاتحاد الأوروبي:

دعت الدول الغربية الأوروبية إلى أهمية معالجة هذا الموضوع من منطلق "مكافحة التحريض على الكراهية الدينية" بدلا من معالجته من جانب "الإساءة إلى الأديان"، على اعتبار أن التحريض على الكراهية الدينية هو وحده الذي يلزم اتخاذ تدابير محددة لمنع ممارسته. وأشارت في هذا الصدد إلى أن التعددية الدينية تستوجب احترام حق كل فرد في إبداء رأيه بشأن الأديان، بمعنى طرح مسألة الأديان للنقاش والانتقاد. وأضافت أن القوانين المعمول بها في تلك الدول كافية لمناهضة التحريض على الكراهية الدينية، وأنه

في حالة التداخل بين حرية الرأي والتعبير والإساءة إلى الأديان يمكن رفع المسألة برمتها إلى القضاء، باعتباره السلطة المخولة بوضع القيود على الحريات .

ويمكن القول بصفة عامة أن الاتجاهين الإسلامي والغربي الأوروبي متفقان على ضرورة التصدي للتحريض على الكراهية الدينية. وبينما يصر الاتجاه الأول (الإسلامي) على ضرورة حماية الأديان، ولو أدى ذلك إلى الحد من حرية الرأي والتعبير نجد أن الاتجاه الثاني (الغربي الأوروبي) يتمسك بحرية الرأي والتعبير حتى ولو أدى ذلك إلى الإساءة إلى الأديان.

ازدواجية المعايير فيما يتعلق بالإساءة إلى الديانة اليهودية

جدير بالذكر بأنه في الوقت الذي تبرر فيه الدول الغربية الأوروبية إمكانية توجيه الانتقادات إلى الأديان وخاصة الديانتين المسيحية والإسلامية وذلك من منطلق حرية الرأي والتعبير. نجد أنه في حالة التعرض لليهود وللديانة اليهودية بما في ذلك في التشكيك في قضية "الهولوكست" – أي المحرقة التي طالت اليهود خلال الحرب العالمية الثانية من جانب ألمانيا النازية – فإن ذلك يعتبر من قبل الغرب ما يسمى "بمعاداة السامية". إذ يعرض مرتكب هذا الفعل للمساءلة القانونية التي تتراوح ما بين عقوبة السجن أو الغرامات المالية أو حتى سحب الدرجات العلمية، الأمر الذي يعكس ازدواجية المعايير الغربية والكيل بمكيالين حينما يتعلق الأمر بالديانة اليهودية[21].

الجهود المبذولة للتصدي لظاهرة ازدراء الأديان والرسل

الجهود الإقليمية:

جهود جامعة الدول العربية :

(21) المضامين الإعلامية الغربية حول الإسلام في ضوء القانون الدولي، مرجع سبق ذكره.

- اكدت جميع البيانات والإعلانات الختامية الصادرة عن مجلس الجامعة على مستوى القمة على رفضها لجميع التوجهات العنصرية الإقصائية وحملات الكراهية والتشويه ومحاولات التشكيك في قيمنا الإنسانية أو المساس بالمعتقدات والمقدسات الدينية. ففي إعلان عمان الصادر عن القمة العربية الثامنة والعشرين المنعقدة بمنطقة البحر الميت بالمملكة الأردنية الهاشمية بتاريخ 29 مارس 2017 أعرب قادة الدول العربية عن بالغ قلقهم إزاء تنامي ظاهرة الإسلاموفوبيا ومحاولات الربط بين الدين الإسلامي الحنيف والإرهاب محذرين من أن مثل هذه المحاولات لا تخدم إلا الجماعات الإرهابية التي لا تمت إلى الدين الإسلامي بأية صلة[22].

- ومن جانبه ناقش مجلس جامعة الدول العربية على المستوى الوزاري في اجتماعه غير العادي بالقاهرة المنعقد بتاريخ 29 سبتمبر 2005 ما قامت به صحيفة "يولاندس بوستن" الدنماركية من نشر صور مسيئة للنبي محمد (ﷺ). وعبر المجلس من خلال البيان الصادر في هذا الشأن عن رفضه وإدانته لهذه الإساءة التي تتنافى مع احترام وقدسية الأديان والرسل ومع حقيقة الإسلام وقيمه السامية. كما أعرب المجلس عن استيائه لرد فعل الحكومة الدنماركية الذي لم يكن على المستوى المطلوب وعدم اتخاذ بعض المنظمات الأوروبية العاملة في مجال حقوق الإنسان موقفا واضحا وصريحا من هذه الإساءة. وقد طالب المجلس الأمين العام لجامعة الدول العربية بالتنسيق مع نظيره في منظمة التعاون الإسلامي لاتخاذ اللازم بشأن الاتصال بالحكومة الدنماركية لمتابعة الموضوع[23].

- وفي ضوء تنامي الأعمال المسيئة لديننا الإسلامي الحنيف أصدرت الأمانة العامة لجامعة الدول العربية بتاريخ 21 سبتمبر 2012 بالتنسيق مع كل من منظمة

(22) إعلان عمان الصادر عن القمة العربية (28) بتاريخ 28 مارس 2017 ،وثائق لدى الأمانة العامة لجامعة الدول العربية.

(23) البيان الصادر عن مجلس جامعة الدول العربية على المستوى الوزاري بشأن "قيام صحيفة دنماركية بنشر صور تسيء لنبي الإسلام محمد" في اجتماعه غير العادي بالقاهرة بتاريخ 2005/12/29.

التعاون الإسلامي والاتحاد الأفريقي والاتحاد الأوروبي بيانًا مشتركًا أدان جميع الأعمال المسيئة للإسلام وكافة أشكال ازدراء الأديان والرسل والحض على الكراهية الدينية، مشددًا على ضرورة احترام كافة الأديان وجميع الأنبياء والرسل. وأكد البيان المشترك التزام المنظمات الإقليمية الأربع باتخاذ التدابير اللازمة والعمل على بلورة إجماع دولي يضمن الاحترام الكامل للأديان والرسل استنادًا إلى قرارات مجلس حقوق الإنسان الدولي الخاصة باحترام المعتقدات ومنع الإساءة إلى الأديان. كما أدان البيان المشترك أيضا أعمال العنف التي وقعت ضد بعض السفارات وطالب بالهدوء والتعقل[24].

- وبتاريخ 3 مارس 2013 أعربت الأمانة العامة لجامعة الدول العربية عن استنكارها لقيام ضابط إسرائيلي بركل القرآن في باحة المسجد الأقصى، معتبرة أن ما حدث ليس موجها لأهل القدس أو الشعب الفلسطيني فحسب بل رسالة إلى الأمتين العربية والإسلامية، ومطالبة باتخاذ موقف حازم إزاء هذا الاعتداء والذي يمثل حلقة من سلسلة انتهاكات عديدة ضد القدس ومقدساتها وأهلها[25]. كما أصدر مجلس الجامعة بتاريخ 12 مايو 2013 خلال دورته غير العادية على مستوى المندوبين الدائمين قرارا تحت عنوان " الانتهاكات الإسرائيلية الخطيرة لمدينة القدس المحتلة ومقدساتها الإسلامية والمسيحية" أدان فيه إسرائيل لمحاصرتها كنيسة القيامة ومنعها للمصلين المسيحيين من ممارسة الشعائر الدينية، الأمر الذي يعكس عنصرية واضطهاد سلطات الاحتلال وازدرائها للأديان السماوية ومحاولاتها المستمرة والممنهجة لطمس الهوية الإسلامية والمسيحية للقدس عاصمة دولة فلسطين[26].

(24) البيان المشترك الصادر عن الأمانة العامة لجامعة الدول العربية بالتنسيق مع كل من منظمة التعاون الإسلامي والاتحاد الإفريقي والاتحاد الأوروبي بتاريخ 2012/9/21 ،وثائق لدى الأمانة العامة لجامعة الدول العربية.

(25) جريدة اليوم السابع بتاريخ 2013/3/3 www.youm7.com

(26) القرار رقم (7647) الصادر عن مجلس الجامعة في دورته غير العادية بتاريخ 2013/5/12 ،وثائق لدى الأمانة العامة لدى جامعة الدول العربية

- وفي إطار تعزيز التعاون مع المنظمات الإقليمية في مجال التصدي لظاهرة ازدراء الأديان قامت الأمانة العامة بتاريخ 20 أكتوبر 2013 بتنظيم الاجتماع التنسيقي للمنظمات والمؤسسات المعنية بمكافحة ازدراء الأديان والتصدي لظاهرة الإسلاموفوبيا بمشاركة مسئولين وممثلين عن كل من: منظمة التعاون الإسلامي، المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة(ايسيسكو)، بالإضافة إلى مشاركة مسئولين من الأزهر الشريف ودار الإفتاء المصرية. وقد تطرق الاجتماع التنسيقي إلى ظاهرة ازدراء الأديان بشكل عام والدين الإسلامي الحنيف بشكل خاص، وتطاول بعض وسائل الإعلام الغربية على الرموز والمقدسات الإسلامية بما في ذلك الرسل والأنبياء. وقد تمخض الاجتماع عن تبني عدد من التوصيات لعل أهمها تشكيل هيئة من النخب الفكرية المعتدلة لتقديم الصورة الصحيحة عن الإسلام، ودراسة إمكانية إنشاء قناة فضائية تخاطب الغرب، والعمل على إنتاج أفلام وثائقية للتعريف بالحضارة العربية الإسلامية وإسهاماتها المعرفية والفكرية[27].

- وقد بذلت جامعة الدول العربية مساع حثيثة لوضع إطار تشريعي لتجريم ازدراء الأديان، حيث أصدر مجلس وزراء العدل العرب بتاريخ 26 نوفمبر2013 خلال دورة انعقاده رقم (29) القرار رقم (967) اعتمد المجلس بموجبه مشروع القانون العربي الاسترشادي لمنع ازدراء الأديان والذي قامت وزارة العدل في دولة قطر بصياغة مسودة هذا المشروع. وقد تم تعميم هذا القانون على وزارات العدل في الدول العربية. ويهدف هذا القانون إلى منع ازدراء الأديان وحمايتها من أي اعتداء يقع عليها تحت أي مبرر، وأن تكفل الدولة احترام الأديان والرسل والكتب السماوية ودور العبادة والذي يعد أحد الدعائم الأساسية لكفالة وترسيخ مبادئ حقوق الإنسان والحريات والمواطنة. ويتضمن مشروع القانون العربي الاسترشادي 25 مادة، وينص – ضمن الفصل الثاني منه والخاص بالأحكام الجزائية– على توقيع عقوبات على

(27) لمزيد من التفاصيل راجع محضر الاجتماع التنسيقي للمنظمات والمؤسسات المعنية بمكافحة ازدراء الأديان والتصدي لظاهرة الإسلاموفوبيا، القاهرة 20 أكتوبر 2013 ، وثائق لدى الأمانة العامة لجامعة الدول العربية.

كل من يرتكب فعلاً من شأنه ازدراء الأديان، إلا أنه لم يحدد نوع العقوبة الموقعة تاركا هذا الأمر لكل دولة وفقا لتقديرها ورؤيتها القانونية. وتجدر الإشارة إلى أن المادة (4) من مشروع القانون الاسترشادي تنص على أنه "لا يجوز الاحتجاج بحرية الرأي والتعبير للقيام بأي فعل من شأنه ازدراء الأديان أو المساس بها بما يخالف هذا القانون"[28].

- ومن منطلق توحيد الجهود والرؤى العربية قامت الأمانة العامة بالتنسيق مع الدول الأعضاء بصياغة ما يسمي بـ"الخطة الاستراتيجية العربية الموحدة لتحالف الحضارات". وتتمثل أبرز أهداف الخطة العربية في بناء جسور التواصل مع اتباع الحضارات الأخرى بما يسهم في منع أو درء النزاعات، وتعزيز التفاهم بين الشعوب العربية والشعوب الأخرى، والتصدي للظواهر السلبية مثل التطرف والعنف والإرهاب وازدراء الأديان والرسل. وقد تم إقرار الخطة الاستراتيجية العربية الموحدة من قبل مجلس جامعة الدول العربية على المستوى الوزاري خلال دورة انعقاده العادية رقم (145) بتاريخ 11 مارس 2016 بموجب القرار رقم 8029 الصادر في هذا الشأن. وقد حرصت الأمانة العامة على التعريف بهذه الخطة في العديد من المحافل الدولية والعمل على بناء شراكات استراتيجية مع العديد من المنظمات الدولية بهدف تنفيذ البرامج والأنشطة المدرجة ضمن الخطة[29].

- ومن ناحيته أقر البرلمان العربي في جلسته العادية السادسة التي عقدت بالقاهرة في 5 يوليو 2017 رؤية بشأن رفض ربط العنف والإرهاب بالدين الإسلامي واستنكار الإجراءات التمييزية ضد المسلمين. وقد قدمت الرؤية المطروحة مقاربة لمعالجة هذه القضية، بما في ذلك آليات التصدي لها ومن بينها تشكيل لجنة من أعضاء البرلمان

(28) القرار رقم (967) الصادر عن مجلس وزراء العدل العرب خلال الدورة (29) بتاريخ 2013/11/26 بشأن "وضع قانون استرشادي لمنع ازدراء الأديان"، وثائق لدى الأمانة العامة لجامعة الدول العربية.

(29) القرار رقم (8029) الصادر عن مجلس الجامعة على المستوى الوزاري خلال دورة انعقاده رقم (145) بتاريخ 2016/3/11، وثائق لدى الأمانة العامة لجامعة الدول العربية.

العربي لتعزيز التعاون والتشاور بين البرلمان العربي والمجالس البرلمانية في الدول العربية، والبرلمان الدولي، والأجهزة التنفيذية للأمم المتحدة، والمنظمات المعنية بهذا الشأن على الصعيد الدولي، من أجل التصدي لظاهرة ربط الإرهاب بالإسلام ووقف القرارات والممارسات التمييزية ضد الإسلام والمسلمين[30].

- وتبذل جامعة الدول العربية مساع حثيثة من أجل تعزيز التعاون مع العديد من المنظمات الدولية والإقليمية ذات الصلة مثل منظمة الأمم المتحدة لتحالف الحضارات ومنظمة اليونسكو ومنظمة التعاون الإسلامي ومؤسسة الأزهر الشريف، وذلك بهدف العمل على بلورة إجماع دولي يضمن الاحترام الكامل لكافة الأديان والرسل. وفي هذا الإطار تحرص الأمانة العامة للجامعة بشكل دوري كل عام على المشاركة في الاحتفالات العالمية ذات الصلة مثل أسبوع الوئام العالمي بين الأديان والذي يتم الاحتفال به خلال الأسبوع الأول من فبراير، واليوم العالمي للتنوع الثقافي ومحاربة التمييز العنصري والذي يوافق 29 يوليو، وأيضا اليوم العالمي للتسامح والذي يوافق 16 نوفمبر، وذلك من خلال إصدار بيانات صحفية يتم خلالها التأكيد على أهمية تعزيز التسامح الديني وإدانتها لكافة مظاهر الكراهية والتمييز والتعصب والعنف القائمة على الدين. كما تدين تلك البيانات الصحفية أيضا كافة أشكال التطرف الديني في مناطق شتى من العالم بما في ذلك الهجمات على الأماكن والأضرحة الدينية، مؤكدة على ضرورة احترام كافة الأديان وجميع الأنبياء والرسل ومعربة عن رفضها لأية محاولات للربط بين الإسلام والإرهاب[31].

جهود منظمة التعاون الإسلامي:

(30) لمزيد من التفاصيل راجع وثيقة "رؤية البرلمان العربي بشأن رفض ربط العنف والإرهاب بالدين الإسلامي واستنكار الإجراءات التمييزية ضد المسلمين" في الجلسة العادية السادسة بتاريخ 2017/7/5.

(31) لمزيد من التفاصيل راجع البيانات الصحفية الصادرة عن الأمانة العامة بمناسبة الاحتفالات العالمية www.lasportal.org

- حرصت منظمة التعاون الإسلامي على التأكيد على ضرورة احترام عقائد المسلمين وعدم الانتقاص منها حيث ورد في ميثاقها أن من بين أهداف المنظمة "حماية صورة الإسلام الحقيقية والدفاع عنها والتصدي للمحاولات الجارية لتشويهها".

- ومن جانبها سعت المنظمة إلى تبني مسألة "تجريم ازدراء الأديان" لتصبح قاعدة دولية، وتمثلت أول مبادرة من جانبها في هذا الشأن في مشروع قرار بعنوان "تشويه سمعة الإسلام" قدم إلى لجنة حقوق الإنسان في 20 إبريل عام 1999 عبرت فيه الدول الإسلامية عن استيائها "من تقديم نماذج مبتذلة وسلبية للإسلام والميل إلى ربط انتهاكات حقوق الإنسان والإرهاب بالإسلام"، إلا أن هذا المشروع قد جوبه بمعارضة شديدة من قبل ممثل الاتحاد الأوروبي في لجنة حقوق الإنسان.

- وقد واصلت المنظمة جهودها الحثيثة لإضفاء بُعد دولي على قضية مكافحة ازدراء الأديان واستطاعت في عام 2008 بعد عرض الموضوع على مجلس حقوق الإنسان التابع لمنظمة الأمم المتحدة استصدار قرار بعنوان "مناهضة ازدراء الأديان". وبموجب هذا القرار اعترف المجلس بأهمية موضوع ازدراء الأديان وأكد على أهمية التسامح الديني واحترام التنوع، كما أعرب المجلس عن قلقه إزاء تفشي حالات التعصب الديني والتمييز والعنف القائمين على الدين.

- ولاشك أن قيام منظمة التعاون الإسلامي برسم سياسة واضحة فيما يتعلق بصياغة نصوص تجرم ازدراء الأديان وتلقى تطبيقًا عادلاً، وإلزام الدول الأعضاء في المنظمة بتقديم تقارير سنوية حول مدى تطبيقها لتلك النصوص قد ساهم بصورة أو بأخرى في إبراز أهمية تجريم ازدراء الأديان[32].

الجهود الدولية

(32) د. سامر محي عبد الحمزة، ازدراء الأديان بين المنع و الإباحة، دراسة في ضوء أحكام القانون الدولي العام، 2017 ،كلية القانون جامعة واسط، www.iasj.net

منظمة الأمم المتحدة

- أصدر مجلس حقوق الإنسان الدولي التابع لمنظمة الأمم المتحدة القرار رقم 7/19 بعنوان "مكافحة ازدراء الأديان" وذلك خلال الدورة رقم (40) المنعقدة بتاريخ 2008/3/27. وأعرب المجلس في قراره عن عميق القلق إزاء الصور النمطية السلبية للأديان ومظاهر التعصب والتمييز المبني على الدين أو المعتقد. كما أعرب المجلس أيضًا عن عميق قلقه إزاء المحاولات التي تجري للربط بين الإسلام والإرهاب والعنف وانتهاكات حقوق الإنسان. وحث القرار الدول الأعضاء على اتخاذ الإجراءات اللازمة لحظر انتشار الأفكار العنصرية والتي تمثل تحريضًا على الكراهية الدينية والعنصرية والعداوة والعنف.

- كما أصدر مجلس حقوق الانسان أيضًا بتاريخ 2011/3/24 القرار رقم 18/16 بعنوان "مكافحة التعصب والقولبة النمطية السلبية والوصم والتمييز والتحريض على العنف وممارسته ضد الناس بسبب دينهم أو معتقدهم" وذلك خلال دورة انعقاده رقم (16). وقد عبر المجلس في قراره عن بالغ القلق إزاء استمرار الحالات الخطيرة للتنميط السلبي للأشخاص ووصمهم على أساس دينهم أو معتقدهم. كما أعرب عن تنامي قلقه إزاء استمرار تزايد حوادث التعصب الديني، ودعا الدول إلى اتخاذ التدابير الفعالة لوقف المحاولات التي تجري للتحريض على العنف على أساس الدين أو المعتقد[33].

- ومن ناحيتها كانت الجمعية العامة للأمم المتحدة قد اتخذت بتاريخ 2010/11/23 قرارًا بشأن اعتبار الأسبوع الأول من فبراير من كل عام، أسبوعا للوئام العالمي بين جميع الأديان.

(33) لمزيد من التفاصيل راجع قراري مجلس حقوق الإنسان التابع لمنظمة الأمم المتحدة رقم 7/19 و رقم 18/16
https://www2.ohchr.org/english/bodies/hrcouncil/docs/16session/A.HRC.RES.16.18_en.pdf
http://ap.ohchr.org/documents/e/hrc/resolutions/a_hrc_res_7_19.pdf

رؤية مستقبلية :

جدير بالذكر أن الجهود المبذولة ذات الصلة بمكافحة ظاهرة ازدراء الأديان والرسل قد اقتصرت على سن القوانين والتشريعات ذات الصلة، إذ تجرم معظم التشريعات الجنائية الوطنية خاصة في العديد من الدول العربية والإسلامية أفعال الإساءة إلى الأديان والرموز الدينية، سواء كانت تلك الأفعال قولية أو مادية. وقد لوحظ أنه في كثير من الأحيان لا يعمل بهذه القوانين إلا في نطاق ضيق. والواقع أن سن القوانين غير كافٍ إذ يلزم أن يستتبعه خطوات وإجراءات أخرى تتمثل فيما يلي:

- مراجعة الخطاب السياسي والثقافي والإعلامي والديني وذلك بما يكفل احترام كافة الأديان والرسل .
- بذل المساعي الدولية لوضع اتفاقية تحرم وتجرم الإساءة إلى الأديان والرسل والعمل على إضفاء صفة الإلزام على القرارات الصادرة عن منظمة الأمم المتحدة وأجهزتها في هذا الشأن .
- حث الدول – وبصفة خاصة الغربية الأوروبية – على ضرورة مراعاة التوازن بين حرية الرأي والتعبير واحترام المقدسات الدينية.
- حث المواطنين المسلمين في الدول الغربية على اللجوء إلى القضاء حالة تعرض معتقداتهم للإساءة أو التشويه اعتمادا على القوانين الوطنية والقانون الدولي .
- تقديم الدعم للجاليات والأقليات المسلمة في الدول الغربية .
- العمل على توضيح الصورة الصحيحة للإسلام وقيمه السمحة من خلال تنظيم ورش العمل والندوات والملتقيات الحوارية.

مستقبل الترتيبات الأمنية العربية في البحر الأحمر

شريـف شعبـان مــبروك

باحث في الشئون الإقليمية، والدولية - مصر

شهدت الفترة الحالية على مستويات عديدة مناقشات بشأن جدوى منظمات الأمن الجماعي وقدرتها على الاضطلاع بأدوار تستجيب للتحديات الأمنية والتهديدات المتصاعدة المرتبطة بسياسات العديد من الدول، ويأتي ذلك في وقت يشهد فيه الشرق الأوسط أطروحات متعددة لإعادة تشكيل وصوغ أنماط التفاعلات الإقليمية عبر صيغ مبتكرة لتأسيس مبادرات لا تسعى إلى تشكيل منظمة أمنية إقليمية بقدر ما تستهدف تحقيق الأدوار المنوطة بهذه المنظمات، وربما تبدو أدوار بعض الدول العربية واضحة في هذا الإطار، فيما يتعلق بتسوية النزاعات العربية أو الأفريقية،[1] حيث ارتبط ذلك بسياسات الدول العربية لمواجهة التهديدات الإيرانية والتركية، وذلك في ظل موجة تهديدات غير مسبوقة يجابهها الأمن القومي العربي.[2]

فقد أفرزت إحدى التحركات العربية خلال اجتماع وزراء خارجية مصر والسعودية والسودان وجيبوتي واليمن والصومال والأردن بالرياض في 22 ديسمبر 2018، الإعلان عن تأسيس كيان يضم الدول العربية والأفريقية المتشاطئة للبحر الأحمر وخليج عدن، للسعي لإيجاد صيغ تضبط التفاعلات الأمنية في البحر الأحمر، في إطار استراتيجية عامة تستهدف إيجاد ترتيبات تحفظ استقرار وأمن الشرق الأوسط (MENA)، من خلال

(1) للمزيد، انظر: د. رضا شحاتة، الدبلوماسية العربية وتفاعلاتها مع القرن الأفريقي، مجلة شئون عربية، العدد 176 (القاهرة: شتاء 2018)، ص 16 – 20. انظر أيضًا: أحمد أمل، دلالات المشاركة المصرية في اتفاق السلام المنشط في جنوب السودان، المركز المصري للفكر والدراسات الاستراتيجية، 10 نوفمبر 2018.

(2) محمد عبد القادر ، تحديات مبادرة الرياض لتأسيس منظمة للتعاون والأمن الإقليمي في الشرق الأوسط، المجلة، العدد 1731 (لندن: 18 يناير 2019)، ص 10.

رؤية استراتيجية تجمع الدول المطلة على البحر الأحمر وخليج عدن، لأن هذه المنطقة تعتبر من الأهداف المفضلة لدى القوى الإقليمية والدولية التي تتحرك في المنطقة وفق أجندة عسكرية وأخرى اقتصادية.

ولا تعتبر هنا الحاجة الملحة للإعلان عن إنشاء هذه المنظومة الأمنية العربية ليس فقط من منطلق الأهمية الجيوسياسية والجيواستراتيجية للبحر الأحمر, وإنما تكاملاً مع طبيعة التحديات والتهديدات التي فرضتها بيئة الأزمات التي تعيشها المنطقة العربية والعديد من دولها, على نحو جعل من منطقة البحر الأحمر تمثل أحد المساحات الضاغطة على الأمن القومي العربي التي تدفع بالأزمات العربية نحو مزيد من التصعيد, عبر استدعاء الدور الخارجي الذي تمارسه العديد من الأطراف الإقليمية والدولية عبر قواعدها العسكرية المنتشرة على طول سواحل البحر الأحمر بشكل غابت معه المصلحة العربية, وساهم في فرض درجة من التعقيد على بيئة الصراع التي تشهدها الوحدات العربية.

إلا أنه بالنظر إلى حالة الفشل التي باءت بها جميع المبادرات التي تم اتخاذها في الماضي, إلى جانب عدم وضوح المسارات المستقبلية للمبادرة المطروحة حاليًا, تثور بعض التساؤلات حول متطلبات اللحظة الراهنة من حيث تحديد طبيعة وشكل المنظومة المقترحة والعناصر المكونة لها, وتحديد طبيعة التحديات التي تعرقل تطويرها إلى إطار مؤسسي ينظم حركة الدول الفاعلة داخل نطاق منطقة البحر الأحمر, هذا بالإضافة إلى توضيح فرص التعاون التي قد توفرها هذه الأطر المقترحة وتضمن لها الفاعلية والاستدامة المطلوبة، وهو ما تحاول هذه الدراسة الإجابة عليه عبر فك مساحات الاشتباك التي تفرضها مثل هذه الأطروحات.

أولاً: أهداف إنشاء التحالف العربي للبحر الأحمر وخليج عدن

تعود قضية أمن البحر الأحمر إلى أولويات أجندة عمل العديد من القوى الدولية والإقليمية، وفي المرحلة الراهنة تشهد المنطقة العديد من التحديات في المدخل الجنوبي، باستمرار الصراع في اليمن، أو بتغير شكل العلاقات بين دول القرن الإفريقي، خاصةً مع التوجه الجديد الذي تتبعه إثيوبيا، كذلك فإن المنطقة شمال البحر الأحمر ليست أقل

ارتباكًا، فما زال الصراع في سوريا يشهد تطورات حادة وتغيرًا في خريطة التحالفات داخلها، وما تشهده القضية الفلسطينية –الإسرائيلية من تطورات، تؤكد جميعها أن هناك تحولات مهمة في المنطقة، وفي أبسط التقديرات فهناك استراتيجيات جديدة لإعادة ترتيب التوازنات وخريطة القوى في هذه المنطقة الإقليمية المهمة.

لذلك شكل اجتماع القاهرة في 12 ديسمبر 2017 بمشاركة عدد من الدول العربية والإفريقية المتشاطئة للبحر الأحمر, اللبنة الأولى نحو بلورة رؤية عربية لمنظومة أمن البحر الأحمر وخليج عدن، لتأخذ في الاعتبار المصالح العربية وتنطلق من اعتبارات الأمن القومي العربي، حيث جاءت المبادرة المصرية بالدعوة لتطوير منظومة جديدة لأمن البحر الأحمر تأسيسًا على أرضيات التعاون المشتركة التي قد توفرها أطر التعاون الاقتصادي فيما بين الدول المتشاطئة, على نحو يؤدي إلى إجراء حوار كاشف حيال الأوضاع السياسية في إقليم البحر الأحمر ومحيطه, وهو ما يسهم بدوره في بلورة صيغة للتنسيق المشترك الفاعل لمواجهة التحديات الأمنية في المنطقة على غرار ظاهرة الإرهاب, والهجرة غير الشرعية, والاتجار في البشر, وعمليات التهريب, والجريمة العابرة للحدود, وعمليات القرصنة.[3]

تبع ذلك اجتماع آخر لوزراء خارجية السعودية ومصر والسودان وجيبوتي واليمن والصومال والأردن، بالرياض في 22 ديسمبر 2018 الذي تم الإعلان من خلاله عن تشكيل تحالف يضم الدول العربية والأفريقية المتشاطئة للبحر الأحمر وخليج عدن يستهدف التنسيق والتعاون بينها، كما تتنوع دوافع تأسيسه ما بين كونه منصة دائمة للتشاور بين الدول الأعضاء من أجل إيجاد فهم مشترك للتحديات الأمنية التي تزعزع استقرار البحر الأحمر، ومحاولة علاج التوترات بين الدول المتاخمة له وهو ما تجلى خلال سبتمبر 2018 في استضافة مدينة جدة لاتفاق سلام إثيوبي – إرتيري، لكن التحالف يضع على رأس أولوياته تقويض النفوذ والتأثير الإيراني والتركي على أمن

(3) مهاب عادل حسن، نحو منظور عربي لأمن أحد أهم الممرات الملاحية، صحيفة الأهرام المسائي، 2 مايو 2018.

البحر الأحمر وحماية أمن المجرى الملاحي الدولي لاسيما مع سيطرة جماعة الحوثي الموالية لإيران على ميناء الحديدة وتعطيلها لحركة الملاحة وتصدير النفط بمضيق باب المندب.[4]

وفي الواقع يأتي هذا التحالف بين الدول العربية المتشاطئة للبحر الأحمر وخليج عدن، في ضوء مستجدات ثلاثة أساسية، أولاً: في الوقت الذي تزداد أهمية البحر الأحمر وخليج عدن والمناطق المتاخمة له، نجد أنه تحيط به دول غير قادرة على تأمين حدودها البحرية بشكل كاف لأسباب عديدة ما يجعلها عرضة لمخاطر القرصنة وعبور الجماعات الإرهابية، وثانيًا: التطورات التي يشهدها النطاق الجغرافي المحيط بالبحر الأحمر، حيث أضحى الصراع سمة أساسية لتلك التطورات، إذ أصبح القرن الإفريقي مسرحًا لوجود عشر قواعد عسكرية لأطراف إقليمية ودولية، وإذا نظرنا إلى ذلك الوجود من منظور حماية المصالح الحيوية للأطراف المعنية كنموذج يلتقي فيه الأمن الإقليمي مع نظيره العالمي، فإن ذلك لا ينفي التنافس والصراع في تلك المنطقة بما يجعل دولها عرضة للاستقطاب، وخاصة مع سعي أطراف دولية إلى تعزيز وجودها في دول القارة الإفريقية عامة ومنطقة القرن الإفريقي خاصة، وثالثًا: وجود سوابق تؤكد أن الملاحة في مضيق البحر الأحمر وباب المندب لم تعد آمنة ومن ذلك استهداف ناقلات النفط في مضيق باب المندب حيث استهدف الحوثيون ناقلات النفط السعودية في أبريل ويوليو 2018، بما يؤكد أن أمن الطاقة والملاحة البحرية عمومًا في ذلك المضيق قد أصبحت في مرمى الخطر.[5]

وبالتالي فإن وجود آلية أمنية للدول العربية المتشاطئة للبحر الأحمر وخليج عدن، من شأنها التصدي لثلاثة تحديات في آن واحد وهي إدارة الصراع والتنافس في تلك المنطقة الحيوية من العالم سواء الإقليمي – الإقليمي أو الصراع بين القوى الكبرى ذاتها،

(4) هبه المنسي، كيان "أرسقا" .. محفزات تشكيل تحالف البحر الأحمر، موقع الوطن العربي الإخباري، 17 ديسمبر, 2018.

(5) د. أشرف محمد كشك، أمن مضيق باب المندب: نحو تأسيس منظومة أمنية لدول القرن الإفريقي، صحيفة أخبار الخليج، ١٩ نوفمبر ٢٠١٨.

في ظل وجود تداخل كبير بين دوائر الأمن في هذه المنطقة فأمن البحر الأحمر والقرن الإفريقي جزء لا يتجزأ من الأمن القومي المصري، كما ترتبط تلك المنطقة ارتباطًا وثيقًا بأمن الخليج العربي والأخير بدوره جزء لا يتجزأ من الأمن القومي المصري، إذ إن وجود إطار إقليمي به تعهدات والتزامات متبادلة بين أطراف تلك المنظومة من شأنه الحد من التدخلات الخارجية في تلك المنطقة، وتحديد أولويات تلك الدول في الوقت الراهن على الصعيدين التنموي والأمني، والحد من تأثير الأزمات الإقليمية على أمن مضيق باب المندب والقرن الإفريقي عمومًا.[6]

كما يهدف الكيان الجديد إلى تعزيز التكامل الاقتصادي بين دوله من جانب، وحماية أهم طرق التجارة الدولية المارة عبر خليج عدن ومضيق باب المندب والبحر الأحمر من جانب آخر، خاصة أن إيران لجأت خلال السنوات الأخيرة إلى استخدام المضائق البحرية كورقة ضغط في مفاوضاتها مع بعض الدول الغربية بخصوص برنامجها النووي، من خلال التهديد بإغلاق مضيق هرمز ودفع حلفائها الحوثيين للتهديد بإغلاق مضيق باب المندب، وذلك ردا على الضغوط الغربية عليها والتهديد بفرض حصار عليها من شأنه منعها من تصدير نفطها للخارج.[7]

كما يمكن القول بأن الكيان الجديد يكتسب أبعادًا عسكرية واستراتيجية، ذلك أنه لا بد أن يكون لهذه الدول حضور عسكري إشرافي على مضيق باب المندب وخليج عدن والبحر الأحمر، فالتهديدات المحدقة بمنطقة الخليج والبحر الأحمر والقرن الأفريقي تتطلب تعاونًا عسكريًا مشتركًا تستطيع دول الخليج البدء به بالاعتماد على قوات بحرية، وضمن هذا الإطار تطور السعودية الآن أساطيلها البحرية، ومصر تعززت ترسانتها البحرية، ويمكن تدشين أسطول مشترك لتعزيز أمن السواحل والممرات المائية، التي تكتسي أهمية كبيرة لدول الخليج، حيث اقتصادها وحركة تجارتها استيرادًا وتصديرًا تعتمد على النقل البحري، كما ينبغي أن تكون هناك قيادة بحرية عربية لديها أسطول بمهام

(6) تكتل دول البحر الأحمر: السعودية تقود التوازن الإقليمي، سلسلة قراءة خاصة، العدد 168 (الرياض: ديسمبر 2018)، ص 2 – 5.

(7) نفس المرجع، ص 5 – 6.

واضحة، ضمن جهد مشترك يوفر خيارًا ناجعًا للتعامل مع التهديدات البحرية في المنطقة.

وفي سياق متصل كان سعي الجانب المصري بأهمية كبيرة في إنشاء قيادة الأسطول الجنوبي في البحر الأحمر، وهو اهتمام بدا واضحًا في المناورات العسكرية التي سبق أن أجرتها مصر مع الجيش الروسي هناك، وجاء قرار تدشين قيادة الأسطول الجنوبي بالقرب من مضيق باب المندب، بعد رفع العلم المصري على حاملة مروحيات "ميسترال"، كخطوة على الطريق بإدراك مصر خطورة التحديات التي يواجهها الأمن في البحر الأحمر، إذ إن تلك المنطقة تشكل البوابة الجنوبية لقناة السويس، ومن يتحكم بها يتحكم ولا شك بحركة الملاحة في قناة السويس، مما دفع مصر لتعزيز ترسانتها البحرية بفرقاطات متعددة المهام وبحاملتي ميسترال الفرنسية للطائرات المروحية، والتي ستُكرّس لحماية قناة السويس ومضيق باب المندب، للردع أو التموضع إزاء القوى الإقليمية الأخرى المتشاطئة في الممر المائي أو التي لها طموحات أو أهداف توسعية في آن معًا.[8]

ثانياً: بيئة التفاعلات الإقليمية والدولية المهددة لأمن البحر الأحمر

شهدت منطقة البحر الأحمر تحركات عدة أطراف دولية وإقليمية والأطراف من غير الدول التي تنشط في هذه المنطقة بهدف ترسيخ نفوذها هناك، والتي بدورها سعت تلك القوى الدولية والإقليمية إلى إيجاد موطئ قدم لها في البحر الأحمر، في إطار بيئة إقليمية معقدة تذخر بالعديد من التحركات والترتيبات الإقليمية والتنافس بين تلك القوى، وذلك من خلال إقامة عدد من القواعد العسكرية تكون بمثابة المنفذ لها للبحر الأحمر، ونقطة انطلاق حال أي تهديد في البحر الأحمر لمصالح تلك القوى في المنطقة، وهناك تزاحم إقليمي ودولي نحو إقامة قواعد عسكرية على ساحل البحر الأحمر، وتعتبر دولة جيبوتي أبرز الدول المطلة على البحر الأحمر التي تستضيف قواعد عسكرية على

(8) مصطفى دردق، البحر الأحمر في المعادلات الإقليمية والدولية مسارات التحول والمتغيرات، موقع الجمعية العلمية للشئون الأفريقية، 3 يونيو 2018.

أراضيها،[9] بما يهدد الأمن والاستقرار في المنطقة، كما أنه بمثابة العمق الاستراتيجي لكل من مصر والسعودية، كونه يتاخم الكثير من المناطق الاستراتيجية التي تمثل امتدادًا للأمن القومي العربي، مثل منطقة حوض النيل ومنابع النيل، وكذلك الأمر بالنسبة لمنطقة القرن الأفريقي،[10]

ويمكن توضيح تلك التفاعلات الإقليمية والدولية المهددة والمؤثرة على أمن البحر الأحمر، من خلال النقاط التالية:

الصراع والتنافس الأمريكي –الصيني: تبرز مؤشراته في المنطقة كأحد أبرز التهديدات التي تواجه منطقة البحر الأحمر والقرن الأفريقي، حيث تنظر الولايات المتحدة الأمريكية إلى الصين كمصدر تهديد لمصالحها الاستراتيجية في القرن الأفريقي والبحر الأحمر، خاصة مع إنشاء الصين لقاعدة عسكرية وبحرية لها في جيبوتي، ومشاركة قوات صينية تقدر بـ 1000 جندي ضمن بعثة قوات الأمم المتحدة UNMISS في جنوب السودان، فضلاً عن توسع الاستثمارات الصينية في بعض الدول مثل السودان وإثيوبيا والصومال،[11] وبالتالي هناك مخاوف من احتمالية نشوب صدام عسكري بين البلدين في المنطقة، في ظل تعارض المصالح في المنطقة، والقرب الجغرافي بين القاعدتين العسكريتين الأمريكية والصينية في جيبوتي.[12]

فعلى الرغم من شعار "أمريكا أولاً" الذي كرسته سياسات الرئيس الأمريكي دونالد ترامب الشعبوية، فقد أجبرته على إعادة النظر في استراتيجيتها في القارة وأعلنت في 13 ديسمبر 2018 عن استراتيجيتها الجديدة تجاه أفريقيا، والتي تقلص إلى حد كبير

(9) د. أميرة عبد الحليم، القواعد العسكرية في البحر الأحمر: تُغير موازين القوى، مركز الأهرام للدراسات السياسية والاستراتيجية، 30 يناير 2018.

(10) د. محمد مجاهد الزيات، الأمن في البحر الأحمر وانعكاساته على الأمن القومي العربي، مجلة آراء، العدد 127 (الرياض: يناير 2018)، ص 20.

(11) سهام الدريسي، صراع النفوذ في شرق أفريقيا، مركز الفكر الاستراتيجي للدراسات، ص 12.

(12) أحمد عسكر، نحو منظومة إقليمية لأمن البحر الأحمر، مجلة آفاق عربية، العدد 4 (القاهرة: أكتوبر 2018)، ص 122.

المساعدات المقدمة إلى القارة، وتضع شروطًا أكثر صرامة على الدعم المالي والعسكري، كطريقة لمواجهة النفوذ المتنامي للصين وروسيا في أفريقيا.[13]

الدور الروسي: تسعى روسيا ليكون لها نفوذ في منطقة البحر الأحمر والدول المطلة عليه والقرن الإفريقي وذلك لفرض النفوذ الروسي على الملاحة البحرية في البحر الأحمر وتقويض المصالح الأمريكية والغربية واحتواء دول القرن الإفريقي خاصة الصومال وإثيوبيا واليمن الجنوبي وإدخالها في حلف أو اتحاد، مما يتيح لها السيطرة على باب المندب، ولتحقيق ذلك سعت موسكو للتوسع في عقد اتفاقيات الدفاع المشترك والحصول على التسهيلات البحرية والجوية في بعض الدول بمنطقة البحر الأحمر، ولعل الاتفاق مع دولة السودان على إقامة قاعدة عسكرية روسية في بورتسودان يخدم المصالح الروسية في هذا الخصوص.[14]

وبالتالي، يأتي الانخراط الرُّوسِيّ ليسهم في اشتداد التنافس في منطقة القرن الإفريقي والبحر الأحمر، كونها منطقة مزدحمة بالقوى الدَّوليَّة والإقليميَّة، كما أنها موطن للقواعد العسكرية لقوى غربيَّة وآسيويَّة وأمريكيَّة، وبالتالي فإن التواجد الرُّوسِيّ يفتح جبهة جديدة من التنافس الدولي في المنطقة، ففي ظل مسارعة الجانب الرُّوسِيّ إلى الانخراط في قضايا المنطقة، وتعزيز علاقاتها بدولها، يُمَثِّل التوجه الرُّوسِيّ نحو المنطقة عبئًا إضافيًّا عليها في إطار تعدُّد الأطراف الدَّوليَّة والإقليميَّة، وتضارب المصالح والأجندات في القرن الإفريقي، بما يُعَقِّد بيئة التفاعلات في المنطقة، التي تنعكس على مصالح الجميع فيها.[15]

الحضور الأوروبي: يمكن القول إنّ الاتحاد الأوروبي قد تراجعت نطاقات نفوذه في أغلب دوله ذات الحضور الاستعماري القديم بمنطقة شرق أفريقيا والقرن الأفريقي والبحر الأحمر، باستثناء فرنسا باعتبارها أبرز حليف أوروبي تقليدي بكلّ إفريقيا، وتعتبر

(13) د. حمدي عبد الرحمن، معارك التكالب الثلاثي على أفريقيا: هل من سبيل، قراءات أفريقية، 27 ديسمبر 2018.

(14) حكيم نجم الدين، التنافس على إفريقيا: النفوذ الصيني – الروسي – الأمريكي، قراءات إفريقية، 11 مارس

(15) أحمد عسكر، التوجُّه الرُّوسِيّ نحو القرن الإفريقي.. الدوافع والتَّداعيات، قراءات أفريقية، 25 نوفمبر 2018.

القيادات الفرنسية وأيضًا الرأي العام أنّ إفريقيا امتداد لنفوذها الجيواستراتيجي،[16] وتُعد فرنسا من الدول ذات النفوذ في البحر الأحمر وذلك بهدف تأمين وارداتها من النفط وإثبات وجودها في تأمين طرق المواصلات والممرات المهمة وضمان عدم انفراد واشنطن في التحكم في الأوضاع السياسية والعسكرية في المنطقة، ويتضح الدور الفرنسي بشكل كبير في جيبوتي حيث احتفظت فرنسا بقاعدة عسكرية وبحرية، وهي تمثل أكبر تواجد عسكري فرنسي خارج فرنسا.[17]

النفوذ الإسرائيلي: يُعد التواجد الإسرائيلي في البحر الأحمر أحد أبرز مهددات الأمن القومي العربي في المنطقة، وقد ركزت إسرائيل في نظرية أمنها القومي على البحر الأحمر، بوصفه يقع ضمن اتجاهها الاستراتيجي الجنوبي ليشمل الدول العربية المتشاطئة له ودول القرن الإفريقي المتحكمة في مدخله الجنوبي، بالإضافة إلى منطقة البحيرات العظمى ومنابع نهر النيل، ولذلك خططت إسرائيل منذ نشأتها للسيطرة على البحر الأحمر بجميع منافذه وإقامة ما يسمى بإسرائيل الكبرى، وفي إطار المنظور الإسرائيلي يُعد البحر الأحمر ممرًا مائيًا دوليًا ينبغي أن يظل مفتوحًا لسفن الدول جميعًا بما فيها إسرائيل.[18]

وتدرك إسرائيل خطورة تحول البحر الأحمر إلى بحيرة عربية يمكن حال قيام حرب مستقبلية غلق نقاطه الاستراتيجية في وجه الملاحة من وإلى إسرائيل، لذلك نجدها تتلقى من الولايات المتحدة الأمريكية المساندة تحت ذريعة التعاون والمصالح الاستراتيجية بينهما، وذلك في إطار الالتزامات الأمريكية بضمان الأمن لإسرائيل، وهو ما دفعها إلى المزيد من التحركات خصوصًا عند المدخل الجنوبي للبحر الأحمر، وتعزيز علاقاتها مع

(16) ياسر قطيشات، التنافس الإقليمي والدولي في القارة السمراء: القرن الإفريقي نموذجًا، مجلة آراء حول الخليج، 24 يونيو 2014. https://goo.gl/HPkaJd

(17) إجلال رأفت، تقاطع المصالح القومية للدول العربية المطلة على البحر الأحمر ودول القرن الإفريقي، في: مجموعة من الباحثين، العرب والقرن الإفريقي: جدلية الجوار والانتماء (بيروت – الدوحة: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2013)، ص 2017.

(18) صادق الشيخ عيد، السياسة الخارجية الإسرائيلية تجاه إفريقيا – جنوب الصحراء، مجلة رؤية تركية، العدد 4 (القاهرة: شتاء 2015)، ص 104-105.

دول القرن الأفريقي وشرق أفريقيا، بهدف تأمين الملاحة البحرية بينها وبين العالم الخارجي، فضلاً عن المشاركة في تأمين وحماية مضيق باب المندب، حيث تمتلك إسرائيل وجودًا قويًا في المنطقة من خلال شركات الأمن التي تنشط فيها، فضلاً عن إشرافها على قاعدة تجسس وقواعد للتدريب في جزيرة "دهلك" الإريترية، التي توفر فيها غواصات مزودة بالوقود.[19]

وتمثل التهديدات الإسرائيلية لمصر في البحر الأحمر في الوقت الحالي، في إنشاء خطوط للسكك الحديدية كمعبر بديل لقناة السويس بالتعاون مع الصين ضمن مبادرة الحزام والطريق، والذي يربط بين البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر، بحيث تشكل مسارًا جديدًا للحركة التجارية بين أوروبا وآسيا، والذي يمر من ميناء ايلات إلى خليج العقبة المطلين على البحر الأحمر لميناء أشدود على البحر المتوسط، وتقدر تكلفة المشروع بنحو 4,9 مليارات دولار في عام 2014، وتم تفويض شركة مرفأ الصين الهندسية لبناء مرفأ كبير في أشدود للحاويات تقدر تكلفته بنحو 930 مليون دولار.[20]

وفي إطار التكالب الإسرائيلي على تعزيز نفوذها في منطقة البحر الأحمر، يظهر التخوف الإسرائيلي من النفوذ الإيراني، فإسرائيل ليست بمنأى عما يجري من أحداث بمنطقة البحر الأحمر، وهو ما عبر عنه محللون إسرائيليون الذين أكدوا أن الصراع الإقليمي والدولي في البحر الأحمر ليس بجديد وأن وجود تركيا في المنطقة لا يمثل تهديدًا حقيقيًا لإسرائيل بقدر المخاوف المتوقعة من تحركات إيرانية، أو نزاع مصري – تركي في ظل التعاون التركي مع السودان، وما تخشاه إسرائيل هو أن تنصُب إيران هناك منظومة لإطلاق صواريخ بعيدة المدى، خاصة وأن المسافة بين ميناء عصب وإسرائيل أقل من 2300 كيلومتر، وهو مدى الصواريخ التي تطورها إيران.[21]

---

(19) - Aboubkrine El Am, Arab Security at Stake.. The Conflict over Regional Influence in East Africa, Future for Advanced Research & Studies, 11 February 2018.

(20) د. هبة جمال الدين محمد العزب، المبادرة مدخل للعلاقات العربية – الصينية وتحقيق المنافع يتوقف على التفاوض، مجلة آراء، العدد 133 (الرياض: يناير 2019)، ص 56.

(21) عسكرة البحر الأحمر: مقدمة لحرب إقليمية جديدة، موقع الحرة، 28 ديسمبر 2017.

التدخلات الإيرانية: تسعى إيران بقوة إلى البحث عن مواقع بطول ساحل البحر الأحمر من قناة السويس شمالاً إلى باب المندب جنوبًا، وذلك للولوج إلى منطقة القرن الأفريقي وإيجاد موطئ قدم لها على ساحل البحر الأحمر من خلال بوابة إريتريا، وفى مضيق باب المندب، تستخدم إيران ميليشيات الحوثي كوكيل لها في المنطقة بهدف فرض واقع جديد من أجل الدخول بقوة في معادلة الترتيبات الإقليمية في المنطقة مستقبلاً، فضلاً عن استخدامها كسلاح تستطيع من خلاله تعطيل تدفق حركة الملاحة البحرية في البحر الأحمر حال نشوب أية حروب في المنطقة تكون إيران طرفًا فيها، في إطار صراعها مع الغرب، وبعض دول الخليج العربي، وعلى رأسها السعودية والإمارات،[22] ومن ثم تطمح إيران إلى أن تضيف لمكاسبها الاستراتيجية إمكانية التحكم في البحر الأحمر وباب المندب من خلال المنصة اليمنية، إلى جانب مضيق هرمز الذي تسيطر عليه، إضافة إلى تمركزها في بعض الجزر الإريترية والتعاون الأمني مع بعض دول القرن الأفريقي مثل إثيوبيا،[23] كما شاركت إيران في عام 2010 في مناورة مع جيبوتي في تهديد حقيقيّ لحرّية الملاحة في باب المندب، وذلك قبل أن تقطع جيبوتي عَلاقاتها مع إيران في 2015.[24]

حلم الإمبراطورية التركية: سعت تركيا مؤخرًا إلى تعزيز حضورها في منطقة البحر الأحمر والمحيط الهندي وهو ما ظهر من خلال توقيعها اتفاقًا لتطوير وإدارة جزيرة سواكن السودانية في 24 ديسمبر 2017، فضلاً عن الاتفاق على تأسيس منطقة تجارة حرة في جيبوتي والتي تم تخصيص مساحة 5 ملايين متر مربع لها في ديسمبر 2016،

(22) Dore Gold, The Brewing Conflict along the Red Sea, Jerusalem Center For Public Affairs, 1 February 2018. -

(23) د. خطار أبو دياب، البحر الأحمر في معادلات الأمن العربي، العربية نت، 31 أكتوبر 2015.

(24) مسفر بن صالح الغامدي، النفوذ الإيراني في حوض البحر الأحمر أهداف ومعوقات البقاء في إقليم حيوي، مجلة الدراسات الإيرانية، العدد 5 (الرياض: ديسمبر 2017)، ص 135.

كما أعلنت رسميًا في سبتمبر 2017، عن إنشاء قاعدة عسكرية وثلاث مدارس عسكرية بجانب منشآت أخرى بجنوب العاصمة الصومالية على ساحل المحيط الهندي.[25]

وبالتالي تحاول تركيا من خلال تعزيز وجودها بالقرب من المنافذ البحرية بمنطقة البحر الأحمر تحقيق جملة من الأهداف، من أبرزها تعزيز قدراتها الاستثمارية عبر منافسة بعض القوى الإقليمية التي تبدي اهتمامًا خاصًا بتطوير وبناء الموانئ المطلة على المحيط الهندي أو البحر الأحمر أو الاستثمار فيها، بما قد يحقق لها مكاسب تجارية واستثمارية متعددة، لذا عزز دخول تركيا على خط التنافس حول منطقة البحر الأحمر الاستراتيجية المخاوف من تغذية الصراعات الإقليمية الدائرة فيها، وتحولها إلى إحدى أكثر البؤر توترًا في العالم.

تصاعد الدور الإثيوبي: يبدو تنامي الدور الإثيوبي في المنطقة أحد مصادر التأثير في البحر الأحمر، حيث يتعارض الدور الإثيوبي مع المصالح العربية، فخطورة علاقات أديس أبابا الجيدة مع إسرائيل والولايات المتحدة الأمريكية تتركز على الأمن القومي العربي، فهي تحرص على إبراز دورها كقوة إقليمية قادرة على خدمة المصالح الأمريكية – الغربية في القرن الإفريقي والشرق الأوسط، لا سيما المصالح الخاصة بمحور واشنطن – تل أبيب، مع العمل في الوقت ذاته على استثمار المنافسة بين أقطاب النظام الدولي في خدمة المصالح الوطنية الإثيوبية.[26]

إذًا، فقد سمح غياب أي منظمة أمنية عربية في البحر الأحمر لفترة طويلة خاصة من جانب الدول المشاطئة له، بتشكيل قاعدة لانطلاق قوى إقليمية ودولية لاستغلال البحر الأحمر خاصة عند مدخله الجنوبي، كجسر للتمدد في العمق العربي والأفريقي، ذلك في ظل تقاعس القوى التقليدية عن التقاطع مع تلك التطورات، وفرض حالة أمن جماعي في دائرة استراتيجية تمثل عمق أمنها القومي الإقليمي، والعزوف عن الانخراط

(25) د. حمدي عبد الرحمن، سباق القواعد العسكرية في القرن الإفريقي الفرص والمخاطر الأمنية بالنسبة لمصر، السياسة الدولية، العدد 211 (القاهرة: يناير 2018)، ص 123.

(26) د. أيمن شبانة، الظهور الإثيوبي في جنوب الشرق الأوسط، السياسة الدولية، 20 سبتمبر 2011.

النشط في قضايا الأمن الإقليمي بصفة عامة، والأمن البحري بصفة خاصة، وهو سلوك كاشف عن قصر النظر الاستراتيجي لدى تلك الأطراف حول أهمية حوض البحر الأحمر، والاكتفاء باعتباره مجرد مجرى ملاحي، مما أفضى إلى وجود أمني محدود وفردي، لا سيما في باب المندب، بهدف تأمين الملاحة في قناة السويس، وكشف الصراع في اليمن عن ضعف تلك الإجراءات وفشلها في ردع الحركة الحوثية لدى تهديدها الملاحة في البحر الأحمر.[27]

ثالثًا: بيئة النزاعات والصراعات المهددة لأمن البحر الأحمر

تأثر أمن البحر الأحمر بالصراعات والنزاعات التي تشهدها المناطق المتاخمة للبحر الأحمر، مثل الصراعات في القرن الأفريقي، كالصراع الإرتيري – الإثيوبي – قبل أن تبدأ تسويته مؤخرًا –والنزاع الإرتيري – الجيبوتي، والحرب اليمنية، مما يجعلها أحد عوالم عدم الاستقرار عند المدخل الجنوبي للبحر الأحمر، والتي كانت دافعًا لاحتدام التنافس الدولي والإقليمي في المنطقة،[28] كما يواجه البحر لأحمر أيضًا أشكالاً جديدة من التدويل، في ظل استمرارية بعض النزاعات والصراعات على ضفتيه، فهناك المبادرات ومشاريع التسوية الدولية للنزاعات كإرسال مبعوث دولي أو إقليمي لتسوية النزاع في دولة ما مثل اليمن وجنوب السودان، أو من خلال قوات تدخل بحرية مثل القوة البحرية الدولية لمكافحة القرصنة قبالة السواحل الصومالية، وقوات الاتحاد الأفريقي في الصومال (الأميصوم AMISOM)، وقوات الأمم المتحدة في جنوب السودان UNMESS، وكذلك القوات القطرية لحفظ السلام على الحدود بين جيبوتي وإريتريا قبل أن تنسحب على خلفية الأزمة الخليجية –القطرية الراهنة.[29]

(27) أحمد عليبة، ارتدادات الوجود العسكري التركي في البحر الأحمر، مجلة شئون تركية، العدد 10 (القاهرة: خريف 2018)، ص 81 – 82.

(28) أحمد عسكر، نحو منظومة إقليمية لأمن البحر الأحمر، مرجع سابق، ص 112.

(29) محمد أنيس سالم، الدول العربية أمام تحديات عولمة البحر الأحمر، مجلة شئون عربية، العدد 173 (القاهرة: ربيع 2018)، ص 16 – 26.

ويمكن توضيح تلك الصراعات والنزاعات المؤثرة على أمن البحر الأحمر، على النحو التالي:

النزاعات والصراعات في البحر الأحمر: تدور في بعض مناطق الجوار الجغرافي للبحر الأحمر صراعات ونزاعات إقليمية مثل القرن الأفريقي واليمن، واستمرار تلك الصراعات من شأنها أن تلعب دورًا في استقطاب المزيد من المتكالبين على النفوذ وموطئ قدم في المنطقة، ومن ثم يظل الوضع في البحر الأحمر قابلاً للانفجار واندلاع الصراعات مجددًا مستقبلاً، ويمثل النزاع الجيبوتي – الإريتري وهو النزاع المستمر حول منطقة دوميرا، والذي لا يزال مؤشرًا سلبيًا حول إمكانية تحقيق السلام الإقليمي في المنطقة، بالرغم من انتهاء الخلاف الإثيوبي الإريتري، بما يعني استمرار التهديد الإقليمي في القرن الأفريقي، وتأثيره على منطقة البحر الأحمر كونهما وحدتين أساسيتين في النظام الإقليمي للبحر الأحمر.

كما عرفت الصومال انتشارًا واسعًا لظاهرة العنف المسلح، وامتدادًا لها في كل مناطقها بسبب انقسامات داخلية، ونتيجة لحربها مع إحدى دول الجوار (إثيوبيا) التي واصلت قواتها حربها وتدخلها العسكري على حدودها الشرقية (الصومال)، والأخيرة (إثيوبيا) عايشت بدورها مواجهات مسلحة وحربًا أهلية ضد (مسلمي الأورومو) في مناطقها الجنوبية، كما تعرف الحدود المشتركة بين إريتريا وجيبوتي نزاعات متقطعة، وحالة توتر شبه دائمة منذ عام 2008، ثم في يونيو 2017، وكانت تنشر إريتريا قوات ومعدات عسكرية على حدودها مع إثيوبيا منذ أن اندلعت الحرب والمواجهات المباشرة بينهما في مايو 1998، لتجدد حالة توتر ومناوشات استمرت قرنين على خطوط التماس.[30]

الإرهاب في منطقة القرن الأفريقي: تُعد منطقة القرن الأفريقي منطقة جاذبة للجماعات والحركات الجهادية، وذلك في ضوء حالة الفراغ التي تعاني منها تلك المنطقة، والتي تُعد بيئة مناسبة لحركة الجماعات المتطرفة العابرة للحدود، حيث إن الدول الوطنية منهارة أو

(30) ماذا تعرف عن النزاع الحدودي بين جيبوتي وإريتريا؟، مركز الجزيرة للدراسات، 18 يونيو 2017.

هشة، وحيث تنتشر تجارة السلاح بكثافة، كما إنها بيئة فقيرة وتفتقد إلى التنمية، وعليه فإنها تمد تلك الجماعات بالعناصر الجهادية، هذا فضلاً عن أن تلك المنطقة تمثل نقطة انطلاق مهمة في توجيه ضربات موجعة سواء لمصالح الولايات المتحدة الأمريكية ومعها الدول الغربية بشكل عام، أو العربية بشكل خاص.[31]

جماعة الحوثي: تأتي ضمن أبرز مهددات أمن البحر الأحمر، حيث تمثل العلاقات المتنامية بين إيران وجماعة الحوثي تهديدًا صريحًا لأمن البحر الأحمر، وتهديدًا للأمن الخليجي لاسيما السعودية والإمارات، كونها تسمح لإيران بالالتفاف حول منطقة الخليج، ومن ثم تهديد المصالح والأمن القومي الخليجي، ومن ثم فإن أي تواجد بحري أو جوي في اليمن من شأنه أن يمثل تهديدًا لحركة المرور عبر قناة السويس، كما أنه يهدد تدفقات النفط التي تمر يوميًا في مياه البحر الأحمر،[32] حيث تعرضت السفن التجارية والعسكرية التابعة للسعودية والإماراتية لتهديدات وهجوم من قبل جماعة الحوثي منذ عام 2016 وحتى الآن،[33] كان آخر تلك المحاولات عندما استهدف الحوثيون ناقلات النفط السعودية في إبريل ويوليو 2018، لذا قامت إيران بإرسالها لمدمرة وحاملة مروحيات ضمن "أسطول 54" إلى خليج عدن إثر تصاعد حدة النزاع في مدينة الحديدة وعلى مينائها.[34]

القرصنة البحرية: بالرغم من تقديرات حلف الناتو، التي أشارت إلى انخفاض الهجمات الناجحة للقرصنة قبالة سواحل البحر الأحمر في القرن الأفريقي خلال السنوات القليلة الماضية مقارنة بعام 2009، الذي شهد ذروة عمليات القرصنة بعدد 52 عملية اختطاف ناجحة، حيث لم يشهد عام 2015 أي حالة اختطاف في البحر الأحمر والقرن

(31) صلاح خليل، بؤر الصراع والتوتر في القرن الأفريقي الكبير، مجلة رؤى مصرية، العدد 8 (القاهرة: سبتمبر 2015)، ص 18.

(32) - Anthony H. Gordesman, America, Saudi Arabia, and the Strategic Importance of Yemen, Center For Strategic & International Studies, 26 March 2015.

(33) - Jeremy Vaughan and Simon Henderson, Bab al-mandab Shipping Chokepoint Under Threat, Policy analysis, The Washington Institute, 1 march 2017.

(34) إيران ترسل مدمرة وحاملة مروحيات إلى خليج عدن، صحيفة الأيام، 23 يونيو 2018.

الأفريقي،[35] إلا أن هناك مخاوف من تجدد عمليات القرصنة قبالة السواحل الصومالية، مما يهدد أمن واستقرار البحر الأحمر.

وبالتالي، تشكل تلك التهديدات والتي ترتبط بواقع المتغيرات الدولية والإقليمية في المنطقة، مصدر قلق بشأن الأمن والاستقرار الإقليمي، وتحديًا قويًا أمام أي تنسيق وتعاون إقليمي مستقبلي بشأن منطقة البحر الأحمر، إلا أنها في نفس الوقت تمثل دافعًا قويًا نحو ضرورة وجود إرادة إقليمية من جانب الدول المطلة على البحر، تستهدف ضمان أن يصبح الحزام الساحلي للبحر الأحمر حزامًا آمنًا، لضمان سلامة الطريق التجاري من المحيط الهندي إلى البحر الأبيض المتوسط، واستقلال تداعيات عملية السلام الأخيرة والمصالحة بين إثيوبيا وإريتريا في تحقيق السلام الإقليمي في منطقة القرن الأفريقي، لما سيكون له من انعكاسات على المشهد الاستراتيجي في البحر الأحمر وأمنه.[36]

رابعًا: آليات نجاح التحالف العربي لأمن البحر الأحمر وخليج عدن

هناك تهديد قوي وواضح لأمن البحر الأحمر من قبل الأطراف الإقليمية غير العربية والدولية، لذا ينبغي عند صياغة تصور استراتيجي عربي لحماية أمن البلدان العربية المطلة على البحر الأحمر وتأمين الملاحة فيه وتحقيق التعاون والاستثمار المشترك لثروات هذا الممر المائي وفق مشروع عربي متكامل, تتقاطع حوله الأبعاد السياسية والأمنية والاقتصادية، يجب أن ينطلق هذا المشروع من الدائرة الوطنية لكل دولة ومن دائرة التعاون الثنائي، وكذلك من دائرة المشروع الوحدوي للدول المشاطئة ضمن أبعاده العربية والإقليمية، وذلك في المجالات العسكرية والأمنية والسياسية والاقتصادية والبيئية.

---

(35) د. يحيى بن مفرح الزهراني، عسكرة البحر الأحمر والتحديات المستقبلية: ثروات مائية تحتاج للحماية، مجلة آراء، العدد 127 (الرياض: يناير 2018)، ص 12.

(36) – Alexander Rondos, The Horn of Africa – Its Strategic Importance for Europe, the Gulf States, and Beyond, Center For International Relations and Sustainable Development, Horizons, Winter 2016, Issue No. 6.

وبالتالي، فثمة عدد من الآليات لضمان نجاح التحالف العربي لأمن البحر الأحمر وخليج عدن، ويمكن إيجاز تلك الآليات في النقاط التالية:[37]

إنهاء الحروب الأهلية وضمان الاستقرار السياسي: ويعتبر هذا شرطًا ضروريًا لإمكانية الانضمام إلى تنظيم إقليمي أو ترتيبات أمنية فاعلة، ولقطع الطريق أمام احتمال تدخل القوى الإقليمية أو الدولية، ففي اليمن، على سبيل المثال، فإن الأوضاع تسير من سيئ إلى أسوأ بسبب التشاؤم الذي يسيطر على أجواء الحوار الوطني واجتياح الحوثيين للعاصمة صنعاء وسيطرتهم الفعلية على مقاليد الحكم، هذا الواقع العربي فرض نفسه على إقليم الخليج، وكذلك على المناطق الجنوبية الشرقية من الوطن العربي،

تصفية الخلافات العربية – العربية: وتُعد هذه خطوة ضرورية، لأنه لا يمكن الاتفاق على ترتيبات جماعية لأمن البحر الأحمر إذا كانت هناك خلافات حادة بين طرفين أو أكثر من أعضاء هذه الترتيبات، ويمكن أن يكون تعزيز التعاون الإقليمي بين أطراف التحالف المناوئ (إسرائيل، إريتريا، إثيوبيا) حافزًا للقضاء على الخلافات بين الدول العربية وبعضها، فقد استطاعت كل من إثيوبيا وإريتريا تناسي صراعاتهما المسلحة وإقامة علاقة تقترب من التحالف، بينما تختلف الدول العربية التي تشترك في قواسم عدة لأسباب لا تستحق التضحية بالأمن العربي من أجله.

تحييد بعض القوى الإقليمية: يمكن للأطراف العربية تحييد الأطراف الإقليمية وحصر تهديدها للأمن القومي العربي في أضيق نطاق ممكن في حالة وجود تنسيق عربي وموقف عربي موحد يقنع الآخرين بقدرة العرب مجتمعين على الرد بقوة على أي انتهاكات لحقوقهم وتهديد لأمنهم.

تعزيز العلاقات مع بعض القوى الكبرى: يمكن للأطراف العربية التوصل إلى اتفاق مع بعض القوى الكبرى في حالة تشابه مصالحها مع مصالح الأطراف العربية. مثل فرنسا

(37) إسراء محمد كمال الزيني، أمن البحر الأحمر: مواجهة التهديدات باستراتيجية عربية لحماية الملاحة والاستثمار، مجلة آراء، العدد 127 (الرياض: يناير 2018)، ص 105 – 106.

ذات الحضور القوي في الصومال وجيبوتي، والصين التي تمتعت بنفوذ قوي لفترات في كل من إثيوبيا وإريتريا والصومال، ويمكن الاستفادة من التباين في مصالح هذه القوى ومصالح الولايات المتحدة الأمريكية، على أن يكون تعزيز الأمن القومي العربي هو المحك في درجة التعاون أو التنسيق مع بعض هذه القوى.

خامساً: السيناريوهات المستقبلية للتحالف العربي لأمن البحر الأحمر وخليج عدن:

بالنسبة إلى الترتيبات الأمنية المستقبلية في البحر الأحمر وخليج عدن الذي يربط دولاً عربية وأفريقية، تشير التوقعات إلى أنها لن تكتمل دون الأخذ في الاعتبار ديناميات التعاون والصراع في القرن الأفريقي والقضية الفلسطينية، فإسرائيل تُعد إحدى الدول المشاطئة للبحر الأحمر، وبالتالي فأمام واقع زيادة الأهمية الاستراتيجية للبحر الأحمر كمنطقة إقليمية بفعل عدة اعتبارات، أهمها: ارتباط مصالح الدول الكبرى في المرحلة الراهنة خاصة الولايات المتحدة، والتي تسعى لإعادة ترتيب المنطقة بما يتناسب مع مصالحها، والحد من تأثير القوى الكبرى الأخرى في المنطقة، هذا الاعتبار يدفع الولايات المتحدة بممارسة الضغوط على الدول العربية لعرقلة مشروعها لتأسيس الكيان المقترح، وعليه يمكن الإشارة إلى أن ترتيبات الأمن في المنطقة ستتأثر بعدة محدِّدات أساسية، هي:[38]

تعارض أهداف التحالفات الإقليمية: إذ يُتوقع نشوء تعارض بين أهداف ومصالح تحالفات متشابكة مع ترتيبات الأمن في منطقة البحر الأحمر، فمع انطلاق مبادرة لتشكيل تحالف الدول العربية لأمن البحر الأحمر وخليج عدن في أواخر عام 2018، يُتوقع أن تدفع الولايات المتحدة بتحالف استراتيجي آخر بينها وبين كلٍّ من دول الخليج الست ومصر والأردن، ومع استبعاد إسرائيل من التحالف العربي الأول، فإن ثمة توقعات

(38) أمن البحرين الأحمر والمتوسط : تحالفات متعارضة وتوازنات قوى جديدة، المركز المصري للفكر والدراسات الاستراتيجية، 2 يناير 2019.

بنشوء ضغوطات عليه، سواء من قبل تل أبيب أو واشنطن، مما يمثّل عائقًا أمام تفعيل تحالف الدول العربية لأمن البحر الأحمر وخليج عدن في المستقبل، لكن في المقابل ليس متوقعًا تنفيذ التحالف الاستراتيجي الذي تسعى إليه الولايات المتحدة، لاعتراض الدول العربية عليه.

مدى استمرار توافقات القرن الأفريقي: إذ من المتوقع أن تواجه التحولات التي قادتها إثيوبيا – في ظل قيادة رئيس الوزراء آبي أحمد – لبناء توافقات مع جيرانها في القرن الأفريقي، ومحاولات لعرقلتها خاصة من قبل تركيا وقطر، وذلك لمواجهة المحور السعودي – المصري – الإماراتي في المنطقة، وإن كان ذلك التوقع يرتهن بعوامل أخرى قد تحدّ منه أو تبطئ إيقاع ذلك الصراع الإقليمي على استقطاب دول القرن الأفريقي، حال أخذت التسوية السياسية في اليمن مسارًا أكثر فعالية خلال عام 2019، أو استجابت الدوحة لمطالب دول المقاطعة العربية، على جانب آخر قد تحظى كل من إريتريا وجيبوتي بحضور أكبر في الترتيبات الأمنية في البحر الأحمر مقارنة بإثيوبيا.

ترتيبات أمن الخليج العربي: تحمل الشهور القادمة تحديات لأمن الخليج العربي بسبب ارتفاع حدة التهديدات التي ترتبط بأمن البحر الأحمر، ومع ذلك تبقى هنالك فرص خلال الفترة القادمة في ظل احتمال البدء بتنفيذ مشروع "نيوم" بين السعودية ومصر والأردن، مما قد يوفر مصالح استراتيجية واقتصادية لتلك الدول لدعم شراكاتها في البحر الأحمر، وتزداد تلك الفرص في دعم ترتيبات عربية في البحر الأحمر، إذا أخذت التسوية اليمنية مسارات أكثر تقدمًا، لا سيما وأن ذلك قد يعني قضية إعادة إعمار هذا البلد، كساحة يمكن أن تشهد توافقات عربية ودولية.

حدود الاستقرار في قطاع غزة: قد يُلقي استقرار قطاع غزة بتأثيراته على أي ترتيبات أمنية لمنطقة البحر الأحمر، لكن من المتوقع أن يكون إحلال الاستقرار في غزة صعب المنال خلال الفترة القادمة، خاصة في ظل خطة أمريكية للسلام تُعرف إعلاميًّا بصفقة القرن قد تَلقى رفضًا من الفلسطينيين.

خاتمة

إن وجود نظام أمني مستقر في منطقة البحر الأحمر، أو على الأقل وجود ترتيبات أمنية محددة، بات أمرًا ضروريًّا وليس ترفًا سياسيًّا، من خلال إنشاء كيان تنظيمي عربي للبحر الأحمر وخليج عدن، وفي أقل التقديرات التنسيق المشترك بين الدول العربية المعنية، بهدف دعم السيطرة الإقليمية العربية على البحر الأحمر، هذا التنسيق يكون في المجال المعلوماتي بالأساس، وعمل المناورات البحرية المشتركة فيما بينها أو بين قوى صديقة في البحر الأحمر لرفع مستوى الكفاءة والجهوزية للقوات لمواجهة التهديدات المحتملة، والحفاظ على توازن القوى بين الدول العربية والقوى الدولية والإقليمية المتنافسة على تحقيق مصالحها في البحر الأحمر.

ولعل التدريبات العسكرية التي أجرتها القوات المسلحة المصرية مع عدد من الدول في المنطقة على رأسها الأردن تحت عنوان "مناورات العقبة" ومع السعودية تحت مسمى "النجم الساطع"، ومع الإمارات "زايد"، تأتي في إطار هذا التحرك الذي يهدف إلى تدشين كيان موحد من الدول العربية،[39] وكذلك التحركات البحرية المصرية المتواصلة في البحر الأحمر تحت غطاء العملية العسكرية سيناء 2018.

(39) عماد عنان، هل يصبح "كيان البحر الأحمر" بديلاً لـ"الناتو العربي"؟، موقع نون بوست، 13 ديسمبر 2018.

عـــروض كتـــب

- الاستجابات العسكرية للانتفاضة العربية — عمـــــــاد الدين حلمي
- اشكالية الاصلاح التربوي في بلادنا العربية — منة الله خـــــالد محمد

الاستجابات العسكرية للانتفاضة العربية
ومستقبل العلاقات المدنية – العسكرية في الشرق الأوسط

تأليف: ويليام سي. تايلور ترجمة: أسامة عباس عمرو بسيوني

الناشر: ابن النديم للنشر والتوزيع – الجزائر – دار الروافد الثقافية – لبنان،
الطبعة الأولى، 2018

على الرغم من أن أحداث الربيع العربي تذكر العالم الغربي مجددا كيف أن فهمه للعالم العربي ضئيل فقد قدم سوقا لصناع الرأي من مختلف التوجهات لشرح نقطة التحول التي حدثت وظهرت في صورة ثورة شعبية كان من أهم أسبابها الاقتصاديات الباهتة، والمؤسسات الجامدة التي تعاني فقر الدم، ودور وسائل التواصل الاجتماعي التي تذكر كل ذلك ضمن التفسيرات المفضلة، ومن المثير للدهشة أنه قد سعت قلة قليلة لتفسير الدور الذي لعبته الجيوش خلال هذه الثورة الكاسحة، فإن أي دارس للشرق الأوسط سيخبرنا أن الجيوش العربية كانت دائما في مركز الحياة السياسية في الشرق الأوسط، كقاعدة عامة، ولمدة طويلة مثلت القوات المسلحة أقوى المؤسسات المحلية في أنحاء المنطقة يساعدها في ذلك الموارد الهائلة التي خصصت لنفقات الدفاع.

وبالنسبة للكتاب فهو مكون من تسعة فصول، الفصول الثلاثة الأولى يقول الكاتب فيهم أن الجيوش العربية لعبت دورا محوريا أثناء نتيجة الاضطرابات العربية الشعبية واسعة النطاق. وعلى الرغم من أوجه الشبه الاقتصادية والاجتماعية والسياسية الكثيرة بين الدول العربية، فإن الجيوش العربية لم تستجب للثورات بصورة موحدة، فبعضها قد انكسر أو تفتت، وبعضها ظل موحدا، وأيد بعضها النظام الحاكم بقوة، ووقف بعضها بجرأة مع المتظاهرين، وبقى بعضها على الحيـــاد، فقد فشلت نماذج السلوك العسكري

التي وضعت لعقود خلال موجة الأبحاث الأكاديمية عن تدخلات الجيش في الشؤون السياسية، سواء في التنبؤ بتصرفات الجيوش خلال الثورات العربية الاخيرة، أو في تفسيرها، فقد اعتاد العلماء والخبراء المتخصصون في العلاقات المدنية العسكرية في العالم العربي، قديما وحديثا، أن يشيروا إلى مجموعة أحادية من العوامل الداخلية والخارجية، كمحددات وحيدة لاستجابات الجيوش، لم يكن أي من هذه العوامل كافيا لتفسير الاختلاف الشديد الذي شهدته المنطقة بين استجابات الجيوش العربية، حتى في حالة التشابه في العديد من المؤثرات الخارجية.

حتى الآن، عانت الأدبيات التي تحاول أن تعالج سؤال : تباين دور الجيوش في الثورات العربية، من التبسيط الشديد لذلك اللغز المعقد، عن طريق تأطير السلوك العسكري، فعلى سبيل المثال، يعتقد البعض أن الجيوش استجابت بصورة مختلفة إذا كان أفرادها قد تلقوا تدريبات في الغرب، وفقا لهذا الرأي، لم يطلق الجيش المصري أو التونسي النار على المتظاهرين، لأن التعليم العسكري الغربي لقادتهم قد غرس فيهم معايير حقوق الإنسان ' في المقابل لا ترسل سوريا أو ليبيا ضباطها إلى المدارس الأمريكية، ومن ثم أظهرت تلك الجيوش القليل من ضبط النفس، بينما يؤكد آخرون أن الضغوط الخارجية أثرت على ردود أفعال المؤسسات العسكرية، أكثر مما أثر اكتساب المعايير الغربية، ويرى آخرون أيضا أن الولاء لمذهب أو عرق معين، أو التجانس الأقوى للمجتمع، هو الذي يحكم سلوك الجيش.

أما تحليل الكاتب فيرى أن الاستجابات العسكرية للثورة العربية لا يمكن إخضاعها لاستجابات الجيوش العربية تجاه الاضطرابات الاجتماعية، ومن الواضح أيضا أن أحداث الربيع العربي تقود حقبة جديدة من العلاقات المدنية العسكرية في الشرق الأوسط العربي، فقد تغيرت البيئات الدولية والمحلية التي كانت تؤثر على العلاقات المدنية العسكرية العربية تغيرا جذريا، منها الحرب الأمريكية العالمية على الإرهاب، وظهور وسائل التواصل الاجتماعي وتنامي النفوذ السياسي الإسلامي، بالإضافة إلى أن العلاقات المدنية العسكرية تعاملت مع الجيش كسليل للتدخلات السياسية، وليس كحكم

في شأن ثورة شعبية هائلة فقد وجدت الجيوش العربية أنفسها في الشرق الأوسط وشمال إفريقيا عام 2011 كرد فعل لظروف غير متوقعة في بلادها، وكانت مجبرة على عجل في ظل معلومات محددة في بعض الحالات أن تقرر ما إذا كانت ستصطف مع القادة السياسيين أو المتظاهرين، وأخيرا لم يكن لتلقي الضباط العرب تعليما عسكريا في الكليات العسكرية تأثير حاسم على سلوك الجيوش العربية خلال الانتفاضات الاجتماعية فقد أظهر المسح الذي أجراه الكاتب على الضباط الدوليين الذين التحقوا بالكليات العسكرية الأمريكية أنه في معظم الحالات ليست هناك علاقة دلالة إحصائية، بين المدة الزمنية التي قضاها الضباط الأجانب في الولايات المتحدة وبين آرائهم فيما يتعلق بالسياسة الخارجية الأمريكية.

ثم يناقش الكاتب بعد ذلك ماضي العلاقات المدنية العسكرية العربية ومستقبلها حيث يشرح الفروق التاريخية الدقيقة لتدخل الجيوش العربية في الشؤون السياسية ،موضحا أن الكثير من السلوك الإنساني يعتمد على المسار التاريخي، فالماضي يشير إلى المستقبل، ولن يكون فهم السلوك العسكري في خضم الصحوة العربية مكتملا دون فهم العلاقات المدنية العسكرية في الشرق الأوسط، منذ الحرب العالمية الثانية، كما ويسلط الضوء على أنه لا يوجد عامل سلبي صارم وحيد، يستطيع أن يفسر الطريقة التي تدخلت بها الجيوش العربية في الصحوة العربية، ففي سياق تعاظم الأحداث التاريخية الإنسانية تتعدد العوامل المختلفة، فإننا ندخل حقبة جديدة من العلاقات المدنية العسكرية في الشرق الأوسط وشمال إفريقيا، فلم تعد الجيوش العربية حامية للأنظمة المستبدة ولا رائدة تغيير الأنظمة، ولكنها ستقوم في جميع أنحاء الشرق الأوسط وشمال إفريقيا بدور الحكم في الاضطرابات الاجتماعية، لتقرر ما إذا كانت ستدعم الشارع أو تدافع عن النظام.

أما الفصول من الرابع إلى السادس فيتحدث الكاتب بداية عن الدعم الطموح من الجيش التونسي للصحوة العربية ، حيث كان التونسيون يحترمون القوات المسلحة قبل الثورة احتراما واسعا بسبب موقعه من السلطة والمساعدات الإنسانية وسمعته الطيبة كمؤسسة وطنية لا بسبب قوته العسكرية، أو انتصاراته السابقة.

فكانت إزاحة بن علي من السلطة ستؤدي إلى إعادة التوازن لقوة الجيش في مواجهة وزارة الداخلية، فقبل الانتفاضة الشعبية، كانت وزارة الداخلية تتفوق على القوات المسلحة بكل اعتبار، فقد تمتعت وزارة الداخلية بمزيد من السلطة السياسية، وبميزانية أكبر وحجم قوات أكبر، وصلاحيات أوسع، فمثلا كانت ميزانية وزارة الداخلية 106 مليون دولار فقط عام 1984، قبل ثلاث سنوات من سيطرة بن علي على الرئاسة، لكن بعد عشرين عامًا، ارتفعت الميزانية إلى 410 مليون دولار، بزيادة 75% وفى المقابل لم تزد ميزانية القوات المسلحة إلا بنسبة 18%، كما كان تعداد القوات المسلحة أقل بشكل ملحوظ من تعداد أفراد الداخلية 37 ألف جندي في مقابل 200 ألف في وزارة الداخلية .وكان ضباط الجيش التونسي يشتكون دائما أنهم في المركز الأخير من بين أجهزة الأمن، وكان الجيش يشعر بالاستياء أن يلعب دورا ثانويا بعد الحرس الوطني في الدفاع عن البلاد.

وخلال ثورة الياسمين اتخذ الجنرال عمران وقادة القوات المسلحة قراراتهم بحساب عقلاني مدروس لتعزيز مصالح المؤسسة العسكرية، لقد عاشت هذه المؤسسة في الظل قبل الثورة، وفي أعقابها أصبحت القوات المسلحة تتمتع بمزيد من الموارد والنفوذ المجتمعي، والسياسي، كما أصبحت تضم أول بطل قومي في تاريخ تونس الحديث، الجنرال عمار، ولم تكن القوات المسلحة لتحقق أي مكاسب إذا قررت قمع الاحتجاجات باستخدام القوة المميتة، بل كان قتل المواطنين سيؤدي إلى تآكل القاعدة الأساسية للقوات المسلحة .

ثم ينتقل الكاتب بحديثه بعد ذلك إلى الجيش السوري، فيقول بعيدا عن نظائرها الإقليمية صمدت النخبة العسكرية السورية، أمام الموجة المتصاعدة من الاضطرابات الداخلية منذ اندلاع الانتفاضة العربية في درعا، في منتصف مارس 2011، ومنذ ذلك الحين توقع الكثيرون داخل سوريا وخارجها وفى الغرب إلى زوال النظام العلوي، ومن الواضح تماما لماذا اعتقد الكثيرون أن أيام الأسد باتت معدودة، لقد كان الجيش يستطيع أن يطيح بسهولة بالأسد، في محاولة لتهدئة الحشود، وعلى الرغم من ذلك وعلى خلاف

جميع التوقعات، فقد أظهرت النخبة العسكرية التي تسيطر عليها الطائفة العلوية دعما قويا للغاية لسياسات النظام.

ويقول الكاتب إن مهمة استجابة الجيش السوري للنظام تقدم الكثير من التساؤلات، وربما كان هذا هو السبب الأساسي لقلة الدراسات حول هذا الموضوع، أو لعدم فهمه، حيث كان النظام السوري شديد السرية والتحفظ والغموض، وفى سورية استخدم الأسد وعدد من قيادات حزب البعث الآخرين في دائرة النظام الداخلية، أجهزة الأمن بالاشتراك مع الوحدات العسكرية للقضاء على المظاهرات، ومع التغطية الإعلامية الأجنبية غير المكتملة، تم إلقاء اللوم على اللاعبين الخارجين بما في ذلك إسرائيل والعراق والأردن والسعودية وغيران وحزب الله وروسيا والغرب والإسلاميين المتشددين، يبقى السؤال عن حسابات صنع القرار لدى الجيش السوري، مسألة مفتوحة، وحتى الآن، فقد دعمت النخبة العسكرية النظام السوري بقوة، لحسابها أنها لن تربح إلا القليل وستخسر الكثير إذا دعمت الجانب الآخر.

وينتقل الكاتب بعد ذلك إلى الجيش المصري فعلى خلاف بعض الدول الأخرى لم تكن هناك ضوابط عرقية على التحاق الضباط بالقوات المسلحة أو ترقيتهم، ولم يعرقل ذلك القيادة العسكرية فإن مصر متجانسة عرقيا، حيث إن أكثر من 99% من سكانها هويتهم مصرية، وتنقسم البلاد إلى 90% من المسلمين السنة و9% من الأقباط المسيحيين، لكن هذه الاختلافات الدينية لم تكن مصدرا للنزاع داخل القوات المسلحة ويتكون الجيش المصري من 60% إلى 70% من المجندين، وهم يمثلون بشكل عام التركيبة الدينية والطبقية للدولة، وبالتالي فإن العديد من الجنود من المناطق الريفية، ولذلك قال أحد الضباط المصريين البارزين إن القوات المسلحة لديها علاقات حميمية مع المصريين لأننا من الشعب المصري.

هذا وتحتل القوات المسلحة موقعا مهما في المجتمع المصري قبل الانتفاضة فقد أظهرت استطلاعات الرأي باستمرار أن الشعب يرى المؤسسة العسكرية الأكثر كفاءة

والأكثر تحديثا والأقل فسادا بين مؤسسات الدولة والوحيدة التي تضم أكبر عدد من المثقفين والشرفاء والمخلصين.

ثم يقول الكاتب إنه لا توجد أي أدلة تشير إلى النخب العسكرية قد انحازت للثورة في شهري يناير وفبراير عام 2011 بسبب التأثير الأمريكي، أو بسبب مصلحة الجيش في صياغة دور آخر له في هيكل السلطة في مصر، فكانت استجابة الجيش بطيئة في أول الأمر ولم يتدخل لإجبار مبارك على التنحي إلا حينما شعر أن تردده في التدخل سيضر بمصالح الوطن ومصالح المؤسسة العسكرية .

أما الفصول من السابع إلى التاسع ففيها موضوع هام جدا ألا وهو تأثير الولايات المتحدة على صناعة القرار العربي في أوقات الاضطراب الاجتماعي، حيث يقول إنه على مدى عقود طويلة سعت الولايات المتحدة للتأثير على الجيوش العربية، وشملت أساليب ممارسة ذلك التأثيـــر : المنح الدراسية لضباط الجيوش العربية للالتحاق بالكليات العسكرية الأمريكية، وتنظيم التبادلات المناورات العسكرية، ورحلات العرض الثقافي مع الجيوش العربية، وتقديم مساعدات عسكرية واقتصادية ضخمة للدول العربية، وفى ضوء الانتفاضات الشعبية الأخيرة في منطقة الشرق الأوسط وشمال إفريقيا، حان الوقت لدراسة أثر تلك الجهود على حسابات صنع القرار في الجيوش العربية، أثناء الانتفاضات وبعدها، هل هناك علاقة تربط بين درجة التعليم العسكري التي تلقاها الضباط الأجانب أو المبيعات العسكرية الأمريكية، وبين قرارات هذه الجيوش بالانحياز إلى الشارع أو دعم النظام الحاكم، وقد أخذ الكاتب على عاتقه أن يرصد مواقف الضباط العرب وتصوراتهم، الذين التحقوا بالكليات العسكرية الأمريكية، حيث تشير النتائج التي توصل إليها أن التدريب العسكري للضباط العرب في الكليات الأمريكية، والمساعدات العسكرية والاقتصادية للدول العربية، لم يكن لها دور حاسم في صنع القرار العسكري خلال الانتفاضات الشعبية، وليس هناك إحصائية بين المدة التي قضاها الضباط الأجانب في الولايات المتحدة وبين آرائهم بشأن الديمقراطية وحقوق الإنسان والليبرالية، واعتماد بلدانهم على الجيش الأمريكي سواء في جانب التسليح أو إدارة النظام الدفاعي،

واللافت للنظر، أنه قد أظهر الضباط الأجانب الذين تلقوا تعليمهم منها نفورا من السياسة الخارجية للولايات المتحدة ومن بعض جوانب الحياة الاجتماعية الأمريكية، بما يتناسب طردا مع فترة إقامتهم في الولايات المتحدة، فإن تلك النتائج تفرض التساؤل حول تأكيدات الباحثين السابقين على أن التدريب العسكري الأمريكي للضباط الأجانب في الكليات العسكرية يجعلهم أكثر تقبلا للولايات المتحدة، وينقل إليهم القيم الغربية، ويقلل من اعتمادهم على الجيش الأمريكي في إدارة مؤسساتهم الدفاعية، ويرى الكاتب أن الباحثين السابقين عانوا من عدد من أوجه القصور، بما في ذلك الاعتماد الزائد على الحكايات والأقاويل، والخلط بين الأهداف المتعددة لبرامج التدريب العسكري للضباط الأجانب، والاقتصار على تحليل اتجاهات الليبرالية على مستويات وطنية بدلا من رصد آراء الضباط أنفسهم بالإضافة إلى الانحياز الغربي.

ثم يشير الكاتب بعد ذلك إلى توصيات للسياسة الأمريكية حيال منطقة الشرق الأوسط، حيث يقول إنه ينبغي على صناع السياسة الأمريكية أن ينتبهوا إلى عدة دروس مستفادة من هذه الدراسة، أولا سوف تستمر الجيوش في الشرق الأوسط في لعب دور مهم في المنطقة في المستقبل المنظور، ومع تبني العديد من الدول العربية للديمقراطية، سوف تكون جيوش تلك الدول بمثابة الحكم الذي يفصل في النزاعات الاجتماعية، وسوف تكون حسابات صناعة القرار متسقة مع القيود السياسية ومصالح المؤسسة العسكرية، وفي سياق كل دولة وحكومتها واقتصادها ومجتمعها، وأيضا ينبغي أن يعترف صناع السياسة الأمريكيون بمحدودية تأثيرهم في السلوك العسكري العربي فيما يتعلق بالمسائل الداخلية، وهنا لا يقلل الكاتب من أهمية المبيعات العسكرية إلى الدول العربية، فضلا عن تدريب الضباط العرب في الكليات العسكرية الأمريكية، فسوف تستمر الكليات العسكرية في وظيفتها النافعة في تحسين فهم الضباط الأجانب لثقافة الولايات المتحدة ومؤسساتها (السياسية والاقتصادية والعسكرية)، وتسهيل التواصل المباشر بين الضباط، وتعزيز العمل العربي المشترك وبناء التحالفات، فإن الولايات المتحدة تستفيد من ذلك أن هؤلاء الضباط الأجانب يعملون على تقليل سوء التفاهم الأمني بين الدول، لكن تدريب

الضباط الاجانب في الكليات العسكرية الأمريكية قد لا يؤدي إلى تحسين مكانة الولايات المتحدة بين هؤلاء الضباط، ولا إلى زيادة اعتماد جيوشهم على المبيعات العسكرية الأمريكية، ومن أوجه متعددة، سوف تتأثر حسابات صنع القرار لدى الجيوش الأجنبية بالسياسة الخارجية للولايات المتحدة، بالأوضاع الداخلية السياسية والاقتصادية والاجتماعية في ذلك البلد.

عمـــــاد الديـــن حلمـــي

الأمانة العامة لجامعة الدول العربية

إشكالية
الإصلاح التربوي في بلادنا العربية

تأليف : د. على قابوسه - بلعيد أحمد الزرقاني

دار الحامد للنشر والتوزيع – عمان – الأردن، الطبعة الأولى، 2017

إنه من الضروريات التي يتحتم على أي شخص عربي أخذها بعين الاعتبار ومن ضمن الأولويات الضرورية هو الإصلاح التربوي وخاصة في إطار التغيرات السريعة التي مر بها العالم العربي، فالمرحلة التي مر بها جديرة أن تضع خارطة للمستقبل ومن أولويات المستقبل الإصلاح التربوي وأيضا معرفة الجهود المطلوبة في المرحلة الانتقالية والسعي لتحقيق آمال وتطلعات الشعب العربي وفق رؤية مستقبلية متوازنة تأخذ بعين الاعتبار الماضي والحاضر والمستقبل.

فالعالم العربي رغم التفاوت في مستوى الإصلاح التربوي لا يحتاج إلى عناء كبير كي يفهم أو يدرك مدى الهامشية التاريخية التي وصل إليها وما آلت إليه أمتنا من أنظمة استبدادية وتبعية في المجالات السياسية والاقتصادية والثقافية، الأمر الذي أفقدها الاهتمام بالإصلاح التربوي.

أما عن أولى المشاكل التي يحللها الكتاب هي مشكلة التربية والتعليم حيث إنها من الأمور المعقدة التي تواجه المستقبل العربي، و بالخصوص الدول النامية وهي من المواضيع التي تشغل بال كل المفكرين وأهل الإصلاح.

ثم يشير الكاتب أن التربية النموذجية ظهرت على أيدي الأنبياء والرسل، والديانات السماوية، وأي شخص يدرك تلك الأهمية كمنهج فيه السلامة والأمن عندما تم تحديد

أهداف التربية لبناء الإنسان المتكامل، وازداد موضوع التربية تعقيدا بالتطور الصناعي الذي حدث بكل متطلباته، فمثلا مشكلة التربية إبان الثورة الصناعية في أوروبا فقد كانت عميقة بسبب الانشغال بالصناعة والاقتصاد، وأيضا بعد اندلاع بعض الثورات الأوروبية كالثورة الفرنسية مثلا عندما رفعت شعار الديمقراطية والعدالة، ولكن كان الظاهر غير الباطن فقد ظهر التباين بين المجتمعات وظهرت الطبقية فكان هناك السيد والعبد وصارت التربية لديهم مشكلة سياسية بحته تخضع للصراع على السلطة.

أما دول العالم الثالث فقد اختلفت مفاهيم التربية باختلاف نوع المستعمر فبعد أن كان الاستعمار غزوًا مباشرًا لدول العالم الثالث ونهب خيراته لسد العجز الصناعي تحول فيما بعد إلى غزو فكري تحولت به كل دولة مستعمرة إلى فكر المستعمر ذاته وهذا من عوامل الهدف الفكري والحضاري لهذه الدول، بل أصبحت الدول المستعمرة ما هي إلا أداة تبعية سياسية واقتصادية مجحفة وتقليد أعمى واستهلاكية تواكلية، الأمر الذي جعل التربية في العالم العربي يصل إلى درجة كبيرة من التعقيد بفعل آثار المستعمرين.

أما المشكلة المطروحة اليوم في مفهوم التربية، هو البحث عن كيفية بناء الإنسان العربي النموذجي وفق مفهوم التوازن، فالتربية أيضا هي صلب الحضارة تستمد منها روحها وحياتها، ولم تنشأ حضارة على الأرض إلا لمفاهيم التربية فهي الأساس الأول في البناء.

هذا فإن التربية في ظل متطلبات الثورات العربية وأهدافها عليها أن تأخذ بعين الاعتبار هذه الأجيال التي فرغت عقلها من مفاهيم الدين والتاريخ والقومية ذلك للتخلص من عقدة الإرث السلبي الثقيل والولوع بالتبعية لوضع حد لها بكل معانيها السياسية والاقتصادية والثقافية، وهذا لا يتم إلا بإصلاح المنظومة التربوية من الأساس، وبمعنى أدق هو البحث الجاد على نقطة بداية صحيحة لبناء سياسي واقتصادي وثقافي في المستقبل.

فالنظرة للعالم العربي باتت في حساب أعدائه هي القضاء عليه بمفاهيم تربوية مختلفة، وقد ظهر أخيرًا مفهوم العولمة للقضاء على النظم التربوية العربية ويعوضها بعد ذلك بنموذج يوافق أهدافهم السياسية لتكوين جيل ليس له عقيدة أو أخلاق، وهنا يتحتم على كل الخبراء وأهل المعارف النظر إلى كل الإصلاحات في النظم التربوية في بلادنا العربية ومدى انعكاساتها الثقافية والبنائية على الشخصية العربية والنظر بعين الاعتبار للتربية التي تعاني من المأزق المادي الذي غزا بلادنا العربية وأبوابه المفتوحة ورجال الفكر متفرجون وكأن معنى التوازن تحقق في ظل ذلك.

ثم ينتقل الكاتب إلى موضوع آخر عنوانه ديمقراطية التعليم في بلادنا العربية، حيث ترتبط السياسة التعليمية بالسياسة العامة لأي بلد ارتباطا كليا، فالدولة الحديثة ذات المؤسسات الاجتماعية المختلفة لا تخلو من أيديولوجية تبنى على فلسفتها العامة وتحدد منهجها السياسي لتحقيق مختلف أغراضها وأهدافها في كل من المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية.

فالفجوة التي صارت تفصل بين الأمم المتقدمة، والأمم الغائبة ومنها الدول العربية فجوة واسعة ففي الوقت الذي يتطور فيه المتقدمون وبدرجة كبيرة، تتأخر الدول النامية بنفس القدر ينمون على حساب تأخرنا، وهذا ما يجعل ثرواتنا وثروات العالم بيد الأقوياء ويحرم الانتفاع بها أغلب الضعفاء وصاروا خارج الحضارة العالمية، الأمر الذي لا يسمح بوجود عالم عربي ينعم بالأمن والاستقرار.

ويعود الكاتب مرة أخرى بتحليل أسباب ذلك التخلف العلمي الذي يواجه عالمنا العربي، ويتلخص في عدة نقاط منها-:

- أن الكوادر العملية والعلمية العربية الفعالة تركت فراغا كبيرا في مجالات العمل المثمر المنتج للتقدم، بل حرمت العيش في وطنها، ولعل من نتائج هذا الفراغ هو غلبة المستوى السطحي على الساحة الثقافية العامة والكفاءات البسيطة فقل الإبداع والاختراع والعجز عن التجديد، وضاع التراث وطغت المشاكل.

- انعدام وجود المعاهد العربية العليا في مختلف العلوم والتقنيات في البلاد مما يدل على ضعف الشعور بالحاجة إلى الكوادر والكفاءات الممتازة، أضف إلى ذلك عدم تشجيع للكوادر الممتازة وإفساح المجال لهم في البحث والاكتشاف والإصلاح أمامهم وتأمين الحريات والحقوق ليكونوا في مستوى المهام والواجبات والمسئوليات الكبرى.
- عدم وضع خطة تربوية شاملة يظهر فيها الوعي بالحاجة إلى كل الكوادر العلمية والنخب الفاعلة.

أما عن مناهج التعليم في الدول العربية، فيقول الكاتب إن التطور العلمي وتغير المفاهيم والمعرفة فرض ولزم على العملية التربوية أن تكون متجددة متغيرة ولابد أن يكون المتعلم هو محور العملية التربوية، وتجدر الإشارة هنا أيضا إلى أهمية تغيير مهمة المعلم من التلقين إلى التوجيه إذ بدون ذلك تصبح العملية التربوية عملية ارتجالية في حين أنها عملية هادفة تتطلب وبشدة الإشراف الحكيم من ذوي الكفاءات التربوية العالميــة، وأن الملاحظ في بلادنا العربية أن مهنة التعليم إذا ما قورنت بالأصول والتاريخ فإنها لم تصل أبدا إلى المطلوب والسبب في ذلك طغيان الاتجاه المادي على القيم والمفاهيم التربوية المتزنة وبذلك صارت مهنة التعليم حرفة كسائر الحرف لا يريد منها صاحبها غير الكسب المادي.

أما عن الغزو الثقافي للدول العربية وأثره، فإن الواقع الذي يعيشه العالم العربي، هو ما أراده الاستعمار بغزوه الثقافي وتكمن هذه الخطورة في أن نية وعزم السياسة الاستعمارية كانت مجهولة لدى أغلب الشعوب التي ليس لها رصيد كبير من الوعي السياسي لأن عبقرية سياسة المستعمر دبرت بدقة وإحكام الأمر الذي جعل الشعوب العربية لا تفطن لما يعد لها في الخفاء بل انساقت في تياراتهم المعدة وتنفذها بدون وعي، فقد تطورت فنيات التحكم في الشعوب بازدياد أنواع الأسلحة الفتاكة، فضيقت الخناق على الشعوب لنهب ثرواتها الطبيعية.

فعدم الوعي الثقافي في بلادنا العربية دليله أن الغزو الثقافي أدى إلى أن بعض الناس يقبلون على الفكر الملحد وهم به كافرون، ويتهافتون على الفساد وهم له منكرون ويعملون على توطيد التبعية وهم لها كارهون.

ثم يتطرق الكاتب بعد ذلك إلى موضوع آخر عنوانه الإصلاح الاقتصادي والاجتماعي في الدول العربية، حيث إن الاتجاهات السائدة الآن في بعض الدول العربية هي الاستعانة بالخبرات الأجنبية التي ساهمت في هجرة الكفاءات والخبرات العربية إلى دول المهجر لما لمسوه من سلبيات سياسية واقتصادية وأيضا الاستهانة بقدرتهم العملية العلمية فزمام الأمور أصبحت في يد الخبير الأجنبي رغم أن تلك الأمور لها درجة كبيرة من الخصوصية والسرية، كالتخطيطات الإنمائية، والشؤون العسكرية وأيضا هناك توظيف الأجانب في المؤسسات الحساسة ذات الطابع السياسي والدبلوماسي وهذه الأمور التي تمثل خطرا على الدولة من عدة نواحٍ منها، معرفة الأجانب للاتجاهات السياسية والاقتصادية والعسكرية واطلاعهم على بعض الأسرار الفنية الدقيقة، بالإضافة إلى استغلال الوظائف الهامة والعمل على إعطائها لغير أهل البلد الأمر الذي يساعد على تفشي البطالة وتأخير عملية التنمية، واستنزاف النقد الأجنبي من العملة الصعبة لتسديد أجور الكوادر الأجنبية.

وهنا يتساءل الكاتب عن دور خريجي الجامعات الأجنبية في عملية التنمية والإصلاح الاقتصادي وأين البعثات الخارجية، التي هي بديل للخبرات الأجنبية.

ثم حديث الكاتب بعد ذلك عن التوجيه الديمقراطي، حيث يقول أخيرا إن إعادة النظر في النسيج الاجتماعي ومتطلبات العصر من الإصلاح التربوي يجب أن يستبعد السلطة الأحادية في تفويض أمر الشعب، وأن تبنى خريطة طريق للإصلاح عامة فليس الإصلاح عبارة عن شعارات ترفع ووعود زائفة، وعلى هذا الأساس فإن الإصلاح الدستوري عليه أن يأخذ بعين الاعتبار الديمقراطية الحقة والعدالة والحرية ويبعد عن قيد التبعية الغربية، ولكي نتجنب السياسات التقليدية في بلادنا العربية يجب أن نتبع عدة خطوات هامة أهمها-:

- أي فرد يسعى إلى منصب سياسي عليه أن يقدم البرنامج العملي حتى تكون الصورة واضحة واتجاهه الإصلاحي ظاهر للشعب.
- التثقيف المستمر وفق إعلام حر، يتبنى مفاهيم الإصلاح في كل المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية.
- ألا نتكل على الغرب على مستوى الوسائل وعلى مستوى الغايات والأهداف الكبرى لكي نوافق أو نقترب من الدولة المتقدمة لكي نصنع تاريخنا بنظرة ذات أبعاد ثلاثية للماضي والحاضر والمستقبل.

فإن المسألة المهمة اليوم والمعول عليها، هو إصلاح المنظمات التربوية وهو الأمر الذي يفرض نفسه على الشعوب العربية لكي تتحرك بكل قوة للنهوض برقي بلادهـا.

وعلى هذا فإن هذه الدراسة عبارة عن جرس إنذار للشعوب العربية للسعي وراء الإصلاح حيث إن عقودًا مضت ونحن نتطلع إلى الرقي والتقدم وتجسيد مفاهيم العدل والحرية والديمقراطية.

منـــة اللـــه خالـــد

باحثـة فلسطينية

مجلة " شـــؤون عربيـــة "

مجلة فصلية

تصدر عن الأمانة العامة لجامعة الدول العربية

رئيس التحرير – السفير / سعيد رفعت

تغطي المجلة الموضوعات والقضايا العربية – غير القطرية – في كافة المجالات السياسية والثقافية والاقتصادية والاجتماعية والعسكرية والإعلامية، وترحب بمشاركة المفكرين والمثقفين العرب فيها حسب القواعد التالية:

- تنشر المجلة أبحاثاً ودراسات من المدارس الفكرية المختلفة، ويكون معيار النشر هو الموضوعية والمستوى العلمي، والدقة، ودرجة التوثيق.
- يتراوح حجم الدراسة بين 4000 و 6000 كلمة. ويشترط أن تكون موثقة علمياً، وأن تشتمل الإشارات المرجعية على: اسم المؤلف، عنوان الكتاب، دار النشر، مكان وسنة النشر، رقم الصفحة.
- كما ترحب المجلة بالمشاركة في أبوابها الأخرى (مقالات حول أهم القضايا العربية والأحداث السياسية الجارية في العالم العربي فيما لا يزيد عن 2500 كلمة – تقارير عن الندوات والمؤتمرات التي تعقد في الوطن العربي أو في دول أخرى حول موضوعات تخص الوطن العربي، عرض ونقد الكتب التي لم يمض على صدورها أكثر من عامين فيما لا يزيد عن 1500 كلمة).
- يشترط أن تكون الدراسات مطبوعة على الكمبيوتر، ومرفقة بتعريف بحياة الكاتب الفكرية، على أن تُرسل إلى المجلة على قرص خاص أو بالإنترنت.
- تحتفظ المجلة لنفسها بحق إجراء تغييرات في النص، بما يتلاءم مع أسلوبها في النشر.
- تلتزم المجلة بتقويم أية مساهمة تصل إليها، وإعلام الكاتب بذلك في خلال شهرين من تاريخ استلامها، والمساهمات التي تعتذر المجلة عن نشرها لا ترد إلى الكاتب.
- تصبح الدراسة التي أجيز نشرها ملكاً للمجلة ويؤول إليها حق النشر. ويحق للكاتب إعادة نشر الدراسة في كتاب فقط مع الإشارة إلى المصدر الأصلي للنشر.

المراسلات :رئيس تحرير مجلة " شؤون عربية " – جامعة الدول العربية – الأمانة العامة

ميدان التحرير – القاهرة – الرقم البريدي : 11642

هاتف : 23781911 – 23580375 / فاكس: 27514196

البريد الإلكتروني: shoun.arabiyya@las.int shounarabiyya@yahoo.com

رقم الترميز: م09/دوري 01(2019)/02/ ع.177(0147)

ISSN 1687 - 2452